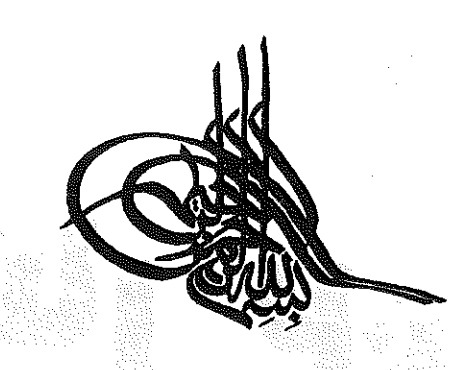

بشار بن برد
الشخصية والفن
د. إبراهيم عوض
بشار بن برد - الشخصية والفن
د. إبراهيم عوض
بشار بن برد
الشخصية والفن
د. إبراهيم عوض

بشار بن برد

الشخصية والفن



بشار بن برد

الشخصية والفن

د. إبراهيم عوض

دار الفردوس

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع
١٧٥٠٧ / ٢٠١٠

إهداء

إلى روح جدتى لأمّى ، التى كفلت وربَّت وأعطت كل شىء ، ولم تأخذ شيئا . رحمها الله رحمة واسعة ، وكتب لها جنّة الخلد .

مقدمة

فى الصفحات التالية دراسة لبشار : شخصيته ، وعقيدته ، وما رُمِى به من الشعوبية، وشعره وخصائص أسلوبه الفنى ، وما قيل إنه كان رائدًا فيه فى هذا الأسلوب .

وفى هذه الدراسة تفصيلٌ لبعض ما أجمله غيرى من الذى سبقونى إلى دراسة بشار، وإضافة له ، واستدراك على أشياء قيلت فى الشاعر وفى شعره ، وتحقيق لنسبة قصيدة أسندت إليه وإلى غيره فى الوقت نفسه ، ومحاولة لتقويم شعره فى ظلّ اختلاف الدارسين حول ذلك الشعر ، إذ يرفعه بعض إلى درجة عالية ، ويكتفى آخرون بالقول إن فى شعره جيدا كثيرا ، مع سوق حيثيات هذا التقويم مفصّلة .

ومن الفصول التى فصّلت القول فيها الفصلُ الخاص بعقيدته ، فقد استغرق بضع عشرات من الصفحات سقت فيها كل الآراء التى قيلت فى دينه والاتهامات التى وجهت إليه وما دُوفع به عنه ، ثم ناقشت كل هذا فى ضوء المعطيات التاريخية وما نعرفه عن شخصية الشاعر ، بالاستعانة بكل ما يتصل بهذه القضية من شعره .

ومن هذه الفصول أيضا ذلك الفصل الذى تناولتُ فيه خصائص شعر بشار ، فقد نبّهت إلى كثير من سمات فنه التى لم ترد فى كتابات من رجعت إليهم . وفى كثير من الأحيان لم أكتف بهذا، بل تتبعت هذه السمات عند من سبقوا بشارا من الشعراء من العصر الجاهلى فنازلا . وأحيانا ما كنت أجد عن طريق هذا التقصى التاريخى أن ما قيل فى ريادته فى هذه السمة أو تلك غير صحيح ، فكنت أنبّه إلى ذلك وأبيّنه .

وثمة فصل جمعت فيه الملاحظات اللغوية التى خرج فيها بشار عمّا هو شائع أو خالف شيئا من قواعد اللغة السائدة وحللتها وبينت الرأى فيها بشىء غير قليل من التفصيل .

وبالنسبة لقصيدته التائية المختلف فى نسبتها إليه وإلى غيره فقد توصلت من

خلال التحليل الأسلوبى والمضمونى لها أنها لبشار لا لغيره ، إذ يتوفر فيها عدد غير قليل من خصائص الشعر البشّارى . ولم أجد أحدًا درس هذه المسألة من قبل .

أما بالنسبة لتهمة الشعوبية التى رُمِى بها وأن موقفه من العرب والموالى قد انقلب رأسا على عقب بعد قيام الدولة العباسية التى رفع فيها الموالى رؤوسهم فقد بينت أننا لا نعرف هل بدأ بشار الهجوم على الأعراب والافتخار بأصله الأعجمى فى العصر العباسى أو كان ذلك فى أيام بنى أمية .

وأخيرا أدعو الله أن ينفع بهذه الدراسة .

حياة الشاعر وشخصيته

هو بشار بن بُرْد بن يرجوخ (١) ، وإن كان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ينفرد وحده ، فيما نعلم ، بالقول بأن يرجوخ هو نفسه اسم بُرْد قبل أن يسلم ، وأنه إذا كان اسم يرجوخ يُذْكَر بعد اسم بُرْد فذلك على البدلية لا على الأبوة (٢) . ولكن الشيخ ابن عاشور لا يسوق للأسف دليلاً على هذه الدعوى ، التى يخالف فيها كلّ من ذكر نسب بشار ، علاوة على أنه يقال : « برد بن يرجوخ » لا « برد يرجوخ » .

وقد أورد صاحب الأغانى سلسلة طويلة لنسب الشاعر ، عن غيلان الشعوبى ، مكونة من نيف وعشرين حلقةً وتنتهى ببعض ملوك فارس . كما أورد رواية أخرى عن حميد بن سعيد تؤكد ذلك . ولم يعقب على هذا النسب بما يفيد رأيه فيه . وليس أبو الفرج بدعًا بين الأقدمين فى عدم تعقيبه على ذلك النسب البشارى الملوكى ، إذ لا نعرف أحدًا منهم قد شكّك فيه .

على أن الأمر بالنسبة للباحثين العرب المحدثين مختلف ، إذ فيهم من يرفض هذا النسب ويعدّه من اختراع الشعوبيين لتمجيد الأعاجم من أمثالهم . وحجتهم فى ذلك أنه لم يعرف عن الأعاجم الاهتمام بأنسابهم كالعرب ، وبخاصة إذا طالت سلسلة النسب وغطّت قرونا طويلة ، كما هى الحال مع بشار . وفضلا عن هذا فقد كان بشار ، كما يقولون ، متلوّن الولاء : فتارة كان يفتخر بولائه فى قيس وبنى عقيل ، الذين كان أبوه عبدًا فيهم فأعتقوه ، وتارة كان يفتخر بأصله الأعجمى ويهجو العرب ويتبرأ منهم (٣) .

وبطبيعة الحال ، فإن النفس تميل إلى هذا الفرض حين تنظر فترى أن أبا بشار كان طيانا فقيرا ، وكان فوق ذلك عبدًا هو وزوجته ثم أُعتقا ، إذ إن الإنسان ليتساءل : ما للعبيد الطيانين والملوك ؟ ولكن التفكير العقلى لا يأبى أن يكون من ذرارى السلاطين والملوك والخلفاء والأباطرة من ينتهى بهم الأمر إلى أن يشتغلوا مثلا

كناسين وخدمًا بل ومن تُضْرَب عليهم العبودية ، مثلما يخبرنا التاريخ أن كثيرًا من عواهل الدُول هم من نسل جنود مرتزقة ، بل إن كافورًا الإخشيدى مثلاً ، وقد حكم إمبراطورية غير صغيرة ، كان عبدا خصيًا .

ثم إننا ينبغى ألا ننسى أن بشارا وحده ، دون نظرائه ، هو الذى كانت له هذه السلسلة . ولو كان الشعوبيون قد صنعوها لتمجيد الأعاجم فلماذا لم يصنعوا مثلها لغيره من مشاهيرهم ؟

وفوق ذلك ، فإن الرجل فى شعره كثيرًا ما وضع نفسه بإزاء الملوك : إما بوصفه واحدًا منهم ، أو مناظراً لهم ، أو متحديًا إياهم ، أو مستنكفًا أن يكون عليه سلطان لأحد منهم ، أو زائرًا وجليسًا من جلسائهم ... وهكذا ، ممّا سأستعرض شواهده فى موضعه من هذه الدراسة .

وليس شرطًا ، إن صحّ هذا النسب ، أن تكون سلسلته صحيحة كلها . كل ما هنالك أن أسلاف بشار ربما كانوا يعرفون أنهم يتصلون بنسب ملوكى فحفظوا ذلك وتوارثوه . وربما كانوا يعرفون أسماء بعض الأجداد الذين يصلون بينهم وبين ذلك النسب . ومن الجائز جدا أن الذاكرة قد ملأت الفجوات فى هذه السلسلة ببعض الأسماء كيفما اتفق . هذا كل ما هنالك .

أمّا ذهاب د نجيب البهبيتى فى اتهام الشعوبية إلى الحدّ الذى يصوّرها وكأنها قوى خارقة تستطيع أن تصل إلى أى شىء وتدمره وتعيد صياغته من جديد فهو إغراق شديد فى التخيل ، إذ يقول إن الشعوبية قد لعبت بالحذف والزيادة فى كتب الجاحظ ، حيث لا يُسْتَبْعَد أن تكون قد دسّت فيها على مؤلفها كلامًا طيبًا فى حق بشار (٤) . إن بشارًا ، وهو مجرد شاعر أعمى فقير ، لم يكن ليدفع الشعوبية ، لو كانت فعلاً بهذه القدرة التى لا يعجزها شىء ، إلى أن تفعل من أجله هذا ، إذ لم يكن مثلا زعيما سياسيا أو قائدا عسكريا يخططون له أن يخطف الملك من بنى العباس . ثم

هاهم أولاء البرامكة ، بكل هيلهم وهيلمانهم ، قد سقطوا بضربة واحدة من معول الرشيد . فمن يكون بشارٌ بالنسبة لهم ؟

وكان برد أبو بشار عبدًا رقيقًا ، وكذلك أمُّه ، التى يسميها حماد عجرد فى بعض أشعاره « غزالة » (٥) ، ثم أُعتقا . كما كان ذلك الأب ، مثلما سلف القول ، طيانًا . وتذكر الروايات أنه كان لبشار أخوان معوَّقان يشتغلان بالجزارة هما بشر وبشير ، وكان أحدهما أعرج والآخر أبتر . وكان بشار بارا بهما ، إذ كان يتركهما يلبسان ما يشاءان من ملابسه رغم ما كان يعانيه من جراء ذلك ، عندما يلبسها بعدهما ، من وساخة ونتن ، مما كان ينفّسه عن نفسه بالتهكم الظريف ، إذ كان يقول عن ذلك إنه « ثمرة صلة الرحم » (٦) .

وقد تزوَّج بشار . ومع ذلك فلسنا نجد ذكرًا لزوجته فى شعره الذى بين أيدينا ، وإن كنت أظن أن قصيدته الدالية ربَّما تكون فى رثاء تلك الزوجة ، وليس فى رثاء امرأة أخرى كما جاء فى الديوان (٧) . ولبشار رثاء فى ابن له اسمه محمد (٨) ، وهو رثاء مؤثر ، وإن كان لا يصل إلى روعة رثاء ابن الرومى لابنه الأوسط . كما أن له رثاءً قويا أيضا فى ابنةٍ له (٩) . ولعلَّها نفس ابنته التى فاخرتها إحدى الأعرابيات فاشتكت لأبيها فأنشا قصيدة هجائية فيها . ومع ذلك فإننا نسمع بابنٍ له آخر (واسمه محمد كذلك) فى عصر العباس بن الأحنف ، يأخذ الأدباء والعلماء عنه شعر أبيه ويتقربون إليه من أجل ذلك (١٠) . فإذا صح هذا كان معناه أن بشارًا ، بعد أن مات ابنه محمد ، قد وُلد له ولدٌ آخر فسمَّاه بنفس الاسم .

وقد وُلد بشار أعمى (١١) . ومع ذلك فقد ذكر ابن المعتز أنه أصيب بالعمى قبل أن يموت بأربعين عاما (١٢) . ولا أدرى من أين أتى ابن المعتز بهذا ، فإن بشارا نفسه يقول :

عميت جنينا ، والذكاء من العمى   فجئتُ عجيب الظن للعلم موئلا

وهو ، كما ترى ، كلام قاطع الدلالة على أنه قد نزل من بطن أمه أعمى . وقد كان

شعره هذا ردًا على معاصريه الذين كانوا يعجبون من إبداعه فى صوره وتشبيهاته رغم أنه لم ير الدنيا قط (١٣) . كذلك فإن أبا هشام الباهلى قد هجاه بقوله :

وعبدى فَقَا عينيك فى الرَّحم أيرُهُ   فجئتَ ولم تعلم لعينيك فاقيا (١٤)

وهو ما يشير بكل وضوح إلى أنه قد وُلد بعاهة العمى ، لا كما يقول ابن المعتز من أنه عَمِىَ بعدما كبر . وقد أجمعت الروايات على أن عماه كان من النوع المنفِّر ، وأنه كان ضخم الجثة طويلا (١٥) .

وكان بشار معتدًا بنفسه أشدّ الاعتداد : يظهر ذلك فى فخره ، سواء افتخر بمواليه أو افتخر بأصله الفارسى . كما يظهر فى هجائه لمن كان يتعرض لأصله الأعجمى من الأعراب . وأيضا يظهر هذا الاعتداد فى كثرة إشادته فى قصائده بموهبته الشعرية ، على ما سوف نبين فيما بعد ، وكذلك فى أبياته التى يجيب بها من سألوه عن تأثير عماه على مواهبه العقلية والأدبية والتى سقنا قبل سطورٍ أول بيت فيها . وحتى فى غزله نراه ، على ما سوف نوضح فى موضعه من الكتاب ، يصوِّر حبائبه على أنهن ربيبات القصور والترف ، بل إنه وصف إحداهن بأنها من « بنات الملوك » . وهذا غير مسامتته كثيرا للملوك فى شعره ، كما سبقت الإشارة فى هذا الفصل وكما سوف نسوق عليه الشواهد فيما بعد .

وكان بشار ، ككثير من المعتدين بذواتهم ، صريح النفس لا يعرف المداراة والمداورة ، وذلك على عكس ما وصفه به د . طه حسين ، إذ اتهمه بالنفاق بل بالإسراف فيه . ودليله أنه كان زنديقًا ملحدا ، ومع ذلك كان يتظاهر أمام الناس أنه يرى رأيهم . كما أنه قد مدح الأمويين أيام أن كان السلطان لهم ، ثم استدار مع الزمن ومدح العباسيين عندما أصبحت الدولة دولتهم (١٦) . وقد ردّد حنا الفاخورى هذا الاهتمام وراء د . طه (١٧) .

على أن طه حسين لم يكتف برمى بشار بالنفاق ، بل ادّعى عليه أيضا الجبن

والأثرة ، إذ رآه يخاف من ضرب السوط والسَّيف ، ويخاف ممن يتعرض له بالهجاء ، وقال إنه كان يبغض الناس ويزدريهم ويؤثر نفسه عليهم (١٨) .

فأما الزعم بأنه كان ينافق فى عقديته فقد فصَّلنا القول فيه تفصيلا شديدًا فى فصل خاص بهذه المسألة من هذا البحث ، وبيَّنا أن مثل بشار بصراحته وردوده السريعة الحادة لا يمكن أن يكون منافقا . وكيف يكون منافقا من يسأله خال الخليفة عن صناعته عندما رآه ينشد بين يدى المهدى إحدى مدائحه فيه فينطلق كالقذيفة ساخرا متهكما غير مبالٍ بقرابته من الخليفة ولا بالموقف والحاضرين قائلاً ، وهو الأعمى ، إن صناعته هى ثَقْب اللؤلؤ ؟ ثم عندما يبدى الخليفة استنكاره لاستهزائه بخاله أمام الملإ لا يعتذر ولا يحاول أن يلطّف الأمر ، بل يمضى فى تهكمه قائلاً ما معناه : وماذا عسانى كنت أقول له وهو يرى شيخًا أعمى ينشد الخليفة شعرًا ثم يسأله مع ذلك كله عن صناعته ؟ (١٩)

أو كيف يمكن أن يكون منافقا من يرى أحد موالى الخليفة المهدىّ يفسّر النحل والعسل فى قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يَعْرِشون * ثم كُلِى من كل الثمرات فاسلكى سُبُلَ ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (٢٠) بأن النحل هم بنو هاشم ، وأن ما يخرج من بطونها هو العلم الذى اختصهم الله به ، فيرد عليه بكل عنف وهو فى قصر المهدىّ فى جمع من الحضور ينتظرون الإذن بالمثول بين يدى الخليفة قائلا : « أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة » (٢١) ؟

أو كيف يكون منافقا من ينقلب على الوزير المقرب إلى الخليفة ، يعقوب بن داود، عندما لا يعطيه ما كان يؤمّل منه ، فيهجوه هو وأخاه هجاءً مرا ، بل

ويتخذه نديمًا فى أحلى ساعات سمره بين جواريه ، فيقول فيه ب
هما ، فيما نرى ، سبب مقتله ، ولا يكتفى بهذا بل يأبى إلا أن ي
النحويين وينشدهما على مسامع من حضر ؟ وقد كان يستطيع
تنفيسًا عن غيظه ، ولكن طبيعته الصريحة دفعته دفعًا إلى هذه الخ
أن يبلغ البيتان أذن الخليفة فيأمر بقتله كما تقول الرواية (٢٢)
التصرفات والمواقف التى تبين بقوة أن الرجل لم يكن منافقا .

ولو كان بشار يحسن النفاق لنزل على إرادة المهدى لمّا أ
التشبيب بالنساء . ولكنه ظل ماضيا على ما كان عليه من قبل من
ما فعله أنه فى كل مرة يريد أن يتغزل كان يذكر نهى الخليفة له ثم
أن يعصى له أمرا ثم يأخذ فى الغزل رغم ذلك ملء كفايته .

أما أنه كان يخاف من السيف ومن السوط ، فباللّه مَ
د. النويهى بحق (٢٣) ، لا يخافهما ، وبخاصة إذا كان كبشار أعم
طول ولا عصبية تدرأ عنه عدوان العادين ؟

هذا ، ولم يكن بشار يخاف من الهجاء إذا صدر عمَّن ي
الناس . ولكنَّه أمام أبيات عارية تافهةٍ لأبى الشمقمق ، الذى كان
والحين ماذًا يده فيعطيه بشار مما أعطاه اللّه ، آثر السكون م
بالعلاج الذى يعرف أنه جد ناجع مع أبى الشمقمق . ألا وهو حفنة مر
إن الإنسان منَّا ، فى الوقت الذى يستقتل فيه فى الدفاع عن نفسه
فى مثل مكانته الاجتماعية ، يستنكف أشد الاستنكاف أن يردّ عل
كناسٍ أو سائق حنطور مثلاً .

وينبغى أن نفسّر بمثل هذا التفسير تراجع بشار أمام أحد المص

بشار يستطيع أن يفعله أمام هذا التهديد ، لو صحت الرواية ؟

وشبيه بهذا موقفه من الرجل الذى تعرَّض له ، وهو فى ظل قصر من القصور وحده لا به ولا عليه ، فتحكّك به وآذاه بذكر عماه وأمِّه وسبّه سبا مؤلما . ولمّا حمى غيظ بشار وأخذ يتساءل عمن يكون الرجل كان ردّه عليه أنه من عُكْل (وهى قبيلة مشهورة بالحقارة والغباوة) وأن خاله يبيع الفحم بالمكان الفلانى (وذكر مكانًا يبدو أنه منطقة حقيرة) ، ثم سأله هل يقدر بعد هذا كلّه أن يقول فيه شيئا . يقصد : ما الذى يستطيع أن يقوله فيه أكثر مما صبَّه الله عليه من نسبه الوضيع وصناعة أهله القذرة ؟ فما كان من بشار إلاَّ أن أنهى الموقف بتلك القولة الرائعة بعدما فُشَّ غليله : « لا شىء . اذهب ، بأبى أنت ، فى حفظ اللّه » (٢٦) . وفى رواية أخرى مشابهة كان ردّه على من شاغبه : « اذهب ، ويلك ! فأنت عتيق لؤمك . قد علم الله أنك استترت منّى بحصون من حديد ! » (٢٧) . وماذا كان يمكن أن يرد به على هذا الأحمق اللامبالى غير هذا ؟

أما مدحه الأمويين عندما كانوا هم ذوى السلطان ثم دورانه مع الأيام ومدحه العباسيين عند استيلائهم على الحكم فهو لم يكن فى هذا إلا واحدًا من شعراء عصره ، لا صاحب مذهب يتنكّر له عندما تبرق مصلحته .

كذلك كان بشار يحب أصدقاءه ويمازحهم ويمازحونه كثيرًا . وله أخبار وأشعار تدل على ذلك الودّ الشديد الذى كان يربط بينه وبينهم ، وإن كانت صداقته لحماد عجرد قد انقلبت للأسف مع الأيام هجاءً مقذعًا مؤلما يهجو كل منهما به الآخر . وفى ديوان بشار أبيات من قصائد مختلفة تدعو إلى ترك عتاب الإخوان والأصدقاء والتسامح معهم وتقبُّلهم على ما هم عليه ، لأن من فتش عن الكمال فلن يجده ، ومن يعاتب خلانه فى كل أمر يدعو إلى العتب فسوف يتلفت فلا يجد من لا يستطيع له عتابا ، إذ إن مثل هذا الشخص لا وجود له . كما أن له شعرا فى حاجة الإنسان دائما إلى

صديق يبثه آلامه ويفضى له بذات صدره حتى يستريح . وهذا لعمرى دليلٌ على حب الأصدقاء والمغالاة بهم ومعرفة قيمة الصداقة فى صحراء هذه الحياة القاحلة المحرقة .

وكان بشار فكهًا ، وفكاهته من أمتع ما يكون . فحتى الفاحش منها يدل على حضور الذهن وسرعة الردّ المفحم والمقدرة العظيمة على إدراك المفارقات ومناحى السخرية فى طبائع البشر ومواقف الحياة .

وقد مرَّ بنا ردّه على خال الخليفة حين رآه ، وهو الأعمى ، ينشد ابن أخته شعرًا فسأله ما صناعته . كما مرَّ بنا تهكمه الواخز بمن فسَّر النحل وما يخرج من بطونها فى سورة « النحل » بأنها بنو هاشم وعلمهم . وكذلك مرَّ بنا تعليقه على ما كان يلطخ أخواه به ملابسه من دماء وأوساخ بأن ذلك هو « ثمرة صلة الرحم ! » .

ومن فكاهاته قوله لمن سأله معابثا ، وكانا بالمسجد الجامع : « يا أبا معاذ ، أيعجبك الغلام الجادل ؟ » فقال : « لا ، ولكن تعجبنى أمه ! » (٢٨) .

ولكن بشارا ، للأسف ، كان يتدهدى إلى الهجاء المقذع والكلام السافل لا يجد فى ذلك لا هو ولا أصدقاؤه أو مهاجوه أى حرج . وبودّنا لو أنه استعلى على هذا العيب . ولكنّ ماذا نفعل ، ولله فى خلقه شؤون ؟

وقد أُخِذ عليه أنه كان شعوبيا يهاجم العرب ويهجوهم ويحقّرهم . والحقُّ أن له فعلاً أكثر من قصيدة يفتخر فيها بأصله الفارسى ويقارن بين عيشة الفرس المتحضرة المترفة وبين الحياة البدوية الجلفة وجوع أهلها وطعامهم الغليظ المتوحش . ولكن هذه القصائد إنما أثاره إليها بعض أجلاف الأعراب الذين كانوا يشمخون عليه لمجرد أنه من الموالى ، فكانوا يظنون أن كونهم عربًا بالدم يُحل لهم أن يتكبروا على بشار وأمثاله رغم أنهم لم يُرْزَقوا شيئًا مما حباه الله به من علم ومواهب أدبية . فبشار إذن لم يعتد عليهم ، وإنما كانوا هم المعتدين . كذلك فإنه لم يسىء إلى العرب ، وإنما قصر هجومه على البدو الأجلاف ومعيشتهم الجافية .

وإذا كان قد تبرأ من ولائه للعرب فى بعض قصائده فإن أحدًا لم يقل إن هذا الولاء واجب دينى أو نظام حضارى حتى يُرْمَى كل من يخرج عليه أو يدعو إلى نبذه بما رُمِى به بشار . إن الله قد خلق البشر ، عربًا وعجما ، متساوين كأسنان المشط ، وليست عروبة العرب بالتى تقربهم عند الله زلفى ، ولا أعجمية الأعاجم بالتى تباعد بينهم وبينه عز وجلّ . وإذا كان العرب قد تجاوزوا الحدّ المعقول فى معاملتهم للموالى فثار بعضهم ، ومنهم بشار ، على هذا النظام فالذنب ذنب أجدادنا العرب ، لأنهم لو كانوا احترموا الآخرين لاحترمهم الآخرون .

وعجيب أمر بعض الباحثين الذين يربطون بين الاستكانة للعرب والإيمان ، بحيث إن من يثور من الأعاجم عليهم وعلى عنجهية بعضهم يعدّ عند أولئك الباحثين من الذين فى قلوبهم مرض وفى دينهم نفاق . هذا ، عَلِمَ الله ، ظُلْمٌ شديد . فالإسلام لا يتطابق دائمـا مع العروبة . صحيح أن لغة كتابه هى العربية ، ورسوله عليه السلام عربى ، والذين حملوا رايته فى غزوات الجهاد الأولى أغلبهم عرب . لكن ذلك الكتاب وذلك الرسول قد دَعَوَا بلسان قوى مبين إلى نبذ العصبيات العرقية وأكدا أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . فهل يعقل أن نرتد على أعقابنا ، وننسى هذا كله ، ونذهب نعظّم من شأن العرب لا لشىء إلا لمجرد أنهم عرب ، ونعتقد أنه يجب على الأعاجم أن يصبروا على أى خسفٍ أو تحقير ينزل بهم لا لشىء إلا لأنه قد وقع من العرب ؟

وقد طارت شهرة بشار كل مطير على أساس أنه يحرّض فى شعره على الفجور والتهتك وأن نساء البصرة وشبانها قد استهتروا بسبب ذلك أيما استهتار . وكان وعاظ تلك المدينة يندّدون به وبشعره (٢٩) .

والواقع أن شعر بشار الغزلى هو فى عمومه شكوى من الهجر والحرمان والسهاد وتذلّل للحبيبة . وأقصى ما يتناوله بشار فى شعره من وصف جسد المرأة التى يشبب

بها هو حديثها الذى يشبهه فى حلاوته بالرياض والثياب الموشّاة أو بالخمر المسكرة ، أو ريقها الذى يصفه بأن طعمه طعم التفاح أو الراح ، أو أردافها التى لا يخرج ذوقه فيها عـن ذوق الشعـراء العرب القدامى ، إذ هى دائما أرداف ضخمه ... ثم لا شىء غير ذلـك .

صحيحٌ أن له الرائية التى يصور فيها ما كان بينه وبين فتاة صغيرة السن قليلة التجربة فيما يبدو . ولكن ليس فى هذه القصيدة إلا الحديث والنظر وقبلة فى خلال ذلك وعضّة فى الذراع والشفة . بيد أن الطريقة التى صاغ بها بشار قصيدته تجعلها تفوح بما هو آثَم من ذلك وأفْجَر . ومع ذلك فليس فيها شىءٌ مما نجده عند امرىء القيس أو عمر بن أبى ربيعة أو مطيع بن إياس . إننا هنا لا ندافع عن الإثم ، ولكننا نريد أن نضع غزل بشار فى موضعه الصحيح بين غزل الشعراء الآخرين دون أن نجحف به . ذلك أننا نرى أن سمعته أشنع من شعره كثيرًا جدا . أقصد شعره الذى بلغنا ، فهو وحده الذى نستطيع الحكم عليه على أساس منه .

وإلى جانب الرائية هناك أبيات لا تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة يصف فيها عضوه التناسلى ومقدرته الجنسية ، وهى أبيات تدل على سخف ذوقى شديد ، وبخاصة من شاعر مشهورٍ كبشـار . ولكـن كثيرًا من الشعـراء ، كما قال فيهم القرآن الكريم ، هم فى كل واد يهيمون ، وغاوون لا يتبعهم إلا الغاوون .

ومثلها أبيات قليلة فى وصف متاع إحدى النساء .

وأغلب الظن أن سمعة بشار السيئة فى هذا المجال قد ارتبطت أكثر ما ارتبطت بزيارات بعض النسوة له فى بيته (٣٠) وبأبيات جد قليلة فى التحريض على متابعة الدقّ على باب قلب المرأة حتى ينفتح ، ولابد فى رأيه من أن ينفتح مهما بدا الأمر فى أوله عسيرًا مونسًا . ولكن كم من الشعراء قد قال هذا وأشنع منه ولم يشتهروا شهرة بشار السيئة !

إنما فحش بشار وإقذاعه موجودان ، لمن يريد البحث عنهما ، فى هجائه مع حماد وأبى هشام الباهلى ، ذلك الهجاء الذى لا يورّى فيه ولا يتلطف ، بل يقذف به كما تقذف المجارى بنتنها وعفنها ، متلمظا بالألفاظ الدالة على السوءات والجماع دون أدنى وازع من حياء ، وإن كان الحق يقتضى أن نذكر أن مهجوّيْه كانا لا يقلان عنه عنفا وفحشا فى هجائهما له . بل إن حمادا هو الذى بدأ بالفحش فاضطره إلى أن يرد عليه بالمثل (٣١) . ومع ذلك فلم يهتم القدماء الذين شنّعوا عليه بهذا الجانب فى شعره ، بل ركزوا كل هجومهم على غزله .

وقد اتُّهِم بشار بالزندقة والإلحاد . وتعزو بعض الروايات قتل المهدىّ له إلى هذا السبب ، ولكن يغلب على ظنى أنه إنما قتله لهجائه إياه ببيتين شنيعين . وكان بشار حينذاك قد نيف على السبعين . وبعضهم ينزل به إلى الستين (٣٢) . وسوف ندرس هذه القضية فى فصل خاصّ بها .

وكان بشار يعيش على ما كان يأتيه من ممدوحيه أو ممن يخشون حُمَة لسانه ، التى كان يتهددهم بها . وكان من ممدوحيه الخليفة العباسى المهدى ، الذى قرّبه إليه زمنًا حبًّا فى صحبته وخفة روحه وحلاوة سمره وظرف منطقه وشعره . وبلغ من تقريبه إياه أنه كان يُحْضِره مجالسه الليلية مع جواريه ، اللاتى كن أيضا يشغفن بظله الخفيف ويتمنين على الخليفة لو كان أباهن حتى يبقى معهن على الدوام ، فيجيبهن الشاعر الخبيث قائلاً : « ونحن على دين كسرى » ، مشيرًا إلى أنه حتى لو كان والدهن فلن يمنعه ذلك أن ينال منهن ما يريد (٣٣) .

وبشار من مخضرمى الدولتين . وقد توفى سنة سبع أو ثمانٍ وستين ومائة (٣٤) .

وكان يكنّى بأبى معاذ ، ويلقّب بالمرعَّث . وقد اختلفوا فى سبب تلقيبه بذاك . وربّما كان هذا راجعًا إلى أنه كان يلبس الرِّعاث فى صغره ، أى القُرْط (٣٥) . وأيا ما

كان السبب الصحيح فإننا نراه يكثر فى شعره من تسمية نفسه بـ « المرعَّث » ، ونحسّ فى هذا التسمّى برنة الفخر والعُجب . ولم ألاحظ أنه تسمى فى شعره بـ « بشار » إلاّ ثلاث مرات . ولم يحدث أن استعمل فى ذلك الشعر كنيته ، لا على لسانه هو ولا على لسان الآخرين أو الأخريات ، كما هو الحال بالنسبة لاسم « المرعَّث » .

ولبشار ديوان شعر كبير لم يصلنا منه إلا إلى آخر حرف الراء ، مع بعض المقطوعات والأبيات المتفرقة التى استطاع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ناشر ذلك الديوان ومحققه أن يظفر بها من بطون المظان المختلفة . ولكننا لا نصدّق أن شعره بلغ ما رُوِى أنه ادعاه ، وهو اثنا عشر ألف قصيدة أو أكثر على ما سوف نبين فيما بعد ، فذلك أمر غير معقول .

الهوامش

١- الأغانى / مؤسسة جمال للطباعة والنشر / بيروت (مصور عن طبعة دار الكتب) / ٣ / ١٣٥ .

٢- انظر مقدمة محمد الطاهر بن عاشور لديوان بشار / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م / ١ / ٣ .

٣- انظر فى ذلك د . نجيب محمد البهبيتى / تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٨٢ م / ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ود . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٦ / ١٩٨٦م / ١٠٠ .

٤- انظر « تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى » / ٣٤٤ .

٥- الحيوان / تحقيق عبد السلام هارون / مصطفى الحلبى / ط ٢ / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م / ١ / ٣٥٤ و ٤ / ٤٥٣ .

٦- الأغانى / ٣ / ٢٠٨ .

٧- انظرها فى الديوان / ٣ / ١١٦ - ١١٨ .

٨- الديوان / ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥ .

٩- انظر هذا الرثاء فى « الأغانى » / ٣ / ٢٢٩ - ٢٣٠ ، والديوان / ٤ / ٢٨ .

١٠- انظر « الموشح » للمرزبانى / تحقيق على محمد البجاوى / دار نهضة مصر / ١٩٦٥ م / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

١١- الأغانى / ٣ / ١٣٦

١٢- طبقات الشعراء / تحقيق عبد السلام أحمد فراج / دار المعارف / ط ٢ / ٢٢ .

١٣- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٤٢ .

١٤- الأغانى / ٣ / ١٤١ .

١٥- انظر مثلا « الأغانى » / ٣ / ١٣٨ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، وأمالى المرتضى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ عيسى البابى الحلبى/ ط ١ / ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م /١/ ١٣٤ .

١٦- د . طه حسين / حديث الأربعاء / دار المعارف / ط ١٣ / ٢ / ١٩٢ - ١٩٣ .

١٧- حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / المطبعة البولسية / ٣٧٤ .

١٨- حديث الأربعاء / ٢ / ١٩٠ - ١٩١ .

١٩- الأغانى / ٣ / ١٥٩ .

٢٠- النّحل / ٦٨ - ٦٩ .

٢١- الأغانى / ٣ / ١٥٨ .

٢٢- انظر « الأغانى » / ٣ / ٢٤٣ - ٢٥٠ .

٢٣- انظر كتابه « شخصية بشار » / دار الفكر / ط ٢ / ١٣٣ .

٢٤- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٩٤ - ١٩٥ .

٢٥- السابق / ٣ / ١٥٢ - ١٥٣ .

٢٦- السابق / ٣ / ١٧٢ .

٢٧- السابق / ٣ / ١٥٩ .

٢٨- الأغانى / ٣ / ١٨٤ . وانظر بيته فى الحمار الذى نهق بقربه ذات مرة فخطر له بيت مفحش ولم يستطع أن يكمله ، حتى مرَّ به أحد أصدقائه فسلَّم عليه ، فعندئذ أكمله وقرأه على ذلك الصديق ، الذى اتجه إليه بعد تلك التكملة فحش البيت كله (الأغانى / ٣ / ١٧٣ - ١٧٤) .

٢٩- انظر فى ذلك « الأغانى » / ٣ / ١٨٢ - ١٨٤ .

٣٠- انظر « الأغانى » / ٣ / ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٣٧ - ٢٣٨ مثلاً .

٣١- انظر « الأغانى » / ١٤ / ٣٤٦ .

٣٢- السابق / ٣ / ٢٤٦ ، ٢٤٩ .

٣٣- انظر ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٢١ ، ٢٣ .

٣٤- السابق / ٢١ .

٣٥- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٤٠ ، وكذلك مقدمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لديوان بشار / ١ / ٦ - ٧ .

عقيدته

لعلّ أقدم من كتب عن عقيدة بشار هو الجاحظ ، الذى اتهمه فى دينه وذكر أنه هجا واصل بن عطاء وسخر من طول عنقه بقوله :

مالى أشايع غزّالا له عُنُقٌ ... كنقنق الدوّ إن ولّى وإن مثلا ؟
عنقَ الزرافة ، ما بالى وبالكمو ؟ ... أتُكْفِرون رجلا أكفروا رجلا ؟

وأنه « صوّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، وقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مُذْ كانت النارُ

... وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : وعليٌّ أيضا ؟ فأنشد :

وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو ... بصاحبك الذى لا تصبحينا »

وأن واصل بن عطاء عندئذ حرَّض على قتله ، وإن كان قد أعلن فى نفس الوقت أنه يتحرج من اغتياله ، وإلاّ لبعث إليه من يبقر بطنه وهو فى قعر بيته نائم (١) . كما ذكر أن بشارا كان كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ، وأن المعتزلة انقلبوا بعدها عليه وأخرجوه من البصره فلم يعد إليها إلا بعد وفاة عمرو بن عبيد . ثم أورد، كاملة ، قصيدة صفوان الأنصارى فى الرد على ما رُوِى عن بشار فى تفضيل النار على الطين ، وكذلك أبيات سليمان بن الوليد ، أخى مسلم بن الوليد (٢) ، فى نفس الغرض (٣) . ومما جاء فى قصيدة صفوان اتهامه بشارًا بهجو أبى بكر ، وخلع علىّ ، واتخاذ ليلى الناعطية نحلة (٤) ، والإيمان بالتناسخ والردّ . كما أشار إلى أنه جعل عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء كأتباع ديصان (٥) .

واللافت للنظر أن الجاحظ لم يذكر اسم بشار بين من ذكرهم من الزنادقة الشعراء فى كتابه « الحيوان » . ليس ذلك فقط ، بل قال إن بشارا كان ينكر عليهم (٦) . ومع ذلك فقد نُسب للجاحظ فى « أمالى المرتضى » أنه ذكر بشارا

ضمنهم (٧) .

أما ابن قتيبه فإنه ، فى ترجمته للشاعر فى « الشعر والشعراء » ، قد اكتفى بالقول بأنه « يُرْمَى بالزندقة ، وهو مع ذلك يقول :

كيف يبكى لمحبس فى طلول ... من سيُقْضَى ليوم حبس طويلِ ؟
إن فى البعث والحساب لشُغْلاً ... عن وقوف برسم دارٍ مُحيلِ » (٨)

ثم قال : « وكان بشار هجا المهدى ، وذكر شغله بالشراب واللهو ، فأمر به فقُتل تغريقا فى الماء » (٩) ، فأرجع سبب قتله إلى هجائه المهدى لا إلى الزندقة ، التى أبدى (كما رأينا) شكه فى اتصافه بها ، إذ استبعد أن تصدق تلك التهمة عليه بينما هو صاحب البيتين اللذين يذكر فيهما البعث والحساب ذِكْر المؤمن بهما المؤكد لوقوعهما .

وإذا كان ابن قتيبة قد شكّ فى أن يكون بشار زنديقا واكتفى فى التعبير عن شكه بهذه الإلماحة الموجزة ، فإن ابن المعتز ، بعد أن أورد عبارة ابن قتيبة هذه بنصها تقريبا وساق مثله البيتين السابقين مع بعض الاختلاف فى روايتهما ، قد عقب قائلاً : « وهذان البيتان يدلان على صحة إيمانه بالبعث ... والصحيح عند أهل العلم أن المهدى قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره بقوله :

بنى أمية ، هبوا . طال نومكمو ... إن الخليفة يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم، فالتمسوا ... خليفة الله بين الزِّقّ والعودِ

وقال قوم : بل قتله على قوله :

لا يُؤْيِسَنَّك من مخبّأةٍ ... قولٌ تغلّظه وإن جرحا
عُسْر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما جمحا

فقال المهدى : رميت جميع نساء العالمين بالفاحشة . والقول الأول أثبت » (١٠) .

وكان ابن المعتز قد أورد قبلاً الأقوال المختلفة فى سبب مقتل الشاعر : من ذلك أن بعض من يبغضه قد وشى به إلى المهدى ، الذى كان يحبه ويلذ مسامرته ويقربه إليه

ويتخذه نديما ويُحْضره مجلسه مع جواريه ، واتهمه بأنه يدين بدين الخوارج ، فقتله المهدى . ومنه أنه قيل له إنه يهجوه ، فقتله . ومنه أنه رُمى بالزندقة ، فقتله . كما أورد ابن المعتز الاختلاف فى طريقة قتل بشار : فمن قائل إنه ضربه سبعين سوطا فمات ، ومن قائل إنه ضرب عنقه . وكذلك أورد الاختلاف فى السنة التى قُتل فيها : أهى سنة سبع وستين ومائة أم السنة التى بعدها ؟ (١١) والعجيب أن ابن المعتز يقول هنا أيضا : « والذى صح من الأخبار فى قتل بشار أنه كان يمدح المهدى والمهدى ينعم عليه ، فرمى بالزندقة فقتله » ، مع أننا قد رأيناه فى نهاية كلامه هذا يقول إن الذى صح عند أهل العلم أن المهدى قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره ... » . وقد كان ينبغى أن يعمد إلى هذا التناقض فيزيله أو على الأقل يفسّره . لكن لابد مع ذلك من التنبيه إلى أن القول الذى انتهى إليه ابن المعتز هو ، كما أشرنا ، تبرئة بشار من الزندقة .

وقد حكى ابن المعتز (فى تفسير سبب الزندقة المدعاة على بشار) عن السدرىّ ، ابن أخى الشاعر (ولا أدرى ابن أى أخويه ، إذ كان لبشار كما هو معروف أخوان : بشر وبشير) ، أن عمّه « كان من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله ، ولكنه عاشر قومًا من الحرانيّين فخبث دينه » (١٢) .

فإذا انتقلنا إلى « الأغانى » وجدنا الروايات تتعدد وتختلف فى تهمة الزندقة المنسوبة لبشار ، والعلة التى جرّت إلى مقتله . فإلى جانب ما قاله الجاحظ من أن بشارا كان يدين بالرجعة ويكفّر جميع الأمة ويصوّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، وهجائه لواصل بن عطاء وتهكمه بطول عنقه الذى قال إنه يشبه عنق الزرافة (١٣) ، أورد الأصفهانى حكاية تقول إنه « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزد ... فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ويختصمون

عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقى متحيرا مخلّطا، وأما الأزدى فمال إلى قول السُّمَنيّة ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقى ظاهره على ما كان عليه » ، وإن عمرو بن عبيد اتهم ابن أبى العوجاء بإفساد الأحداث وخَتْلهم عن الإسلام وإدخالهم فى دينه . ثم إنه أورد أبياتًا لبشار يهجو فيها ابن أبى العوجاء، هذا ويتهمه برقة الدين ، بل بالكفر والزندقة (١٤) .

كما حكى الأصفهانى حكاية ثانية مفادها أن بشارا كان مع بعض القوم فى مجلس فغنتهم إحدى القيان أبياتًا من قصيدة له ، فلما فرغت قال وقد هزّه الطرب يمدح شعره : « هذا والله ... أحسن من سورة الحشر » (١٥) .

وقد رُوى عنه أنه حين كُلّم فى أنه لم يقم لصلاة الظهر ولا العصر ولا المغرب كان جوابه أن الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة ، كما رُوِى أن أصحابه كانوا يقومون إلى الصلاة حين وجوبها ويبقى هو لا يصلّى (١٦) .

ومع ذلك فيروى الأصفهانى أن أحد أصحاب بشار كان يجادله فى ميله إلى الإلحاد ويبين له سوء مذهبه ، وأن بشارا قد ردّ عليه أخيرا بقوله : « ما أظن الأمر ... إلا كما تقول ، وأن الذى نحن فيه خذلان . ولذلك أقول :

طُبِعْتُ على ما فىَّ غير مخيَّرٍ ... هواى، ولو خُيِّرت كنتُ المهذَّبا
أريد فلا أُعطَى ، وأُعطَى ولم أُرِدْ ... وقصّر علمى أن أنال المغيّبا
فأُصْرَف عن قصدى وعلمى مقصّرٌ ... وأُمْسِى وما أُعْقِبْتُ إلا التعجبا » (١٧)

وفى سبب مقتله يقول صاحب « الأغانى » إن بشارا كان قد مدح المهدى ولكنه لم يحظ منه بطائل فهجاه قائلاً :

خليفة يزنى بعماته ... يلعب بالدبّوق والصولجانْ
أبدلنا الله به غيره ... ودس موسى فى حِرِ الخيزُرانْ (١٨)

وكان قد قال فى وزيره يعقوب بن داود البيتين اللذين أوردهما ابن المعتز وذكرناهما فى

هذا الفصل من قبل ، فسعى ذلك الوزير به عند المهدى وأبلغه ما قاله بشار فيه ، فانطلق الخليفة إلى البصرة يريد بشارا ، فتصادف أن سمع أذانا فى وقت الضحا ، وإذا بالمؤذن بشارٌ وكان سكران ، فأمر بإحضاره ، وضُرب بالسياط سبعين سوطًا حتى أشرف على الموت ، ثم أُلقى به فى سفينة حتى فاضت نفسه (١٩) . وفى رواية أخرى أن بشارا كان قد هجا صالحًا أخا يعقوب بن داود ، وكان قد ولى البصرة ، وأن يعقوب بن داود هو الذى أمر بضربه بالسياط (لا المهدى) حتى مات (٢٠) . وفى رواية ثالثة أن المهدى قد أمر عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا (٢١) . كما أورد الأصفهانى شعرًا لأبى هشام الباهلى يصف فيه بشارا وحماد عجرد بالكفر ويؤكد أنهما قد صارا إلى النار (٢٢) .

وفى نهاية الفصل الذى خصصه « الأغانى » لبشار وحياته وشعره يقول أبو الفرج إن المهدى لما ضرب بشارا أرسل يفتش منزله لعلَّه يجد شيئا يؤكد زندقته التى اتهمه بها عنده وزيره يعقوب بن داود ، فلم يجدوا إلا صحيفة قد كتب فيها بعد البسملة : « إنى أردت هجاء آل سليمان بن على لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسكت عنهم إجلالاً له صلى الله عليه وسلم ... إلخ » ، وأن المهدى قد بكى ندمًا على أنه تعجل فصدق وشاية يعقوب بن داود به وقتله دون تثبت (٢٣) .

وجاء فى « رسالة الغفران » للمعرى أن مما نُسب إلى بشار قوله فى تفضيل إبليس والنار على آدم والطين الذى خُلق منه :

إبليس أفضل من أبيكم آدمٍ فتنبهوا يا معشر الفُجّار
النار عنصره ، وآدم طينة والطين لا يسمو سموّ النار (٢٤)

أما البغدادى فقد ذكر فى « الفرْق بين الفِرَق » أن بشارا كان ينتمى إلى فرقة الكاملية ، الذين كانوا يكفرون الصحابة لتركهم بيعة علىّ ، ثم يكفرون عليا أيضا لأنه

لم يقاتلهم ، وأنه فوق هذا كان يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، ويصوبّ رأى إبليس فى تفضيل النار على الطين . والبغدادى يكفّر هذه الفرقة ومعهم بشار (٢٥) .

ويسلك ابن النديم شاعرنا فى سلك الزنادقة المانويين (٢٦) .

وبعد ، فلعل هذا هو أهم ما جاء عن عقيدة بشار واتهامه فى دينه عند القدماء . أما المحدثون فإن المستشرق البريطانى نيكلسون لا يستبعد أنه كان لدى بشار ميول زرادشتية ، وإن سارع إلى القول بأن البروفسور بيڤان قد لاحظ أنه لا يوجد أى دليل حقيقى على هذا وأن هذه التهمة لا تستند إلا إلى البيت المشهور الذى وصلنا عن طريق « الأغانى » غفلا عن السياق الذى قيل فيه ، وهو :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذْ كانت النارُ

ثم يعود نيكلسون إلى القول بأن الأفكار الزرادشتية أو المانوية لدى بشار ربما دلّت عليها خصومته مع عدد من علماء الكلام المسلمين فى البصرة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . ثم يختتم الكلام عنه بأنه قد قُتل على يد الخليفة المهدى هو وصالح بن عبد القدوس فى عام واحد (٢٧) .

ويقول كاتب مادة « بشار » فى الطبعة الأولى من « Encyclopaedia of Islam » إن الآراء الدينية عند بشار لا تزال مفتقرة إلى الوضوح ، وإنه فيما يبدو كان متذبذبا فى عقيدته . ثم يضيف أنه لم يكن شيعيا ، وذلك بسبب تحفظاته نحو الكميت والسيد الحميرى (الشاعرين الشيعيين) . ومع ذلك فقد أشار إلى أن شارل بلا يرى أنه كان يجمع بين بعض عقائد الشيعة الكاملية . ثم عاد كاتب المادة فقال إن بشارا كان يتمسك بآراء تفتقر إلى التجانس من بينها بعض العقائد المانوية المصبوغة بصبغة زرادشتية قوية ، إذ له البيت المشهور الذى يفضل فيه النار المشرقة على الأرض المظلمة ويعلن أن النار معبودة منذ أن وُجدت ، وذلك البيت الذى ردّ عليه صفوان الأنصارى بقصيدة كاملة . كما أن صاحب « الفهرست » يدرجه ضمن زنادقة

المانوية .

ومع هذا كله يختم كاتب المادة كلامه فى هذه المسألة بقوله إن بشارا ، بالإضافة إلى هذه الآراء ، كان صاحب شك عميق ممتزج بالاعتقاد فى الجبر ، وإن هذا وذاك قد أديا به إلى الإحساس بالتشاؤم والإيمان بمذهب اللذة (٢٨) ، ولكنه برغم هذا كان يتبع أسلوب التقية فيتظاهر بأنه يعتقد بعقيدة أهل السنة ويهجو الزنادقة الخارجين عليها من مثل ابن أبى العوجاء .

وبالنسبة لمقتل الشاعر نراه يعزوه إلى هذه الزندقة وإلى سلوكه الفاضح ، مما جعل القوم يدبرون له مؤامرة أفسدت ما بينه وبين الخليفة وأضاعت مكانته عنده ، بل وجعلت الدولة تنزل النكال بكل الزنادقة من أمثاله . وكان مقتله ، كما يقول ، فى السبعين من عمره لا التسعين ، التى يرى أنها غلطة فى الرسم الكتابى لا أكثر (٢٩) .

ويرى جرجى زيدان أن بشارا كان من أصحاب الفلسفة المتحيرين فى الدين ، وأنه كان يعتقد أن الإنسان مسوق لا مخير ، والدليل على ذلك قوله :

طُبِعْتُ على ما فىّ غير مخيَّرِ — هواى ، ولو خُيِّرت كنتُ المهذَّبا
أريد فلا أُعْطَى ، وأُعْطَى ولم أُرِدْ — وقصَّر علمى أن أنال المغيَّبا
فأُصْرَف عن قصدى وعلمى مقصّر — وأُمْسِى وما أَعْقَبْتُ إلا التعجبا

ثم يقول فى سبب موته إن المنصور ، بسبب القصيدة التى نظمها الشاعر فى هجائه أيام ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن عليه ثم غيَّرها بحيث أصبح الهجاء فيها موجَّها إلى أبى مسلم الخراسانى بعد سقوطه ، كان متغير الخاطر عليه وفى نفسه شىء منه . ثم جاء المهدى بعده فأظهر نحوه فتورًا ممَّا أغضب بشارا ودفعه إلى مدح يعقوب بن داودِ فلم ينفعه فهجاه بالبيتين اللذين يقول فيهما :

بنى أمية ، هُبّوا طال نومكمو — إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم، فالتمسوا — خليفة الله بين الزِّقّ والعود

فكان أن بعث المهدى إليه صاحب الزنادقة فضربه حتى الموت (٣٠) .

أما العقاد فإنه يؤكد أن بشارا لم يكن من أولئك الذين يعنيهم الإيمان أو الكفر أو التمذهب بهذا المذهب أو ذاك من مذاهب الكلام ، وأن ما ورد عنه من الشعر لا يدل على عقيدة له ثابته ، بل كان كلامًا من وحى الساعة يراد به التظرف أو إغاظة هذه الفرقة أو تلك ، فهو تارة يفضل إبليس على آدم ، وهو أخرى على مذهب الجبرية الذين يسقطون الحساب والتكلف :

طُبِعْتُ على ما فىّ غير مخير هواى ... إلخ .

وثالثة هو من المؤمنين الذين يعتقدون الحساب ويخشونه ، ومن ثم فهو يقول :

كيف يبكى لمحبس فى طلولٍ — من سيفضى لحبس يوم طويلِ؟
إن فى البعث والحساب لشغلا — عن وقوف برسم دار محيلِ

ويقول :

بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا — وأن بقائى إن حييتُ قليلُ
فعش خائفا للموت أو غير خائف — على كل نفس للحِمام دليل
خليلُك ما قدمتَ من عمل التقى — وليس لأيام المنون خليلُ

ثم يشير العقاد إلى ما قيل عن الصحيفة التى وجدوها عنده بعد موته وفيها أنه أراد أن يهجو أحد العلويين فمنعته من ذلك قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا دليل على أنه كان متشيعا . ومع أن العقاد قد استبعد بحقّ حكاية الصحيفة تلك ، إذ لم يعهد عن شعراء العرب وبخاصة من كان كفيفا كبشار أن يسجلوا خواطرهم ونياتهم ، فإنه لا ينفى تشيع الشاعر للعلويين لفارسيته من جهة ولعدم رضاه تماما عن العباسيين من جهة أخرى . ورغم ذلك فهو لا يظن به الحماسة فى تشيعه ، مثلما يستبعد تحمسه لأى عقيدة أو مذهب (٣١) .

ويتهم د. طه حسين بشارا بالنفاق بل بالإسراف فيه . ودليله على هذا أن بشارا كان زنديقا ومن أشد الناس إلحادا فى الدين ، ومع ذلك فإنه كان يتظاهر أمام الناس

بأنه على رأى الجماعة فى الوقت الذى يزدريهم بينه وبين نفسه . ثم إنه لم يكن يكتفى بهذا، بل كان يتهم بالزندقة والإلحاد خصومه ، بل وأصدقاءه أيضا كما فعل مع حماد عجرد مثلاً . ثم يقول د. طه إن زندقة بشار تتمثل فى أنه كان يدين بالرجعة ويكفر الأمة كلها بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها حادت عن طريق الدين . كما أنه كان يُؤْثِر النار على الطين ويفضل النور على الظلمة . وهو فى هذه النقطة الأخيرة متأثر بفارسيته مثلما كان متأثرا بها فى موقفه من العرب ، الذين هاجمهم فى شعره وحرّض الموالى أمثاله على التبرؤ من ولائهم (٣٢) .

ورغم ذلك كله فإن د. طه يرى أن الذى أدى إلى مقتل بشار ليس هو الزندقة بل هجاؤه للمهدى وليعقوب بن داود وأخيه صالح ، وإن كانت الزندقة قد اتُّخذت وسيلة إلى قتله ، إذ سعى به يعقوب إلى الخليفة وأطلعه على ما قاله من هجو فيه شنيع واتهمه بالزندقة مؤكدا أن عنده البينة القاطعة على هذا ، فضُرب حتى الموت . ثم يشير د. طه إلى ما وُجد فى أوراق بشار بعد موته من كلام يدل على إيمانه مما جعل المهدى يندم على قتله ، ولكنه يعلق بما يفيد أنه لا يطمئن تمامًا إلى هذا الخبر ، إذ يقول : « سواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر . ولم يكن من الميسور أن تُترك الحرية والحياة لشاعر كبشار يعلن فى المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء » (٣٣) .

وممن درس بشارا وتكلم عن اعتقاده ومذهبه د. شوقى ضيف ، الذى يستدل بقتل المهدى بشارا على أنه كان ملحدا زنديقا ، ويرى فى بيته المشهور :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذْ كانت النارُ

إشادة بعبادة النار وتقديسها ، وأنه انطلاقا من ذلك كان يفضل إبليس على آدم ، إذ خَلِق هذا من طين وذاك من نار ، وذلك فى قوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... إلخ .

ويقول إن بشارا كان يصرّح بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحسّ ، ومن ثم فهو لا يعتقد فى البعث والحساب ولا الجنة والنار ، وإنه كان جبريا يقول بأن الإنسان لا إرادة له وليس هو الذى يخلق أفعاله .

ليس ذلك فقط ، بل يرى الأستاذ الدكتور أن بشارًا كان أيضا يدين بالرجعة ، أى عودة الإمام المختفى ، وأنه كان يكفر جميع الأمة .

كما علق الأستاذ الدكتور على رثاء الشاعر لواحد من أصدقائه بأنه بمثابة رثاء لهؤلاء الأصدقاء كلهم ، وكانوا يُتَّهمون جميعا بالزندقة ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذى ينتظره مثلهم قتلا على يد المهدى .

ومع أن د. شوقى يشير ، فى سياق مقتل بشار ، إلى هجاء الشاعر ليعقوب بن داود هجاء مقذعا (كما قال) ، فإنه يؤكد أن قتل بشار إنما كان على الزندقة ، التى شهد بها عليه شهود عدول .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور أيضا أن بشارا ، تحت تأثير ما كان يسمع فى حلقات المتكلمين ويقرأ مما ترجم من الفارسية فى آداب الفرس ودياناتهم ، قد حدث له فى بداية الأمر شك وحيرة امتلأت بهما نفسه ثم تحولا مع الأيام إلى زندقة وإلحاد (٣٤) .

وممن درسوا كذلك بشارا وتناولوا الكلام فى عقيدته د. محمد النويهى . ورأيه أن بشارا لم يكن ملحدا ولا كافرا ، بل ظل طوال عمره حائرا متشككا فى كل شىء ، وأن هذا التشكك كان جحيمًا عليه ، إذ جعلت مشكلة التوفيق بين عدل الله سبحانه تعالى وما يمتلىء به الكون من ظلم وشرّ وآثام تؤرقه وترهق عقله طول حياته لا يجد منها مخلصًا ، فبقى حتى موته يتذبذب بين الإلحاد والإيمان . وهو ينفىَ أن يكون بشار قد آمن بأى من هذه النحل أو المذاهب التى اتهم بها . قد يكون مال حينا إلى مذهب الرجعة أو غيره من مذاهب الهند ، وقد تكون استهوته زمنا عقيدة الفرس فى

عبادة النور وتقديس النار . كذلك فإنه كـان يومـا ما على مذهب المعتزلة بل إمامًا من أئمتهم . ولكن كل ذلك لم يقنعه إقناعًا تامًا . ويقف د. النويهى بنوع خاص أمام الأبيات الثلاثة التى يفضل فيها الشاعر النار على الأرض وإبليس على آدم ، مبينا أنها إنما تدل على كراهيته للبشر جميعًا على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ، إذ يفضل عليهم إبليس وذريته ، فهو يعمل على إغاظتهم وإحناقهم (٣٥) .

ولا يقبل الدكتور النويهى من كلام القدماء عن معتقد بشار إلا ما جاء عند الجاحظ من أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام أحدهم بشار ، وأن كلا منهم أخذ اتجاهًا خاصًا على حين بقى بشار « متحيرا مخلّطا » (٣٦) . وهو يرجع ذلك إلى طبيعة العصر الذى عاش فيه الشاعر بما فيه من انقلاب سياسى نقل الملك من بيت إلى بيـت ووضـع الفـرس فى مكان الصدارة بعد أن كانوا فى المؤخرة طوال العصر الأموى ، إلى جانب الفتن والثورات والحروب الداخلية والخارجية وتلاطم المذاهب والعقائد من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ورافضة ومجوس ونصارى ويهود وصابئة ، فلا يعقل أن ينجو بشار ، وهو الذى كان مـن أئمة الاعتزال ، من تأثير هذا كلّه . وإن فى قصة تمرده على المعتزلة لدليلاً ، عنده ، على أن بشارا لم يكن يكفّر جميع الأمة كما ادُّعى عليه ، إذ كيف ينكر أن يكفر المعتزلة الخوارج لتكفير هؤلاء عليا ثم يكفر هـو الأمة كلها ؟ إنه ، كما يقول ، كان يفضل أن يتسامح مع الفرق جميعا (٣٧) .

ثم يؤكد د. النويهى أن بشارا لم يكفر بالإسلام وأن ما قيل عن إهماله الصلاة لا يعدّ دليلا على ذلك الكفر بل على صفاقة الذين كانوا يتجسسون عليه ويحاولون استطلاع دخيلته ، مخالفين بذلك سنة الإسلام ، الذى يكره التفتيش على أحوال الفرد الدينية (٣٨) .

أما ما نُسِب إلى بشار مثلا من قوله عن بعض شعره إنه أحسن من سورة الحشر فإن الدكتور النويهى لا يرى فى ذلك إلا أنه لون من الفخر اعتمد أسلوبا سيء

الأدب جمح به لسانه فى حالة الطرب (٣٩) .

ثم ينتهى إلى أن الشىء الوحيد الذى يمكن أن نطمئن إليه فى عقيدة بشار هو أنه كان على مذهب الجبرية . ويستشهد على ذلك بأبياته التى يقول فيها :

طُبعت على ما فىّ غير مخير ... هـــواى ... إلـــخ (٤٠)

وفى موضع آخر يعود د. النويهى إلى لمس عقيدة بشار فيقول إنه إذا كان القدماء لم يستطيعوا أن يفرقوا بين الإلحاد والشك ومن ثمّ رموا بشارا بالإلحاد فينبغى ألا نلومهم ، فإنهم لم يدركوا أنه لم يختر الشك عنادا بل كان مضطرا إليه اضطرارا ، كما أنه قد شقى به أيما شقاء . ويؤكد أنه إذا كان بشار لم يقبل الإسلام ولم يبادر إلى الاعتراف بصحته وصدقه كما يفعل معاصروه فهو أيضا لم يقبل المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو سواها من الأديان ، بل ظل شاكا مرتابا طوال حياته (٤١) .

وبالنسبة إلى مقتله يؤكد الدكتور النويهى أن ما قيل من أن سببه هو فسقه وإفحاشه فى شعره وزندقته غير صحيح ، بل الصواب هو أن المهدى قد قتله تخوفا من لوم أهل عصره .

وهو يتساءل إذا كان المهدى ، كما يصورونه ، رجلاً شديد الغيرة على النساء والمحارم فكيف يسكت عن بشار قبل ذلك هذا السكوت الطويل ؟ بل كيف كان يقربه إليه ويتخذه نديمًا له يجالسه بحضرة جواريه ؟ بل كيف قبل منه إكماله شطرة بيت ابتدأ فيها وصف ما رآه من إحدى جواريه حين وقعت عينه عليها فى الحمام مصادفة وهى تغتسل فمدت يدها فغطت سوأتها كما تقول الرواية ، ثم خرج فعلم أن بشارا على باب القصر فأمر بادخاله وطلب منه أن يكمل ، فأنشد للتوّ أبياتا شديدة العرى تصف ما حدث وكأنه كان حاضرا وشاهد بأم عينيه ما كان ، والخليفة يستزيده ويظهر حبوره ؟ علاوة على أن بشارا قد امتنع عن التشبيب بالنساء حين نهاه المهدى عن ذلك . كما أنه يتساءل أيضا : أين كان المهدى طوال هذه السنوات التى اشتهر فيها بشار بشكوكه وكان العلماء يحملون عليه أثناء ذلك ؟ (٤٢)

ثم يخلص إلى أن السبب الحقيقى فى قتل المهدى له إنما هو ضغط العلماء والوعاظ عليه من أمثال واصل بن عطاء وسوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار . وكانت عداوتهم له وتعنيفهم الخليفة على تقريبه إليه وخلع الجوائز والمِنَح عليه من الشدة والعنف بحيث لم يستطع المهدى الاستمرار فى تجاهل نقدهم ، فتلمَّس حينئذ عذرا يقتل به بشارا . وجاء العذر فى الأبيات التى حملها إليه يعقوب بن داود وفيها هجاء شنيع له ، ثم فى المصادفة العجيبة التى جعلت بشارا يؤذن وهو سكران ساعة الضحى فى الوقت الذى كان الخليفة وحاشيته يقتربون من البصرة طلبًا لمعاقبته (٤٣) .

ويعزو الدكتور النويهى حملة واصل بن عطاء على بشار واتهامه إياه بالإلحاد وتحريض العامة عليه إلى خروج الشاعر على مذهب المعتزلة . وهو يرى أن هذه الحملة هى السبب فى هجاء بشار له دفاعًا عن نفسه (٤٤) .

وفى الدراسة القيمة التى قدم بها محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة الأسبق لديوان بشار (بتحقيقه) يذكر هذا العلامة أن بشارا قد نُسِب فى تكفيره إلى دين الثنوية والمجوسية والبرهمية والسُّمَنية ، ونُسب فى إسلامه إلى الرفض وإلى الشعوبية وإلى مذهب الرجعية القائلين بأن علىّ بن أبى طالب سينزل مرة ثانية كما ينزل عيسى وأن جميع الأمة كفروا حين عدلوا عن بيعة علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما نُسب أيضا إلى الإلحاد المحض والتعطيل . ويذهب الشيخ ابن عاشور إلى أن بشارا كان مستهترا لا يتحرز فى أقواله التى لم يكن يقصد منها إلا إلى المزح والهزل . بيد أن هجاءه للعلماء والكبراء والشعراء والأمراء قد أغرى به الجميع وجعل تهمته مصدقة . وهو يؤكد أنه ، كما جاء فى أخباره وأشعاره ، كان ملتزما الإيمان الصحيح مخبرا عن نفسه بأداء الصلاة والصيام والحج وسائر الشعائر الإسلامية وأنه شديد الحفاظ على دينه ، من مثل قوله فى ترك وصال خليلته فى رمضان :

فى ليلة خلف شهر الصوم ناقصة ... تسعا وعشرين قد أحصيتُها عددا

حتى ارتقيتُ إليها فى مشيدة ... دون السماء تناغى ظلها صعدا

وقوله :

إنى حلفت يمينا غير كاذبةٍ ... عند المقام ولم أقرب له فندا

وقوله :

وعجيب نكث الكريم ، وللنفـ ... ـس معاد ، وللحياة انقضاء

وقوله فى رثاء ابنه :

ولى كل يوم عبرة لا أفيضها ... لأحظى بصبر أو بحطّ ذنوب

ثم يقول فى مقتله إن هناك اتفاقا تاما بين الرواة على أنه قتل من الضرب بتهمة الزندقة . ثم يعود فيقول إن هناك من يرجع سبب قتله إلى هجائه ليعقوب بن داود والمهدى ، ولكنه يرى أن هذا مما اختلقه حساده عليه ، فإنه كما يقول كان يجل المهدى . ومع أنه كما رأينا قد نفى عنه سوء العقيدة وأثبت له إيمانا صحيحا فقد رجع فجعل سبب مقتله ، إلى جانب الحسد والهجاء والفحش ، خفة دينه فى سيرته وتهمته بسوء الاعتقاد .

ويلفت النظر فى موقف الشيخ ابن عاشور أنه لا يرى مؤاخذة الشعراء على ما يقولون . وهو يقول إن أعداءه قد اهتبلوا فرصة تتبع المهدى للزنادقة والتنكيل بهم وتغيره على الشاعر فوشوا به إليه فقتله ، ليكتشفوا بعد موته من تصفح أوراقه وكتبه براءته مما رُمِى به (٤٥) .

ويرى أندريه ميكل أن بشارا كان ينطوى على نزعات مانوية أو زرادشتية ، وأنه دفع حياته ثمنا لزندقته ومجونه واستهتاره (٤٦) .

وممن عرض لبشار وعقيدته أيضا د. عمر فروخ ، الذى يحكم عليه بأنه كان زنديقا يميل إلى التفكير الحرّ ويأخذ بالشك وبالجبر . وفى مقتله يقول إنه قد طال لسانه وتناول بالهجاء الخليفة المهدى ووزيره يعقوب بن داود ، فاتُّهم بالزندقة وبالفحش والدعوة إلى الفسق فى شعره ثم قتل (٤٧) .

أما د. سيد حنفى حسنين فإنه يقرر أن الأخبار التى وصلتنا عن فكر بشار وعقيدته متضاربة ومتناقضة : فبعضها يتحدث عن تقوى بشار وممارسته لفروض العبادة . وبعضها الآخر ، على خلاف ذلك ، يؤكد كفره وزندقته ورفضه لأداء الشعائر الدينية . وهو يشير إلى أن بشارا كان ينتمى إلى المعتزلة ثم نبذ مذهبهم فكرهوه وحملوا عليه ونادى واصل بن عطاء فى الناس محرضا على قتله ، مما دفع بشارا إلى هجائه ببيتيه المشهورين اللذين يرى الأستاذ الدكتور أنهما يدلان على أخذ الشاعر بمذهب الشيعة الكاملية ، وهم كما سبق بيانه فرقة تكفّر الصحابة لانتزاعهم من علىّ حقه ، ثم تنقلب على علىّ فتكفّره بدوره لأنه ترك المطالبة بهذا الحق . ثم يتساءل الأستاذ الدكتور : « هل كان اعتناق بشار لمذهب بعينه هو اعتناق ثابت دائم ، أو هو رجل كثير الشك يتنقل من فرقة إلى فرقة ومن رأى إلى رأى وكأنه يبحث عن يقين ؟ » . ويرد قائلاً إنه يعترف صراحة بمذهب ربما غاب تفسيره عن الأقدمين ، إذ كان يقول : « لا أعرف إلا ما عاينته وعاينت مثله » . فهو فى رأيه من « أصحاب المذهب الحسىّ ، الذين يتخذون الحس وسيلتهم للمعرفة » . ويضيف أن شك الشاعر وحيرته وتعدد مواقفه من الفرق المختلفة قد أدى به إلى القتل بتهمة الزندقة ، كما أن مجونه وسلوكه المستهتر ومعالنته بذلك كان سلاحًا فى يد خصومه لإثبات ما يريدون من تهم ، صدقت هذه التهم أو كذبت ، إذ رأوا أنه قد أفسد نساء البصرة وشبابها بمجونه وبشعره الذى يصور فيه هذا المجون . ورغم أن الأستاذ الدكتور قد ذكر عقب هذا هجاء بشار المقذع للخليفة ووزيره فإنه ، فيما لاحظت ، لم يربط بين ذلك وبين مقتله (٤٨) .

ويتحدث د. محمد زكى العشماوى عن الموقف الفكرى لبشار وكيف أنه رفض التقاليد الاجتماعية السائدة وثار عليها وشكك فيها ، وهاجم فى سخريةٍ العقائد والسلطة التى تمثلها ، معلنا عن عقيدته الخاصة ، ومناديا باللذة والإباحية والتحرر الأخلاقى الجنسى ، مما جعل الفقهاء يحاربونه ويحرضون عليه الخليفة

حتى قتله (٤٩) . ومع أن الأستاذ الدكتور قد أشار إلى أن لبشار « عقيدة خاصة » تختلف عن عقيدة المجتمع فإنه حين وصل إلى مناقشة التهم التى رواها القدماء عنه مستدلين بها على زندقته أو على الأقل رقة دينه أخذ يفندها واحدة واحدة : إما برفض الرواية ذاتها أو تأويل كلام بشار على نحو مقبول ، ثم انتهى إلى القول بأن أبياته فى تفضيل النار على الأرض وإبليس على آدم لا تشكل مذهبا عقديا أو فكرا دينيا مناهضا ، بل هى عنده مجرد امتدادٍ لموقف الشاعر المتبرم وتعبير عن رفضه وتشككه وسخريته من التقاليد والعقائد والسلطة وعن مذهبه فى التحرر الأخلاقى الجنسى . ثم يرد حكم د. شوقى ضيف عليه بأنه كان زنديقا ملحدا ، مؤكدا أنه ليس لدينا فيه بينة ، وعلى هذا فليس من المستطاع الخوض فيه (٥٠) .

هذا استعراض أرجو أن يكون واضحا ودقيقا لما قيل عن عقيدة بشار ومقتله عند عددٍ ممن كتبوا عنه فى القديم والحديث . وهناك بطبيعة الحال كتاب ونقاد آخرون قد تناولوا بشارا ودرسوا فكره ودينه والتهم التى زُنَّ بها من هذه الناحية ، ولكنى اكتفيت بهؤلاء الكتّاب خشية الإطالة ، مع الحرص فى ذات الوقت بقدر طاقتى على أن يكون ما قاله هؤلاء ممثلاً لما قاله غيرهم ممن لم أذكرهم .

ومن هذا الاستعراض نلاحظ أن الجاحظ ، رغم كل ما قاله عن بشار ، لم يذكره صراحة ضمن زنادقة الشعراء الذين سماهم فى كتاب « الحيوان » ، وأن ابن قتيبة قد دافع عنه أو على الأقل شكك فى صدق تهمة الزندقة التى رُمى بها . ثم كان كلام ابن المعتز فى الدفاع عن عقيدته أقوى وأوضح . ومع هذا فقد أورد صاحب الأغانى عدة رواياتٍ عن رقة دينه وإلحاده . ويبدو أن ما جاء فى « الأغانى » هو الذى ثبت هذه التهمة عليه فى كتب القدماء . أما فى العصر الحديث فأغلبية الكتاب تعتقد زندقة بشار وكفره وخبث معتقده . ومن لا يزندقه ينسبه إلى الشك والجبر . والعجيب أن الذى انبرى للدفاع عنه وتبرئته من الحكم بالحاده هو واحد من علماء

الدين . وكان المظنون أن يكون على رأس من يهتفون بسوء عقيدته وكفره ، ولكن يبدو أن معايشته طويلاً للشاعر وأخباره ، وديوانه بالذات ، قد عصمته من أن ينجرف مع التيار . ولعل العقاد هو الكاتب الوحيد الذى لم يأخذ أشعار بشار فى إبليس وآدم والنار والأرض ولا كلامه الذى نُسب إليه مما قد يشى بإلحاده وزندقته مأخذ الجدّ ، إذ أكد كما شاهدنا أن ذلك كله لم يصدر عن الشاعر إلا من قبيل التظرف .

هذه هى مواقف العلماء والنقاد قديما وحديثا من عقيدة بشار ، فما قول كاتب هذه السطور ؟

إن أول ما يلاحظه الدارس على الاتهامات التى صُبّت على بشّار وتناولت معتقده أنها متناقضة ، فقد اتُّهم الرجل بأنه يفضل إبليس والنار على آدم والطين الذى خُلق منه أبو البشر ، أى أنه كان مجوسيّا ، ثم هم يتهمونه بأنه كان شيعيا كامليا ، أى ينتمى إلى الإسلام وإن لم يلتزم جادته . فكيف السبيل إلى التوفيق بين مجوسيته وشيعيته ؟ كذلك فقد قيل عنه إنه كان يكفّر جميع الأمة ، مع أن له بيتا فى هجاء واصل بن عطاء يستنكر فيه استنكارا واضحا لا لبس فيه تكفير المعتزلة لجماعة الخوارج . فكيف ينكر تكفير فريق محدود العدد من المسلمين لقاء تكفيرهم رجلاً واحدًا هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو فى ذات الوقت يكفّر الأمة كلها ؟ ولنفترض أنه كان فعلا يرى أن الأمة كلها قد كفرت بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، أفلا يدل هذا على أنه كان يؤمن بالرسول عليه السلام ودينه ؟ ثم إنه لو كان خارجيّا أكان يمدح المهدى لتقتيله إياهم ويصمهم بالنكث عن الهدى وبالكفر ؟ وذلك فى قوله :

قتلتَ الشراة الناكثين عن الهدى   وقنّعْت بالسيف المقنَّعَ بالكفر (٥١)

وبالمناسبة ، فإن واصل بن عطاء عندما هتف ببشار فى مجالس وعظه يحرّض على قتله قد وقع فى تناقض لا يقلّ عن هذه التناقضات غرابة وشدة ، إذ فى الوقت الذى استحث فيه الناس أن يقتلوه واستنكر ألا يقوم بهذه المهمة أحد من المسلمين نراه

يعلن استنكاره للاغتيال مشيرا إلى أن كرهه لهذا العمل هو الذى منعه من أن يبعث إليه فى جوف الليل من يبقر بطنه وهو نائم فى سريره فى قلب بيته . وإننا لنتساءل : فكيف كان واصل يريد أن يُقْتَل بشار اذن إذا كان يكره الغيلة ؟ أكان يتصور أن قاتله سيذهب إليه فى وضح النهار ويخبط على الباب مستأذنا مستأنسًا ، فإذا خرج إليه الشاعر استسمحه أن يتركه فلا يتعرض له بدفاع عن نفسه حين يمدّ إليه يده ليقتله ؟ أم ماذا ؟

أما البيت الذى نُسب إلى بشار وفُضّلت فيه النار على الأرض فإنه قد وصل إلينا مخلوعًا من سياقه : سياقه الشعرى ، إذ قد رُوى منفردا ، وسياق الظروف والملابسات التى قيل فيها . ثم إنه من المستطاع أن يُجادل المجادلون فى أن ذلك البيت لو أُخذ على ظاهره دون الالتفات إلى الكلام الذى قيل فيه ولا المعانى التى أُلصقت به أو النوايا التى نُسبت إلى بشار بخصوصه فلن يجد فيه القارىء شيئا يتعلل به على الشاعر ، إذ من ذا الذى يجادل فى أن النار مشرقة على حين أن الأرض مظلمة ، وأن النار قد وجدت من الحمقى والمأفونين من يعبدونها ويجعلون من عبادتهم إياها دينا له طقوسه وعقائده وأتباعه ؟ إلاّ أننا ينبغى أن نسارع أيضا إلى القول بأن الأرض ، وإن لم تُعْبَد فيما نعرف كالنار ، قد اتُّخذَت من صخورها وطينها وشجرها التماثيل والأصنام التى عُبدت كالنار . فكيف فات بشارًا ذلك ؟ أيا ما يكن الأمر فقد قال بشار هذا قبل أن يموت واصل بن عطاء بزمن طويل . وقد مات واصل قبل أن يموت بشار بسنوات طوال . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون هذا البيت (إن كان قد قاله أصلا) هو السبب فى مقتله .

على أى حال فالشيخ الطاهر بن عاشور يرى أنَّ ذلك البيت وكذلك البيتين اللذين يفضل فيهما إبليس على آدم ويصف البشر بأنهم « معشر الفجار » ليست صحيحة النسبة إليه ، بل دسَّها أعداؤه عليه ليشوهوا سمعته ويطعنوه فى دينه

وإيمانه (٥٢) . والملاحظ أن تلك الأبيات الثلاثة لم ترد فى الديوان . لكن البيت الأول قد نسبه الجاحظ إلى الشاعر فى « البيان والتبيين » كما رأينا . كما أن صفوان الأنصارى ، وكان معاصرًا لبشار ، قد أنشأ قصيدة بأكملها ردًا عليه . قد يقول قائل : ولو ! إن من الممكن أن يكون المعتزلة مثلاً هم الذين وضعوا عليه هذا البيت إثر انفصاله عنهم وتسفيهه لعقائدهم وتصويره الساخر لإمام من أئمتهم . لكن ينبغى الالتفات إلى أنه لم يبلغنا أن بشارًا أنكر أن يكون قد قال هذا البيت . بَيْد أنه لم يصلنا ردّ منه على قصيدة صفوان أيضا . ألا إنه لأمر محير ! أما البيتان الآخران فقد جاءا فى « رسالة الغفران » للمعرى ، أى بعد موت بشّار بأزمان . فمن السَّهل نفى نسبتهما إليه ، وإلا فأين كانا طيلة هذه المدة المتطاولة ؟ ولماذا لم يردّ عليهما واحد من الذين انبروا للهجوم على بشار فى حياته ؟ وحتى لو كان بشار قد قالهما فمن البيّن الواضح أنه لا يمكن أن يكون قد قصد معناهما حقا ، فإن آدم ليس أبانا وحدنا ، بل هو أبو بشار أيضًا . أم تراه قد خُلق ، أو على أقل تقدير كان يعتقد أنه خُلق ، مثل إبليس من نار فهو إذن واحد من ذريته لا من ذرية أبينا آدم ؟ لا أعتقد أن أحدًا يستطيع أن يزعم ذلك . إن بشارا واحدٌ من البشر ، الذين يناديهم بـ « يا معشر الفجار » . فإذا كان فعلاً يرّاهم كذلك (وهذا لو سلمنا بأنه قائل البيتين) ، فهل يمكن أن نصدق أن يكون قد فاته أنه واحد من معشر الفجار هؤلاء ؟ إن بشارا لو كان هو حقا صاحب البيتين فلا أظن إلا أنه أراد بهما المغايظة وإثارة لغط من حوله ومكايدتهم ، ليستلذ بمخالفته إياهم وحنقهم عليه وعلى ما قاله فيهم . وهو نفس ما نرى أنه هدف إليه فى البيت الأوّل .

ثم أليس ممَّا له دلالته القوية أن يدافع عن بشارٍ ابنُ قتيبة ، وهو العالم الدينى الذى أخذ على عاتقه واجب المكافحة عن عقائد أهل السنة ، فيقول إنه « يُرْمَى بالزندقة وهو مع ذلك يقول :

كيف يبكى لمحبس فى طلول ... من سيُقْضَى ليوم حبس طويل ؟

إن فى البعث والحساب لشغلا ... عن وقوف برسم دار محيلِ »

إن فى هذه العبارة على وجازتها رفضًا واضحا لتهمة الزندقة والإلحاد التى رُمى بها بشار . وفضلا عن ذلك فإن ابن قتيبة يرجع مقتل الشاعر إلى هجائه للمهدى .

ولا يقل عن موقف ابن قتيبة فى دلالته ، بل ربما زاد عليه ، موقف ابن المعتز ، وهو الأمير العباسى حفيد المهدى ، الذى أمر بقتل الشاعر ، فقد قال بصريح العبارة عن هذين البيتين أنفسهما : « وهذان البيتان يدلان على صحة إيمانه بالبعث » ، وزاد فأكد أن « الصحيح عند أهل العلم أن المهدى قتله بهجوه يعقوب بن داود » .

ومما له دلالته أيضًا أن المهدى ، الذى يقولون إنه قتل بشارا على زندقته ومجوسيته ، لم يجد شيئًا فيما قاله بشار لجواريه أمامه حينما أبدين رغبتهن أن يبقى الشاعر معهن على الدوام ، وتمنيَّن من أجل ذلك لو كان أباهن فلا يفارقهن أبدا . لقد قال بشار ردًا على هذه الأمنية : « نعم ، وأنا على دين كسرى » (٥٣) . أتدرون ماذا كان رد فعل الخليفة الذى تصوّره الروايات شديد الغيرة على الدين والنساء ؟ لقد ضحك ، وأمر لبشار بجائزة (٥٤) ، ولم يجد فى قوله إنه على دين كسرى ولا الإشارة الجنسية الشنيعة فى كلامه (وإن كان الأمر كله مزاحا فى مزاح) ما ينبغى التوقف عنده مجرد توقف .

أما ما رواه ابن المعتز عن السدرى من أن بشارا كان من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله إلى أن عاشر قوما من الحرانيين فخبث دينه فهى دعوى غير معقولة ، إذ الإنسان وبخاصة إذا كان « من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله » لا يتحول فى عقيدته ويخبث دينه بهذه السهولة وتلك السرعة . ثم من هؤلاء الحرانيون ؟ وأين عاشرهم بشار ؟ وكيف كانت هذه المعاشرة ؟ إن أخبار الشاعر ، عدا هذه المعلومة المبتسرة ، تخلو من الإشارة إلى هؤلاء القوم تمامًا ولا تذكرهم من قريب أو بعيد .

أما « الأغانى » فقد أورد روايات متعددة ومتضاربة : فمرة نرى بشارا متحيرا

مخلّطا . ومرة نجده يفضّل شعره على سورة من سور القرآن . ومرة يتهم ابن أبى العوجاء فى شعر له بالزندقة . ومرة يصرح بأن الإلحاد الذى كان عليه خذلان ، ولكنه مع ذلك يقول إنه مجبر فيما يعتقده ويراه ، ولو كان الأمر بيده لكان أفضل من ذلك . ومرة يجيب من يعاتبه بعدم قيامه للصلاة فى مواعيدها بما مفاده أنها تصحّ قضاءً مثلما تصح أداءً . ومرة يقال إن المهدى لم يجد فى دفاتر بشار بعد وفاته أى شىء يمكن أن يتخذ ذريعة ضده من ناحية العقيدة . وهى كلها مجرد روايات حُكيت عن الشاعر ، ولا ندرى مدى صحّتها ، ومع ذلك فلننظر فيها :

لاشكّ أن التحير والتخليط شىء ، والكفر والإلحاد شىء آخر . ومع ذلك فقد اتهم بشار بالأمرين معًا . فكيف يصح ذلك ؟ ثم ألو كان زنديقا فكيف يرمى شخصا آخر بالزندقة ليرميه هذا بدوره بها؟ إن المسألة لا تعدو أن تكون سفاهةً وهزلا سخيفًا . وهذا الهزل السخيف ، فيما يبدو ، هو الذى جرَّ كلا المتهاجيين إلى ذلك المصير الذى نعرف ، إذ ثبّت عليهما التهمة التى تراميا بها وجعل خصومهما يرفعانها فى وجهيهما معا .

أما بالنسبة إلى الصلاة فإن الرواية لا تقول إن بشارا قد أنكر الصلاة ولا سخر منها ، وإنما أشار إلى أنه يمكن أن يؤديها قضاءً . وهذا لو صحت الرواية طبعًا .

وبالنسبة لما قيل من أنه فضل شعره (الذى كانت تتغنى به إحدى الجوارى فى مجلس منادمة كان هو أحد حضوره) على سورة « الحشر » فإن فى نفسى أشياء من هذه الرواية : إذ ما العلاقة بين شعر غزلى خمرى وسورة « الحشر » ؟ إنه لا الموضوع واحد ، ولا العبارات والفواصل مثلا متشابهة ، كما هو الحال فى مدحته لسفيح بن عمرو، إذ وردت فى قوافيها كلمات مشتركة مع بعض فواصل سورة « مريم » (٥٥) . ثم لماذا سورة « الحشر » بالذات ، وهى فى يهود بنى النضير وجلائهم عن ديارهم وخذلان المنافقين لهم ؟ لو قالت الرواية إنه فضل شعره على القرآن

بوجه عام لكان للتهمة شىء من المعنى . كذلك فإن عهدنا بمن اتهموا بمحاولة معارضة القرآن أو مقارنة كلامهم به أن يكون كلامهم هذا نثرا مسجوعا لا شعرا .

والطريف أن بشارا ، المتهم بالزراية على القرآن وتفضيل شعره على سورة منه ، هو نفسه الذى يحكى (فى رواية الشريف المرتضى) أن حماد عجرد قد أعلن فى جمع من الناس أن شعره أفضل من القرآن (٥٦) . وواضح أن الأمر مملوء بالتضارب . وأغلب الظن أن هذا كلّه ليس إلا شائعات مختلقة كان الناس يرددونها دون تثبت .

كذلك فإن تعلّل بشار فى شعره (حسب تفسير إحدى الروايات التى مر ذكرها) بأنه وإن كان يعرف أن الكفر الذى هو فيه وأمثاله خذلان فإنه لا يستطيع أن يختار طريقا آخر غيره هو كلام لا يجوز فى العقل . ذلك أن الأبيات الشعرية التى أوردتها الرواية لا تتحدث عن الفكر والاعتقاد بل عن الطبع والعطايا والمواهب التى يتفاوت فيها الناس . ثم إن بشارا ، حسبما تقول الرواية ، قد اعترف بأن الإلحاد الذى هو فيه خذلان ، وهذا الاعتراف هو نفسه دليل على أنه قد أقرَّ بخطئه ، فأين الجبر هنا إذن ؟ فأمّا الأبيات فهل هناك من يعترض على ما جاء فيها من أن كثيرا مما فينا من طباع وما نأتيه من تصرفات وأفعال لا نستطيع إزاءه شيئا رغم نوايانا المخلصة ورغبتنا الجادة فى معظم الأحيان أن نغيّره إلى أفضل منه ؟ وبشار نفسه ، هل خُيِّر فيما رُزِىء به من عمًى وقبح وجه وضخامة جثة مثلا ؟ وانفعاليته الحادة الجامحة فى كثير من المواقف ، هل كان دائما راضيا عنها ؟ وهل كان بمكنته أن يغيرها ؟ وهل استشير الرجل قبلا فى أن يكون مولًى يحتقره بعض الأعراب الأجلاف ويؤذونه رغم ثقافته الواسعة العميقة وموهبته الشعرية الرفيعة ؟ ربّما قيل إن بشارا قد عمَّم الكلام وجعل كل ما فيه مفروضا عليه فرضا ، ولم يحترز فيجعل بعضه كذلك وبعضه من صنعه هو . بيد أن قائل ذلك ينسى أن هذا شعر لا بحث فى الفلسفة وعلم النفس والاجتماع ، وأن الشاعر قد قاله فى زفرة كمد وغضب . فهذا هو ما أراه فى هذه

الأبيات . أما القصة والحوار اللذان أُوردا مهادًا لهذا الشعر فإننى أحسب حسبانا قويا أنهما قد ألصقا به إلصاقا ، إذ لا صلة بين الإلحاد الذى جودل فيه الشاعر وبين ما تتحدث عنه الأبيات من طباع الشخصية وتفاوت عطايا اللّه سبحانه لعباده .

ومع هذا جميعه فإننى لا أعتقد أن المهدى قد أخذه الندم على قتله بشارا فأراد أن يجد فى أوراقه التى خلّفها وراءه شيئا يمكن أن يسوّغ به فعلته فلم يجد . فمتى كان الخلفاء فى ذلك الوقت يبالون بشىء من هذا ؟ ثم هل كان بشار هو الشخص الوحيد الذى قتله المهدى ، سواء بسبب الزندقة أو بسبب الإباحية التى قالوا إن الشاعر كان يدعو إليها فى شعره ؟ وهل كان من تقاليد ذلك العصر عند الأدباء أن يكتبوا يومياتهم وخواطرهم ، وبخاصة إذا كانوا مكفوفى البصر كبشار ؟ بل متى كان لبشار كاتب خاص يسجّل أفكاره ؟ وعلاوة على ذلك فإن ما جاء فى هذه الحكاية من أنهم وجدوا فى أوراقه أنه لم يشأ أن يهجو قومًا لقرابتهم من رسول الله يعارضه أنه هجا المهدى وغيره من العباسيين وهم أيضا أقرباء رسول الله عليه السلام . ثم إن المهدى ، حسبما تقول الرواية ، قد بكى من الندم وأبدى حنقا شديدا على يعقوب بن داود ودعا عليه لأنه لفق على الشاعر شهودا كذبة شهدوا بزندقته فقتله (٥٧) . فلم لم يعاقب المهدى وزيره المضلل إذن ما دام ندمه قد بلغ هذا الحد ؟ لقد فات من يريدون البحث فى عقيدة بشار ممن اتهموه بالكفر أن يبحثوا فى شىء آخر خلّفه وراءه فعلاً لا وهمًا وكان يمكن أن يهديهم فى هذا السبيل إلى ما يبغون . ذلك الشىء هو شعره ، إذ هو النصّ الوحيد الذى يمكننا أن نطمئن إلى أن بشارا قد قاله حقّا . أمّا ما نسب إليه من حكايات وأقوال فليست لها هذه الوثاقة ، وبخاصة إذا عورضت بحكايات وأقوال أخرى تثبت عكس ما اتُّهم به . لقد فعل ابن قتيبة وابن المعتز ثم الشيخ الطاهر بن عاشور شيئا من هذا ، بيد أن الأوّلَيْن قد اعتمدا على نص واحد لا غير ، والثالث وإن توسع بعض الشىء فإنه لم يستقص كل شعر الشاعر ، إذ لعلّه أن يكون فيه من جهة

أخرى دليل على ما زُنّ به من إلحادٍ .

وقبل أن ننظر فى شعره نحب أن نورد الروايات الأخرى التى تدل على صحة إسلامه ، وكلها من « الأغانى » : من ذلك أن قومًا كانوا فى بيت بشار وفيهم رجل يجادل فى فضل اليمانية والمضرية ، فأذن المؤذن ، فطلب منه بشار أن ينصت إلى الأذان ، فلما بلغ المؤذن قوله : « أشهد أن محمدا رسول الله » سأله بشار : « أهذا الذى نودى باسمه مع اسم الله عز وجلّ من مُضَر أم هو من صُداء وعكّ وحمير ؟ » ، فعندئذ سكت الرجل (٥٨) .

وعلى ذكر النبى عليه الصلاة والسلام فقد كان لبشار ابن اسمه « محمد » (٥٩) . ترى لو كان زنديقا يحقد على الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويعمل على تقويضه وزواله أكان يفكر فى اتخاذ اسمه الكريم لابنه ؟

وقد ورد فى « الموشح » للمرزبانى عن عمر بن شبة أنه قرأ شعر بشار (بعد أن اشتهر العباس بن الأحنف) على محمد بن بشار بن برد (٦٠) . فإذا صحّ هذا كان معناه أنّ بشارًا ، بعد أن مات له ابنه الصغير محمد ، عاد فسمّى ابنه الذى وُلد له بعد ذلك « محمدا » أيضا ، ويكون هذا دليلاً آخر قويا على حبه وإجلاله للرّسول عليه السلام .

كذلك فإن ردّه التالى ، وهو فى قمة فورة الغضب ، على عقبة بن رؤبة حين تحداه بأنه لا يحسن مِثْلَه أن يقول الرجز ، يدلُّ على إيمان بأن الله فضل أهل البيت على سائر الناس . وهذا لا يكون إلا من مسلم يؤمن باللّه ورسوله والقرآن . لقد خرج بشار من المجلس غاضبًا وفى نيته أن ينظم رجزا ينطح به رجز عقبة ويفحمه فقال له هذا : أتستخف بى يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ فكان رد بشار : « فأنت إذن من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (٦١) .
لقد قال بشار هذا وهو فى سورة الغضب الشديد ، أى أنه قاله بلا تفكير ولا تدبير ،

فهو من ثم برهان على أنه قال ما يعتقده فى قلبه .

وقريب من هذه الحكاية وهذا الرد ما جاء من أن اثنين من معارف بشار كانا يتفاخران ، فسبَّ أحدهما الآخر بأمه وأطال ، فلما ردّ الثانى يدافع عن نفسه هاج الأول وماج ، فاستغرب بشار أن يلحقه هذا الهياج لكلمة واحدة ردّ بها ذاك على سبابه الكثير لأمه . فقال الرجل لبشار : وهل أمه مثل أمى يا أبا معاذ ؟ فضحك بشار قائلاً (وهنا مغزى إيرادى هذه القصة) : « والله لو كانت أمك أم الكتاب ما كان بينكما من المصارمة هذا كله ! » (٦٢) . فهذا الردّ السريع الساخر يشىء بإيمان بشار بالقرآن وتبجيله إياه ولأم الكتاب .

على أن ذكر آل البيت يدعونى إلى التوقف قليلا عند الذى قيل عن تشيع بشار ورفضه . فثمة ثلاث روايات فى « الأغانى » تنقض هذه الدعوى :

أولى هذه الروايات ما حُكى من أن بشارا لما سُئِل عن معنى « النحل » فى قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كُلِى من كلّ الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُلُلا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ... » (٦٣) كان جوابه أنها « النحل التى يعرفها الناس » ، فأنكر السائل عليه هذا التفسير وأكد أن النحل فى الآية هم بنو هاشم ، وأن الشراب الذى يخرج من بطونها هو العلم ، فما كان من بشار إلا أن صفعه بهذا الردّ الذى يغنى عن كل دليل فى نفى دعوى تشيعه ورافضيته . قال : « أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم فقد أوسعتنا غثاثة » ، فغضب الرجل وشتم بشارا (٦٤) .

وتتلخص الحكاية الثانية فى أن أحد أصحاب بشار كان يمازحه حول ذهاب بصره وما يمكن أن يكون قد عوّضه الله عنه ، فقال له بشار إن اللّه قد عوضه عن فقدان نور عينيه بألا يـراه هـو وأمثاله من الثقلاء . ثم نصحه بأنه إذا كان قد تاب

من سرقة الحمير وتحول رافضيا فإن الأفضل له أن يترك الرفض ويعود سيرته الأولى من سرقة الحمير » (٦٥) .

أما القصة الثالثة فهى أن بشارا قد نفى الشاعرية عن الكميت (والكميت من كبار شعراء الشيعة) ، فلما أُنشد أمامه بيتان من شعره دليلاً على أنه يقول الشعر الجيد كان رده على المعترض عليه : « أترى رجلا لو ضرط ثلاثين سنة لم يُسْتَحْلَ من ضرطه ضرطة واحدة ؟ » (٦٦) . فانظر كيف حقر الكميت ولم يعترف له بالشاعرية . ثم انظر ثانيا كيف يرى شعر الكميت كله ضراطًا ، وشعر الكميت كما نعلم معظمه فى التشيع . فهل يمكن أن يقول هـذا شيعـى ؟ لقـد كـان كاتب مادة « بشار » فى «Enclopaedia of Islam» على حقّ حين نفى عن بشار دعوى تشيعه اعتمادا ، كما قال ، على تحفظاته نحو الكميت والسيد الحميرى . بيد أن كلمة « تحفظات » هذه أقل كثيرا جدا مما ينبغى أن يقال فى موقف بشار من الكميت كما شاهدنا .

والآن إلى شعره . ولكن قبل النظر فيه ينبغى أن نجيب على اعتراضٍ من المتوقع أن يُطْرَح ، إذ يمكن أن يقال إن معظم شعر بشار قد ضاع ، فقد رُوى عنه أن له اثنى عشر ألف قصيدة (٦٧) . فأما أن شعرا كثيرا لبشار قد ضاع فهذا أمرٌ من السهل إدراكه من مجرد النظر إلى ما طبع من ديوانه ، الذى وقف فى أثناء حرف الراء (فى الغالب فى أواخر هذا الحرف) . ولكن هذا لا يعنى أن آلاف القصائد له قد ضاعت ولا حتى أن الذى ضاع هو معظم شعره فمن غير المعقول أن يكون بشار قد نظم اثنى عشر ألف قصيدة ، وإلا لكان معنى ذلك أنه ظل ينظم ، على مدى بضع عشرات من الأعوام ، كل يوم قصيدة . وهذا ، كما لاحظ د. نجيب البهبيتى بحق (٦٨) ، لا يمكن أن يكون ، فالشاعر ليس آلة لإنتاج الشعر . ولكن يمكن أن يُعْتَرض مع ذلك بأنه ربما كان فى الشعر الذى ضاع ما يثبت إلحاد بشار وزندقته . وردًا على ذلك نقول إنه لا يعقل أن يتصادف أن يكون شعر الشعر الإلحادى قد تجمع

كله فيما بعد حرف الراء . وحتى لو أمكن تصادف ذلك ، فلماذا لم يورده من اتهموه فى عقيدته وأنكروا عليه من معاصريه ومن أعقبهم ؟ لقد لاحظنا أنهم لم يوردوا له إلا نصّين مبتورين من سياقهما فى تفضيل النار على الأرض ، وقد استبعدنا على الأقل نصّا منهما ، وهو الأطول المكون من بيتين ، ورأينا أن الثانى لا يدل بالضرورة على مجوسية وإلحاد ، بل هو فى الغالب (إذا صح أنه له) قد أريد به المغايظة والكياد لإثارة من حوله والتلذّذ برؤيتهم غضابا ساخطين . وعلى أية حال فقد استطاع الشيخ ابن عاشور أن يجمع له شعرًا آخر بعد حرف الراء وعلى الحروف التى تسبق حرف الراء ، فلم يوجد فيها (بغض النظر عن هذين النصين) ما يدل على زندقة .

وبعد ، فهذه نصوص من شعره ، ومعظمها فى الهجاء والغزل ، وهما الفنّان اللذان لا يتعمل فيهما الشعراء مراعاة التقاليد الاجتماعية والدينية أو ترديد ما يتوقعه منهم الآخرون كما هو الحال مثلا فى المديح ، الذى لم أتوسع فى الاستشهاد به :

إن بشارا يؤكد أن الله هو المحيى والمميت ، إذ يقول عن نفسه مثيرا عطف حبيبته عليه :

مـــا تأمريــــن بعاشـــق عـــىَّ الطبيـبُ بـــه وطبُّــه ؟
قـد مـات أو هـو ميـت إن لـم يعـاف اللـه ربُّـه (٦٩)

كما أنه هو المانح المانع :

ما للفتى غير ما أعطى الإله ، وما يَمْنَع فذلك شىء غير موجودِ (٧٠)

* * *

فانهـض بجـدّ أو أقـم منتظـرا سيب الإله ، فإنـه مقـدور (٧١)

* * *

قالت : ولا ذنب لى إن كنتُ جاريـة قد خصنى بالجمال الخالق البارى (٧٢)

وهو يقرّ له سبحانه بالوحدانية :

هـذا مقالى لكم ، والله يرشدكـم ويعلـم اللـه ربـى الواحـد الصمدُ

أن قد نصحتُ لكم بالجود من جِدتى وهل تجود يـد إلابما تجد ؟ (٧٣)

وبأنه يقول للشىء : « كن » فيكون :

درة حيثمـا أُديـرت أضـاءت ومشـمّ مـن حيثمـا شُـمّ راحـا
وجنَـات قـال الإله لهـا : « كـو نى » فكانت رُوحا ورَوْحا وراحا (٧٤)

كما أنه يذكّر حبيبته بأن الله تواب يقبل توبة العائدين :

وأتـوب ممـا تكرهيـن لتقبلـى والله يقبل حسن فعـل التائـب (٧٥)

وهو يعلن أن الله هو وحده مولاه لا هذا الفريق أو ذاك من البشر ، وأن أحدا لا يساميه سبحانه ، فهو أجلّ من كل جليل وأكرم وأكبر :

أصبحت مولى ذى الجلال ، وغيرهـم مولى العُرَيْب ، فخـذ بفضلـك فافخرِ
فارجـع إلـى مـولاك غيـر مدافـعٍ سبحان مولاك الأجل الأكبـر ! (٧٦)

وهو يعود به سبحانه إذا عرض البلاء :

هجـرتُ الآنسـات ، وهـن عنـدى كمـاء العيـن فَقْدُهمـا سـواءُ
وقـد عرّضـن لـى ، واللـه دونـى أعـوذ بـه إذا عـرض البـلاء (٧٧)

وهو حريصٌ على حكاية ما قالته له ، فيما يبدو ، إحدى حبائبه فى رسالة بعثت بها إليه :

أعيذكَ بالرحمن مـن دحْس حاسـد ينـام وما نامـت بليلٍ عقاربهْ (٧٨)

وقد لاحظتُ أنه يكثر من الإشارة إلى النبى عليه الصلاة والسلام فى شعره ، مما يدل على امتلاء ذهنه وقلبه وضميره به ، فإن الإنسان لا يلهج بذكر بشىء إلا إذا كان هذا الشىء شغلاً شاغلا . قال مثلا يهجو أحد العباسيين :

نعم الفتـى مـن قريش ! لا ندافعـه عن النبىّ ولو كـان ابـن كـلاءٍ (٧٩)

وفى مديح رجلٍ آخر من العباسيين يقول :

دم النبـى مشـوب فـى دمائهمـو كما يخالـط مـاءَ المزنة الضَّرَبُ (٨٠)

وفى مدحه لروح بن حاتم أحد ولاة المهدى :

همو ذبّوا عن عَظْم دين محمد — بأسيافهم إذ ليس فينا مذبّبُ (٨١)

ويقسم على شدة حبّه بانة ، إحدى حبيباته ، قائلاً :

والله رب محمد — إنى ببانة مُعجَبُ (٨٢)

ويقول مفتخرا بدور الفرس فى تحويل الملك من البيت الأموى إلى العباسيين « أهل النبى العربى » كما يسميهم :

حتى رددنا الملك فى — أهل النبى العربى (٨٣)

وفى مدح المهدى نراه يقول :

نفسى الفداء لأهل البيت ، إن لهم — عهد النبى وسمتَ القائم الهادى

...

إنى لَغَادٍ فمستادٍ ومنتجعٌ — رهط النبى ، وذو الحاجات مستاد

يا رهط أحمد ، مازالت أئمتكم — تودى الضعيف ولا تكدى لِرُوّاد

...

منكم نبى الهدى يقرو محاسنَه — ساقى الحجيج ، ومنكم مُنْهِب الزادِ (٨٤)

ويقول هاجيا أبا هشام الباهلى :

وجنتَ (٨٥) حتى ما تصلى ركعة — ونسيتَ ما قال النبىّ محمدُ (٨٦)

ويمدح المهدى قائلا :

أبناء ذى التاج ذو رُعَيْنٍ ورهـ — ـط المصطفى ليس فوقهم بَشَرُ (٨٧)

ويكثر فى شعره ذكر القضاء والقدر والتسليم به ، مثل

وفؤادى كجناحى طائر — من غدٍ . لابد من مَرّ القضا (٨٨)

* * *

فارض بالقسمة من قسّامها — يُعْدِمِ المرء ويغدو ذا ثَرا (٨٩)

* * *

وما ذنب مقدور عليه شقاؤه — من الحب عند الله فى سابق الكُتْبِ (٩٠)

سيقت إلى الشام ، وما ساقها — إلا الشقا والقدرُ الجالـ...

* * *

لا تَعْجَل القدر المكتوب مَوْقِته — فاستأن . لا يسبقُ العجلانُ ما ط...

* * *

ولو متّ كان الموت خير من الشقا — وما للفتى مما قضى الله مخر...

* * *

لا يُبْعِدُ الناسُ ما يدنو القضاءُ به — ولا يقرّبه شىءٌ إذا بَعُـ...

* * *

غىُّ الفتى ورشده مقدورُ (٩٥)

* * *

لا تلوموا ، بنى سلامة ، فيما — قدّر الله للفتى تقديـ...

وإذا كان التركيز فى هذه الأبيات على أن القدر لا يغالب ، بما ... الإنسان تمامًا أمامه ، فذلك لأن هذا الشعر كله هو فى وصف آلام العشـ... المحبون بالعجز المطلق أمامها وأن عليهم اصطلاءها فى يأس . ثم إن الحـ... غزا قلب إنسان فليس عن اختيار من صاحب القلب يكون ذلك ، بل عـ... وإرادته .

وفى ملك الموت ، وعذاب القبر ، والبعث والحشر ، وظلّ العرش ... له هذه الأبيات على سبيل الاستشهاد والتمثيل :

وبدا لى ملك المو — ت يغشينى وفاتـ...

* * *

ووالله والله ما جئته — لعمدٍ وما كان من ...

وإلا فمتَّ إذن ضائعا — وعذبنى الله فى ميتتـ...

* * *

* * *

وعجيبٌ نكْث الكريم ، وللنفـ   ـس معادٌ وللحياة انقضاءُ (١٠٠)

* * *

إن فى الحشر والحساب لشغلا   عن وقوفٍ بكل رسمٍ مُحيل (١٠١)

* * *

فاذكرينى ، ذُكرتِ فى ظُلّة العر   ش بخير ، تفرّجى بعض كربى (١٠٢)

* * *

ظللنا بذاك الديدن (١٠٣) اليوم كله   كأنا من الفردوس تحت خلود (١٠٤)

* * *

جنّية الحسن مرتجّ روادفها   كأنها من جوارى الجنة الخُلْدِ (١٠٥)

* * *

إن البخيلة لو يميل بها الصّبا   كالقنو مال على أبى الدحداحِ (١٠٦)

وهو إذا أبدى ، أو أبدى غيره على لسانه ، إعجابا فكثيرا ما يكون سبيل التعبير عن ذلك هو التسبيح بقدرة المولى جلّ وتعالى :

إذا رآها نساء الحىّ قلن لها :   سبحان من صاغها ! يغرقن إطنابا (١٠٧)

* * *

وثقال الأرداف مهضومة الكشـ   ـح كغصن الريحان يهتز رطبا

إن أُمَتَّعْ بها فيا نعمة الله !   وإن ينحرم فويلى محبّا ! (١٠٨)

* * *

ولمّا جلاها الشمع سبّح ناظرٌ   وكبّر رفّاف وسار فأرهجوا (١٠٩)

* * *

وخدّ أسيل ، وكفّ إذا   أشارت لقوم بها سبّحوا (١١٠)

* * *

تُلقَى بتسبيحة من حسن ما خُلِقَتْ   وتستفزّ حشَى الرائى بإرعادِ (١١١)

* * *

سبّح خليلى وقل: يا حسن تصوير !   راحت سليمى تهادى فى المقاصير (١١٢)

ويلحق بذلك هذه الأبيات التى يبارك فيها اللّه ويكبره ويسبّحه ، ولكن فى سياق آخر غير سياق الإعجاب بالجمال :

تبارك من ألقيتُ وجهى بوجهه   ومن خلق الخنزير والكلب والقردا (١١٣)

* * *

كبّرتُ لما رأيتُ الصبح منبلجا   يحدو توالىَ جونٍ بان أو كادا (١١٤)

* * *

سبحانك الله ! لو شئت امتسختَهما   قردين فاعتلجا فى بيت قرّادِ (١١٥)

وهو يدعو الله دعاء المؤمن الضارع :

فدعوتُ ربى دعوة جمعت   رغَب المحب وشدةَ الرّهَبِ

ألا نراكِ بنا متيّمة   فأجاب دعوةَ عاشقٍ ربى (١١٦)

* * *

حدثتنى العيون عنها لخالفـ   ـتُ المصلّى أدعو إلهى مُكبّا

كدعاء المكروب فى لجة البحـ   ـر ينادى الرحمن رغبا ورهبا

فاستجاب الدعاء واستوجب الشكـ   ـر إلهٌ قريبٌ ازداد قربا (١١٧)

* * *

وإنى لأهواها ، وإن كنتُ كاذبا   فلا رُفِعَتْ فى الصالحين صلاتى (١١٨)

* * *

جزى الله عن قومى سفيحًا كرامةً   وعن رجلٍ يُهْدِى له الحمدَ والودّا (١١٩)

ويستشهد الله على ما هو فيه من تباريح الحب :

ريمٌ ، قد تبتُ وطالت عشرتى   شهد الله ، ودمعى شهدا (١٢٠)

وعلى أنه لم يأت ما يلام عليه :

أيها اللائمى ولم آت بأسا   يشهد الله والثلاث الشهودُ (١٢١)

ويبث شكواه إلى الله :

إلى الله أشكو حاجة قد تقادمت ... على حدث فى القلب غير قريب (١٢٢)

* * *

فعلى حُبّى (١٢٣) عويلى ... وإلى الله شكاتى (١٢٤)

* * *

فإلى الله مشتكانا ... ومع الهائم الشجى (١٢٥)

* * *

أشكو إلى الله شوقا لا يفرطنى ... وشوقا فى سواد القلب تختلج (١٢٦)

* * *

إلى الله أشكو أن بالقلب كُربة ... من الشوق لا تبلى ولا تتفرج (١٢٧)

وهو كثيرا ما يذكر تقوى الله . يقول فى عاقبة التقوى يوم القيامة :

وحراثة التقوى لمحترث ... كرم المعاد وما له حسبة (١٢٨)

ويقول فى رثاء ابنه محمد والصبر على بلية موته :

صبرت على خير الفتوّ رُزئته ... ولولا اتقاء الله طال نحيبى

....

وفى كل يوم عَبْرة لا أفيضها ... لأحظى بصبر أو يحط ذنوبا (١٢٩)

ويقول لخليلته مما لا ترقيق قلبها واستجلاب حبها :

فاتقى الله يا حبيب وجودى ... بشفاء الشائق المكروب

....

فوليه واتقى الإله فيه ... ليس ما قد فعلت بالتحبيب (١٣٠)

أما فى البيت التالى فإنه يصرح بأن تقوى الله هى التى منعته وحبيبته من الإلمام بالإثم :

فلولا التقى والستر رحت عشية ... بعدت هنات بيننا وهنات (١٣١)

ونراه فى البيت التالى يرد على المرأة افتخرت على ابنته قائلا :

لشتان ما بينى وبينك فى التقى ... وفى الحسب الزاكى وفى العيش والحَفَد (١٣٢)

ويقول متعزيا عن عماه :

إذا أبصر المرء المروءة والتقى ... فإن عمى العينين ليس يضيرُ (١٣٣)

ويقول فى مغنية واصفًا المتعة النفسية التى يجنيها سامعوها من صوتها الرائع الجميل :

لعوب بألباب الرجال ، وإن دنت ... أُطيعَ التقى ، والغيّ غير مطاع (١٣٤)

ويكثر صدور المعانى الإسلامية فى شعره صدورًا طبيعيا لا مراءاة فيه ولا تكلف . يقول مادحا عمر بن أبى هبيرة ومشيرًا إلى بلائه فى محاربة المارقين الضلاّل :

قود المطايا بِعَمّى مارقٍ ... عُوتب فى الله فلم يُعْتِبِ (١٣٥)

وفى مدح أحد العباسيين نجده يقول :

أبناء أملاك من صلى لقبلتنا ... فكلهم مَلِكٌ بالتاج معتصبُ (١٣٦)

وفى الكلام عن قلبه وهمه يقول واصفًا ما يلقاه فى الحب بسببهما :

قد كلّفانى عملا خائبا ... وعامل الله الذى لا يخيبُ (١٣٧)

ويقول فى سياق آخر :

وما خاب بين الأجر والحمد عامل ... له منهما عند العواقب زادُ (١٣٨)

وفى التذكير بالموت وأن الله لا يغفل أبدا يقول :

خليلىّ ، إن الموت ليس بناهل ... وليس الذى يَهْدِى المنايا بغافلِ (١٣٩)

ويقول مذكرا بيوم الحساب ، يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة إلا من أتى الله بعمل تقى سليم :

خليلُك ما قدمت من عمل التقى ... وليس لأيام المنون خليلُ (١٤٠)

وليست المعانى الإسلامية وحدها البارزة فى شعر بشار بل الصور المستمدة من الإسلام وعقائده وعباداته وشعائره كذلك . وهذه أمثلة على ما نقول :

حسدتنى حين أصبتُ الغنى ... ما كنتَ إلا كابن حوّاء

لاقى أخاه مسلما محرما ... بطعنة فى الصبح نجلاء (١٤١)

* * *

مثل المصلىّ الساجد التوّاب ... . (١٤٢)

* * *

.... وكأن الربابَ أمّ الكتاب (١٤٣)

* * *

لا تخافى على مكانك عندى ... عوضُ ما هلل الحجيجُ ولبّى (١٤٤)

* * *

لَوَتْ حاجتى عند اللقاء، وأنكرت ... مواعيد قد صامت بهنّ وصلّتِ (١٤٥)

* * *

وأنت الحجر الأسـ ... ـود لو يخلو لقبّلته (١٤٦)

* * *

لها تَصَفّاتٌ حولها يستلمنها ... كما استلم الركنَ النواسكُ بالراح (١٤٧)

* * *

يمشى النعام بجوّها ... مشى النساء إلى المساجد (١٤٨)

* * *

وذكرتُ من رمضان آخر ليلة ... طلعت كواكبُها علىَّ سعودا
إذ نلتقى حَلَقًا ونسترق الهوى ... سَرَقَ العفاريت السماعَ مذُودا (١٤٩)

* * *

يغدو الخليفة مرءوما نُطيف به ... كما يطيف ببيت القبلة الحادى (١٥٠)

* * *

كأننى إذا ما أطْمَعَتْ فى لقائها ... على دعوة الداعى إلى جنة الخُلْدِ (١٥١)

* * *

يا رب، إنى عشقتُ رؤيتها ... عشق المصلين جنّة الخُلْدِ (١٥٢)

* * *

عشقتُ فاها وعينيها ورؤيتها ... عشق المصلين جنّاتِ لأبرارِ (١٥٣)

* * *

وكأنها ببرد الشرا ... ب صفا ووافق منك فِطْرًا (١٥٤)

* * *

وجارية خُلِقتْ وحدها ... كأن النساء لديها خَدَمْ
دُوّار العذارى، إذا زرنها ... أطفن بحوراء مثل الصَّنَمْ
يَظَلّن يمسّحن أركانها ... كما يمسح الحجرَ المستلم (١٥٥)

* * *

يطوف العفاة بأبوابه ... كطوف الحجيج ببيت الحرم (١٥٦)

* * *

ختم الحب لها فى عنقى ... موضع الخاتم من أهل الذممْ (١٥٧)

* * *

كأنها يوم راحت فى محاسنها ... فارتجّ أسفلها واهتزّ أعلاها
حوراء جاءت من الفردوس مقبلة ... فالشمس طلعتها والمسك ريّاها (١٥٨)

ومع ذلك، فلابدّ من الاستدراك بأن بعض صوره فى وصف جمال محبوبته تقوم مثلا على تشبيبها بالصليب الذى يقدسه النصارى أو الصنم الذى يعبده الجاهليون :

فقد شغفتُ بحبها ... شغف النصارى بالصليبْ (١٥٩)

* * *

ألا يا صنم الأزد الـ ... ـذى يدعونه ربّا (١٦٠)

* * *

أنا مشغوف بسلمى ... كالنصارى بالصليب (١٦١)

* * *

فلستُ بسالٍ ما تغنّت حمامة ... وما شاق رهبانَ النصارى مسيحُها (١٦٢)

* * *

تغدو ثقالا ، وتمسى فى مجاسدها   كأنها صنم فى الحىّ معبودُ (١٦٣)

* * *

من كل مقبلة الشباب كأنها   صنمٌ لأعجم لاينى معبودا (١٦٤)

على أن مَتْحَه من الإسلام لا يقتصر على الصور ، إذ هو كثيراً ما يقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف بعض تعبيراتهما أو يستلهمها، مثل :

وإن تعللتُ إلى زلة   أكلتُ فى سبعة أمعاءِ (١٦٥)

* * *

ألم أزين تاجك الذهبا

بالباقيات الصالحات تُحْبى (١٦٦)

* * *

فزار غبّا كى يُزاد حبّا (١٦٧)

* * *

فى جنان خُضْرٍ وقصر مشيد   قيصرىّ حفت به الأعنابُ (١٦٨)

* * *

وَكَّلتْ بى جارتى أسهودةً   شرَّ ما وُكّل بالجار الجُنُبْ (١٦٩)

* * *

دعهن للمسهب الضّلّيل موردُه   يا قلبُ، كل امرىء رهنٌ بما اكتسبا

قد حصحص الحق وانجابت دجنّتُه   وعرّض الجهر شطريه لمن حلبا (١٧٠)

* * *

كل امرىء رهن بما يؤدّى (١٧١)

* * *

ما العيش إلا لحماد أبى عُمَرٍ   لم يدر أن له ربا بمرصاد (١٧٢)

* * *

فَقَدْتُ الحُبَّ من شَرْعٍ لصادٍ   فبئس الورد يألفه الورود (١٧٣)

* * *

إذا آذنته الحرب آذن نومُه   بحرب إلى أن يُقْعد الحربَ مَقْعدا (١٧٤)

* * *

فقلت إذا شهدت عينى بحبكمو   ولم أجد عن جوار فيك ملتحدا: (١٧٥)

* * *

كأن فؤادى فى خوافى حمامةٍ   من الشوق أو صُنْع النوافث فى العُقَدْ (١٧٦)

* * *

مقامك مغمور ، وأنت مدقّعٌ   وبيتك بيتُ العنكبوت على العَمَدْ (١٧٧)

* * *

إذا لم تخش عاقبة الليالى   ولم تَسْتَحْيِ فاصنع ما تشاء (١٧٨)

* * *

أبا مسلم، ما غيّر الله نعمةً   على عبده حتى يغيّرها العبدُ (١٧٩)

* * *

يا عَبْدَ ، خافى الله فى عاشق   يهواك حتى تقع الواقعةْ (١٨٠)

* * *

وقالت : هويتَ ، فمت راشدا   كما مات عروة غمّا بغمْ (١٨١)

وفى البيت التالى يتحدث عن بركة القرآن فى فكّ السحر :

يرمون قلبى بأسحارٍ ، وأمحقها   عنّى بحرف من القرآن مكتوبِ (١٨٢)

وهو إذا أقسم فكثيرا ما تلون قسمه تلوينات إسلامية واضحة مأخوذة من شعائر الدين ، وبخاصة شعيرة الحج :

إنى ومن لبّت الرفاق له   شعثا أساريبَ خلفها سُرَبُ

ما جئتُ سلمى طوعا لتجعلنى   ذِبْحا ، ولكن أطاعنى النّجُبُ (١٨٣)

* * *

إننـي والمقـام والحجـر الأسـود والبيـت مشرفـا كالسحابـهْ
أشتهـي أن أدسَ قبلـك فى التـر ب لكى تصبحى بنا كالمصابـه (١٨٤)

* * *

لا ، ومـن سبـح الحجيـج لـه ، مـا   كان ظنى اتقاء عين الرقيـب (١٨٥)

* * *

واللـه رب محمـد   إنـي ببيانـة معجـبُ (١٨٦)

* * *

واللـه ربّ محمـدٍ   مـا إن غـدرتُ ولا نويتُـه (١٨٧)

* * *

يا عَبْدَ ، أُقسم بالـذى أنا عبده   وله المقام وما حـوت عرفاتُ (١٨٨)

* * *

حلفتُ بمـن حـج الملبّـون بيتـه   وبالخيـف والراميـن للجمـرات
لَتقبيلُ خديهـا ومصّ لسانهـا   ألذ من الباكين فى عرفـاتِ (١٨٩)

* * *

ولقـد حلفـتُ بـرب مكـ   ـة والمحلّقـة السواجـدْ
مـا نـال فضـلَ بنـى المهلّـ   ـب منذ كانوا جودُ جائد (١٩٠)

* * *

إنـى حلفـتُ أليّـةً صدقـت   بفنـاء بيـت الواحـد الصمـد
لتركتنـى صبّـا بحبكمـو   وقتلتِنـى (قتـلا ؟) بـلا قَوَدِ (١٩١)

* * *

حلفتُ بالقبلـة البيضـاء مجتهـدا   وبالمقام وركن البيت والسُّورِ (١٩٢)

* * *

حلفتُ بمنحر البُـدن الهدايـا   وأحلـف بالمقـام وبالجِمـارِ (١٩٣)

أما الأبيات الآتية فى بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلّ فيها

ردّا على من شنّعوا على الشاعر أنه كان يعتقد بكفرهم بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، إذ لا يذكرهم فيها إلا بكل احترام وتجلّة :

ساقى الحجيج أبوه الخير ، قد علمتْ   عُلْيا قريـش ، لـه الغايـات والقصَبُ
. . .
والفضل عند ابـن عبـاسٍ تُعَـدُّ لـه   فى دعوة الدين آثارٌ ومُحْتَسَبُ (١٩٤)

* * *

يهـز أبـا الفضـل بهـا   أولـى قريـش بالنبـى (١٩٥)

* * *

ومـا كنـت إلا كالأصم ابـن جعفر   رأى المال لا يبقى فأبْقَى له حمدا (١٩٦)

* * *

بنى لك عبد اللـه بيـت خلافـةٍ   نزلت بهـا بين الفراقد والنَّسْرِ (١٩٧)

* * *

وأبقـى لـك العبـاس يومّـا مشهـرا   إذا سِرتَهُ فى الذكر جلّ عن الذّكر (١٩٨)

* * *

لنـا بطحـاء مكـة والمصلّـى   ومـا جـاز المحصّـب والجمـارُ
وميـراث النبـى وصاحبيـه   تـلادا لا يبـاع ولا يعـار (١٩٩)

ولعل فى شعر بشار الذى يؤكد حق العباسيين فى الخلافة وينقض دعوى من يخالفهم دليلاً على أنه لم يكن يعتقد بأحقية علىّ فيها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أنه من ثمّ لم يكفّر الصحابة بحجة أنهم ، كما يقول الشيعة ، قد غصبوا عليا حقه ، ولا كفّر عليّا لتركه المطالبة بهذا الحق . وفى الشاهد التالى كفاية عن ضرب أمثلة أخرى . قال فى المهدى :

بنـى لـك عبدالله بيت خلافـةٍ   نزلـتَ بهـا بيـن الفراقـد والنَّسْـرِ
وعنـدك عهـد مـن وصـاة محمـد   فرعْتَ بهـا الأملاك من ولد النضر
ورِثْـتَ عليّـا (٢٠٠) شيمـةً أريحيـة   وصُنْتَ ابن عباس وأيـدتَ بالشكر

وأحـــرزت مـيـــــراث النبـى محمـــد   على رغم قوم ينظرون على دَعْر (٢٠١)

ويبقى إبليس ، الذى اتُّهم بشار أنه آثره على آدم وفضّل النار التى خُلق منها على عنصر الطين الذى صُنع منه جدّ البشر . وقد وجدت لبشار أبياتا يتحدث فيها عن النار وأخرى عن الشيطان والجنّ ، وكلّها تنم عن أن اعتقاده فيها هو اعتقاد المسلمين .

فأمّا النار فهى فى الدنيا هذه النار العادية التى نستخدمها فى أغراضنا اليومية ويشبّه المحبون بها آلامهم التى تكويهم وتحرق أكبادهم ، وفى الآخرة هى النار التى أعدها الله للكفرة والعصاة . ومن ذلك قوله :

وبـتّ بحاجـة فـى الصـدر منهـا   تَحَرّق نارُهـا بيـن الحجـاب (٢٠٢)

* * *

مـاء الصبابـة نـار الشـوق تحرقـه   فهل سمعتم بماءٍ فاض من نار ؟ (٢٠٣)

* * *

مقامـك بيننـا دَنَـسٌ علينـا   فليتـك غائـب فـى حرّ نـار (٢٠٤)

* * *

لـو عـاش حمـادٌ لهونـا بـه   لكنـه صـار إلـى النـار (٢٠٥)

وأما الشياطين فإنها تسترق السمع فى السماء ، ولكنها لا تبوء إلاّ بالفشل ، إ تُذاد ذودًا بالشهب المحرقة . يقول واصفا عَدْو ثور منطلق فى سرعة الشهاب :

ومضـى يزل علـى المتـان كأنـه   نجـم لمسترقٍ هـوى بشهابـه (٢٠٦)

ويقول فى تصوير لقائه مع حبيبته :

إذ نلتقـى حَلَقًـا ونسـترق الهـوى   سَرَقَ العفاريت السماعَ مذودا (٢٠٧)

وهو يسمّى الآل كما كانت العرب تسميه « مخاط الشيطان » . وقد ذكره رمزا على الكذب والأمل الخادع الذى يرهق الإنسان سعيا وراء تحصيله ثم لا يحصّل شيئا :

ومـن القـوم ذو غنـاء ووعـد   كمخاط الشيطان فيه اضطرابُ (٢٠٨)

والجنّ تؤذى الإنسان وتصيبه بالمرض ، فهى إذن مصدر من مصادر الشرور والآلام . يقول الشاعر عن نفسه وما ابتُلى به من حرقات الحب وحيرة الناس فى علاجه :

وقالـوا : بـه داءٌ أصـاب فـؤادَهُ   من الجن أو سِحْرٌ بأيدى المواردِ (٢٠٩)

وفى البيتين التاليين يهجو إنسانا فيصمه بكل خزى وانحطاط جاعلا إياه شيطانا مريدا . ولعلّ فيهما وحدهما أبلغ نفى للتهمة التى ألصقت ببشار من جهة إبليس :

يقـوم بـه القليـل إلى المخـازى   ويخذلـه عـن المجـد القعـودُ
غبـىّ العيـن عـن طلـب المعالـى   وفى السوءات شيطـانٌ مريدُ (٢١٠)

أما البيت الأخير من البيتين التاليين ، وهما فى بنى العباس ، فهو ينسف نسفًا ما قيل عن بشار فى هذا الصدد ، إذ يصوّر « الجن العفاريت » كلهم ، لا إبليس وحده ، وقد سجدوا لجيش العباسيين . وهذا الجيش بطبيعة الحال من البشر ، أى أنه إذا كان إبليس قد رفض السجود لآدم بحجة أنه من نار وآدم من طين فهاهم أولاء الجن الناريون أجمعون ، لا إبليس وحده ، يسجدون لبعض أبناء آدم :

إذا حاربـوا قومـا رأيتَ لواءهـم   يقـود المنايـا بارقـاتٍ ورُعّـدا
بأرعن(٢١١) تمسى الأرض منه مريضـة   وتَلْقَى له الجنّ العفاريت سجّدا (٢١٢)

والشيطان يسوّل للحاسد حسده ، والحسد مذموم عند كل البشر . ولبشار فى الحسد وتقبيحه أبيات كثيرة سوف نتعرض لها فى موضع آخر من هذا البحث . قال فى عقبة بن سلم :

وزيـر أميـر المؤمنيـن وسيفـه   إذا نفخ الشيطان فى أنف حاسدِ (٢١٣)

وينبغى أن نلاحظ أن رذيلة الحسد هى التى نفخت فى أنف إبليس وسوّلت له أن يستكبر فلا يسجد لآدم ، عاصيا بذلك أمر ربه .

ثم هاهو ذا بشار يضع نفسه فى مواجهة الجن مواجهة العداوة ويجعلهم يخشون

شعره ويرتعبون منه :

انا المرعَّث يخشى الجنُّ بادرتى   ولا ينام الأعادى من مزاميرى (٢١٤)

ومثل ذلك هذا البيت ، وهو فى هجاء أبى هشام الباهلى :

فإن كنت مجنونا فعندى سوطه   وإن كنتَ جنّيا فجدك أعثرُ (٢١٥)

وكذلك هذا البيت :

قد أذْعَرُ الجنَّ فى مسارحها   قلبى مضىءٌ ، ومِقْولى ذَرِبُ (٢١٦)

ثم هذا البيت الذى يعلن فيه لصديق له اسمه « عون » أنه إن لم يعنه على ما يصطليه من لواعج الحب ونيرانه فإنه سيكون حينئذ « عون الشيطان » عليه :

أنت عون الشيطان إن لم تعنّى   فارْعَ ما قلتُ تَشْفِ منى قِماحا (٢١٧)

كذلك فإن له فى هجاء حماد عجرد أبياتًا يحمل فيها على عبادته للرأس والرأسين ويتهمه بأنه كافر بالله وبدين محمد ولا يؤدى فرائض الإسلام . وقد فعل مثل ذلك مع ابن أبى العوجاء . وسواء كان هجاؤه هذا فى حماد جدًا أو هزْلاً فلا أظنه ، لو كان زنديقا أو ثنويا ، يقوله . قال فى حماد :

أوثر الرأس على ربّه   ... إلخ (٢١٨)

* * *

سُمّيتَ عبد الرأس من حبه   قد علم الحاضر والبادى (٢١٩)

* * *

إن سرك الطعن من قُبُلٍ ومن دُبُرٍ   فأت ابن سيمين ذا الرأسين حمادا (٢٢٠)

* * *

وتَعْبُدُ رأسا تصلى له   وأما الإله فلا تعبدُ

وتظهر حب نبىّ الهدى   وأنت به كافر تشهد

وتشرك ليلة شهر الصيام   حلالا كما نظر الأربد

...

وإن قيل : « صلّ فقد أذّنوا »   زعمت كما يزعم المُقْعَدُ (٢٢١)

* * *

ابنَ نِهْيا ، رأسٌ على ثقيلُ   واحتمال الرأسين خطب جليلُ

ادع غيرى إلى عبادة الاثنيـ   ـن ، فإنى بواحد مشغول (٢٢٢)

وقال فى عبدالكريم بن أبى العوجاء :

قل لعبد الكريم : يا ابن أبى العو   جاء ، بعت الإسلام بالكفر مُوقَا

لا تصلى ولا تصوم فإن صمـ   ـت فبعض النهار صوما رقيقا

...

ليت شعرى غداة حُلّيت فى الجيـ   ـد حنيفا حُلّيت أم زنديقا ؟ (٢٢٣)

وفى شعره تحمُّس للإسلام وفخر به :

هناك عاد الدين مستقبِلاً   وانتصب الدين على المنصب (٢٢٤)

* * *

نغضب للـه وللـ   إسلام أشرى الغضب (٢٢٥)

* * *

لنا بطحاء مكة والمصلَّى   وما حاز المحصّب والجمارُ

وساقية الحجيج إذا توافوا   ومبتدَر المواقف والنِّفارُ

وميراث النبى وصاحبيه   تلادا لا يباع ولا يُعارُ (٢٢٦)

ولكنْ رُبّ قائل إن بشارا منافق يتظاهر بما لم يكن يعتقده فى نفسه . ولقد رمى د. طه حسين بشارًا بالنفاق فعلاً ، وتابعه على ذلك بعض من درسوا الشاعر من المعاصرين ، كحنّا الفاخورى ، الذى اتهمه بالكذب والنفاق بل جعله « من أكبر المنافقين » (٢٢٧) ، والدكتور محمد نبيه حجاب ، الذى قال إنه كان يتظاهر بالإسلام والإسلام منه براء (٢٢٨) .

والحق أن بشارا كان أبعد ما يكون عن النفاق ، فقد كان حادّ الطبع ساخرًا وسريع الجواب عنيفه ، لا يبالى عادةً الموقف الذى يكون فيه ولا الأشخاص الذين حوله . ولقد رأيناه وهو يصك أحد موالى المهدى ، حين فسّر « النحل » فى القرآن وما

يخرج من بطونها بأنها بنو هاشم وعلمهم ، إذ قال له من فوره : « أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة » (٢٢٩) .
ومن ذلك أنه كان واقفا ذات مرة بين يدى المهدى ينشده مدحةً له فيه فدخل خال الخليفة ، وكان فيه غفلة ، فسأله : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فما كان منه إلاّ أن أجابه مستهزئا ساخرا غير عامل للخليفة ولا خاله حسابا : « أثقب اللؤلؤ » . ولما أظهر الخليفة إنكاره قائلاً : « أتتنادر على خالى ؟ » كان اعتذاره امتدادًا لاستهزائه الأول وسخره ، إذ قال : « وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرًا ويسأله عن صناعته ؟ » (٢٣٠) . ومن قَبل فى عصر بنى أمية حدث أن قصد سليمان بن هشام بن عبد الملك يمدحه لعله ينال منه عطاءً كبيرا ، لكن سليمان لم يثبه إلا بخمسة آلاف درهم استقلّها الشاعر وتركها وانصرف مغضبا ثم هجاه (٢٣١) .
وهذا ليس من تصرفات المنافقين . إنما هو تصرف رجل لا يعرف كيف يدارى ما فى قلبه بل يعلنه ولو كان فيه ما فيه ، ثم إن قصائده العنيفة فى الردّ على من كان يحاول التقليل من شأنه لأنه مولى هى أيضا برهان ساطع على أنه إذا جاش فى ضميره شعور لم يكن يتعمل فى إخفائه أو على الأقل فى تلطيف التعبير عنه ، بل كان يقذفه من قلبه كالحمم . ولعل من المناسب أن نذكر هنا فخره المضطرم بنفسه وجنسه أمام المهدى حينما سأله هذا عن أصله (٢٣٢) . وحتى حينما نهاه المهدىّ عن التشبيب بالنساء لم يلتزم بذلك النهى ، بل كان يكتفى بالإشارة إليه وأنه لا يسعه إلا الطاعة ثم ينطلق يشبب بهن ويتغزل فيهن بما يحلو له كعادته من قبل . ولو كان منافقًا لسارع فى الحال إلى تنفيذ ما طلبه منه الخليفة وراعاه بقية عمره . هذا ، وينبغى ألا ننسى ما أشرنا إليه قبل صفحات من أن الشعر الذى استشهدنا به على سلامة عقيدته هو فى الغالب من شعره الغزلى والهجائى حيث يصعب على المتشككين أن يقولوا إن الشاعر قد كان يراعى التقاليد الاجتماعية والدينية وما ينبغى أن يقال ، فإنه فى هذين اللونين

من شعره إنما كان يغنى لنفسه غير واضع أحدًا فى حسابه .
وأيضا فإن الشاعر كان لا يتورع أحيانا عن ذكر الإسلام وعقائده وعباداته فى سياقات لا تناسب الدين جلالاً واحتراماً (٢٣٣) . ولو كان منافقًا ما فعل هذا فى شعر يطّلع عليه الناس .
على أننى حين أقول إن بشارا كان مسلمًا سليم العقيدة لا أعنى أبدا ، ولا يمكن أبدا أن أعنى ، أنه كان متدينا تقيا ، فإن القول بسلامة العقيدة لا يستلزم أداء فروض العبادة مثلا ولا الامتناع بالضرورة عن الآثام . إن الإيمان درجات ، وفى المؤمنين المطيعون والعصاة . وبشار كان لا يتورع عن الهُجْر فى القول فى كثير من أهاجيه ، إذ كان يذكر ألفاظ العورات والسوءات بلا أى تحرج ، وكان يتهم مهجويه بالزنا واللواط وعدم الغيرة على أمهاتهن وأخواتهن وبناتهن غير مُكَنٍّ فى ذلك ولا باذلٍ أى قدر من الجهد فى تخفيف فحش كلامه (٢٣٤) . وقد تكررت إشارته فى شعره إلى أنه كان يشرب الخمر . ومع ذلك فربما كان يصلّى كما يقول أيضا فى ذلك الشعر (٢٣٥) ، وإن جاء فيه كذلك أنه قد ترك بعض الصلوات انشغالاً بهذه الحبيبة أو تلك (٢٣٦) . لكن ينبغى حمل هذا على الاتساع فى القول والمبالغة فيه كناية من الشاعر عن شدة هيامه ، مثله مثل قوله فى قصائد أخرى إنه من فرط تولّهه بحبيبته لم يكن يعرف كم عدد الركعات التى صلاّها أو إنه كان يستعين بمن يحصيها له (٢٣٧) . وهو فى إحدى مدائحه للمهدى يصف أتباعه وجنوده « بالصلاة والصبر » (٢٣٨) . وفى دلالة هذه الالتفاتة ما فيها .
والآن ، إذا كانت عقيدة بشار سليمةً فما سبب مقتله إذن ؟ لا أظنّ أن السبب هو تشبيبه بالنساء وضيق المهدى بذلك حسبما تقول الرواية التى تصوّره شديد الغيرة . إن هناك عدة روايات أخرى تصور ذلك الخليفة محبًّا للكلام فى الغزل والجنس مثيبًا عليه . جاء فى « الأغانى » أن بشارا دخل على المهدى وعنده جارية تغنيه فأطربته

فطلب من بشار أن يقول فيها وفى صوتها الجميل شعرا ففعل (٢٣٩) . وفيه أيضا أنه بعث إليه ، فلما حضر طلب منه أن يقول شعرًا فى الحب بحيث يجعله قاضيا بين المحبين ، فنظم الشاعر ما أراده الخليفة ، فكافأه بألف دينار (٢٤٠) . وفيه كذلك أن المهدى فاجأ إحدى جواريه وهى تغتسل فلما نذرت به مدت كفها فغطت سوأتها ، فأراد أن يصف ذلك شعرًا ولكنه لم يُفتَح عليه إلا بشطرة واحدة هى : « نظرَتْ عينى لِحَيْنى » ، فأمر بأن يُدْخَل إليه مَنْ بباب القصر من الشعراء ، وكان بشارًا ، فطلب منه أن يكمل الشطرة التى نظمها ، فأخذ بشار يصوّر الأمر وكأنه كان حاضرًا وشاهده بأم عينه ، والمهدى يستزيده وقد شمله الطرَب والسرور ، ثم كافأه على هذا الشعر الفاحش (٢٤١) . وأنا ، مع ذلك ، لا أصدق الرواية كما رُويت بالضبط ، فما كان بشار عالما بالغيب حتى يصف ما كان بين المهدىّ وجاريته وصف الذى حضر ورأى . ويبدو لى ، إذا كانت الرواية صحيحة ، أن المهدى قد أخبر الشاعر بما حدث وطلب منه أن ينظمه شعرًا .

ويعضّد أن المهدىَ لم يكن بتلك الغيرة التى ينسبونها إليه أنه لما نهى بشارا عن التشبيب بالنساء فى شعره لم يأخذ بشار هذا النهى بجدّ ، بل كان يكتفى بالإشارة إليه ثم يأخذ فى نهجه المعتاد من الانطلاق متغزلا مشببا . وليست هناك تقريبا قصيدةٌ مَدَح فيها بشار ذلك الخليفة بعد هذا إلا وفيها غزل وتشبيب . ولم يحدث هذا مرة واحدة ولا اثنتين ولا ثلاثا ، بل تكرر مرارا . والذى يرجع إلى الديوان ، رغم أنه غير كامل ، يستطيع أن يتعرف هذا بنفسه . فلو كان قتله بسبب تشبيبه بالنساء فلم انتظر المهدى عليه كل هذه المدة الطويلة ؟ ومتى كان التشبيب بالنساء يؤدى بالشعراء إلى حتفهم ؟

الحق أنى لا أستطيع أن أعثر على سبب لمقتل بشار غير هجائه للخليفة فى لحظة من لحظات الطيش . لقد كان الشاعر مقربا إليه ويحظى بحبه وعطاياه ويحضر

مجالس سمره حتى أخص الخصوصى منها مع جواريه . ثم جفاه الخليفة وأبعده عنه ولم يعد يعطيه على مدائحه فيه شيئًا . ويبدو أن ذلك كان بتأثير ممن حوله ، وبالذات يعقوب ابن داود وأخوه ، اللذان كان بشار قد هجاهما من قبل . وكانت الحجة الظاهرية هى أن بشارًا كان يشبب بالنساء . وإننا لنتساءل : أى مدّاح فى ذلك العصر لم يكن يشبب بهن ؟ ومن الواضح أن بشارًا لم يصدّق أن هذا هو السبب فى إقصاء الخليفة إياه فظلّ ينظم الشعر الغزلى ويخلطه بمدح الخليفة مع الإشارة فى كل مرة إلى أن المهدى قد نهاه عن ذكر النساء وأنه قد أقلع عن ذلك احترامًا لأمره . بيد أن المهدى ظل على جفائه للشاعر لا يفتح له باب القصر ولا يحلّ له كيس دنانيره أبدًا، فاغتاظ أشد الغيظ . وهذا أمر طبيعى ، إذ إن من تعود على معاملة خاصة من أحد يؤلمه أفظع الألم أن تتغير هذه المعاملة ويحرم مما أصبح ينظر إليه على أنه حق له مفروغ منه لا يتصور فى يوم من الأيام أن يتوقف وصوله إليه . وفى لحظة من لحظات الغيظ وعدم التبصر نظم بشار هجاءً مقذعًا فى المهدى يدّعى فيه أن الخليفة يزنى بعماته ويدعو الله أن يبدل الأُمّة به غيره وأن يدس موسى (٢٤٢) فى « ... » الخيزران زوجة الخليفة . ولم يكتف الأحمق بذلك ، بل ذهب به إلى حلقة موسى بن حبيب النحوى . ولما اطمأن إلى أنه ليس فى الحلقة غريب ينبغى احتشامه ألقى بشعره فى مسامع الموجودين . وقد كانت النتيجة أن بَلَغ الشعرُ وزيرَ الخليفة المضطغن على الشاعر فوصّله إلى المهدى (٢٤٣) .

هذا ، ولعلّ المهدى ، لما عاقب الشاعر بضربه سبعين سوطا ، قد سوّغ ذلك لنفسه بأنه إنما ينفذ حد القذف فيه ، فقد رماه بأنه يزنى بعمّاته ، وإن كان يمكن الاعتراض بأن الخليفة لم يحقق فى التهمة ولم يتأكد من صدور ذلك الشعر من الشاعر . ولكن متى كان الخلفاء دائمًا يراعون تعاليم الإسلام بحذافيرها ؟ وقد اقتصر الخليفة على سبعين سوطا ولم يبلغ بها الثمانين ، عقوبة حد القذف ، لأن الموت كان قد ظهر

فى بشار فتُرك ليموت .

إلاَّ أن اثنين من الباحثين قد استبعدا أن يكون بشار قد قال ذلك الهجاء البذىء فى المهدى : فأما ابن عاشور ناشر ديوانه ومحققه فاكتفى بالقول بأن هذا مما اختلقه حساده عليه (٢٤٤) ، وأما د. يوسف الصميلى فإنه أنكر نسبة هذا الهجاء إليه بحجة غثاثة ألفاظه وسماجة معانيه ، على عكس هجائه الآخر الذى كان ، كما يقول ، يصدر من أعماق قلبه (٢٤٥) .

والواقع أن على البيتين المشار إليهما سمات بشارية لا تخطئها العين : فكلمتا « دسّ » و « حِر » من الألفاظ التى تكررت فى شعر بشار على نحو يشد الالتفات . والهجاء بعدم الغيرة على أعراض الأمهات والأخوات ومن فى حكمهن بل بالقوادة عليهن والزنى بهن هو هجاء قد تكرر عند الشاعر أيضا . ثم إن لبشار شعرًا خفيفًا لم يبذل جهدًا فى صياغته وإحكامه . وما قول النقاد فى « ربابة ربة البيت » وأمثالها عنّا بغريب . كذلك كان بشار قد مدح موسى الهادى فى بعض شعره وحرض المهدى أباه على أن يجعل ولاية العهد له بدلاً من عيسى بن موسى (٢٤٦) ، وذكر معه مرة الخيزران أمه ، فيبدو أن عدم تشفع موسى له عند جفوة أبيه إياه قد أضغنه عليه فألحقه بأبيه فى الهجاء .

أمّا قول الدكتور محمد النويهى إن واصل بن عطاء ومالك بن دينار وسوار بن عبد اللّه قد ظلوا يضغطون على المهدى حتى قتل بشارًا (٢٤٧) فهو وهم ، لأن واصلاً ومالكًا كانا قد ماتا فى عام ١٣١هـ ، وسوارا مات فى ١٥٧ هـ فى عهد المنصور (٢٤٨) ، أى أن هؤلاء الثلاثة لم يمتد بهم العمر لعهد المهدى ، بل لم يمتد العمر بالأولين إلى العصر العباسى أصلاً . لقد ذكر صاحب « الأغانى » أنهم قد زجروا بشارا كثيرا ووعظوه كى يقلع عن شعره الغزلى المحرّض علَى الفاحشة (٢٤٩) . لكن هذا شىء ، والقول بأنهم « أخذوا يعنفون فى لوم المهدى على صحبته بشارا وتقريبه إياه

واصطفائه مسامرا ونديما وإعطائه المنح والجوائز ، فخانته شجاعته الأدبية ولم يستطع الاستمرار فى تجاهل نقدهم ، وكان عداؤهم من نوع لا يخمده إلا قتل بشار ... فتلمس المهدى عذرا يقتل به بشارا إرضاءً لهم وتخلصا من وطأة التقريع » (٢٥٠) هو شىء آخر . ذلك أن الموتى الذين استحالوا إلى تراب من زمن طويل لا يحرِّضون بل لا يتكلمون . وإن عبارة صاحب « الأغانى » هى المسؤولة عن ذلك ، إذ بعد أن ذكر إنكار هؤلاء العلماء الثلاثة قال : « فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى ... إلخ » ، فجاء د. النويهى ولم يمحص المسألة ووقع فى هذا الوهم (٢٥١) .

الهوامش

١- البيان والتبيين / دار الفكر للجميع / ١٩٦٨ م / ١ / ١٥ .

٢- مع أن سليمان هذا قد اتُّهم بأنه قد لقن عقيدته المنحرفة عن بشار . انظر د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٦ / ٢٥٤ . والدكتور شوقى يحيل ، فيما يحيل عليه ، على الجاحظ فى « الحيوان » (٤ / ١٩٥) ، مع أن عبارة الجاحظ هناك لا تعنى هذا . إنما تعنى ، فى الغالب ، أنه أخذ عن بشار فكرة أن الجسد هو هيكل الروح .

٣- انظر « البيان والتبيين » / ١ / ٢١ / ٢٣ - ٢٧ .

٤- السابق / ١ / ٢٥ .

٥- ليلى الناعظية امرأة من روافض الشيعة كانت معاصرة لمحمد بن الحنفية ، وكانت تستقبل أولئك الغلاة سراً . وقد ذكرها الجاحظ بين النساك والزهاد من أهل البيان ، وذكر معها من نساء الغالية الصدوف وهندا . انظر « البيان والتبيين » / ٢ / ٨ .

٦- الحيوان / تحقيق عبدالسلام هارون / مصطفى البابى الحلبى / ط ٢ / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م / ٤ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

٧- انظر « أمالى المرتضى » / ١ / ١٣١ .

٨- الشعر والشعراء / تحقيق أحمد محمد شاكر / دار المعارف / ٢ / ٧٥٧ .

٩- السابق / ٢ / ٧٦٠ .

١٠- ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٢٤ - ٢٥ .

١١- السابق / ٢١ .

١٢- السابق / ٢٢ - ٢٣ .

١٣- الأغانى / ٣ / ١٤٥ - ١٤٦ .

١٤- السابق / ٣ / ١٤٦ - ١٤٧ .

١٥- السابق / / ٣ / ٢١١ .

١٦- السابق / ٣ / ١٨٦ .

١٧- السابق / ٣ / ٢٢٧ .

١٨- الخيزران هى أم موسى الهادى وهارون الرشيد ولدى المهدى .

١٩- الأغانى / ٣ / ٢٤٢ - ٢٤٤ .

٢٠- السابق / ٣ / ٢٤٤ - ٢٤٥ .

٢١- السابق / ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٩ .

٢٢- السابق / ٣ / ٢٤٨ - ٢٤٩ .

٢٣- السابق / ٣ / ٢٤٩ .

٢٤- رسالة الغفران / دار صادر / بيروت / ١٥٩ - ١٦٠ .

٢٥- البغدادى / الفرق بين الفرق / مكتبة أنس بن مالك / ١٤٠٠ هـ / ٣٩ ، ٤٢ .

٢٦- الفهرست / ٣٣٨ .

27- R. A. Nicholson , A Literary History of the Arabs , Cambridge University Press , 1979, pp. 373 - 374 .

٢٨- سوف نرى بعد قليل أن مجمل رأى د . محمد النويهى فى عقيدة بشار يشبه إلى حد كبير ما جاء فى هذه الفقرة .

29- Encyclopaedia of Islam , 1st ed. , art , « Bashshar » .

٣٠- انظر جرجى زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / تعليق د . شوقى ضيف / دار الهلال / ٢ / ٥٨ -٥٩ .

٣١- انظر عباس محمود العقاد / مراجعات فى الآداب والفنون / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٩٦٦ م / ١٠٦ - ١٠٨ .

٣٢- انظر « حديث الأربعاء » / ٢ / ١٩٢ - ١٩٣ .

٣٣- نفسه / ٢ / ٢١١ .

٣٤- انظر د . شوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / دار المعارف / القاهرة / ط ٨ / ١١٢ - ١١٣ . وانظر كذلك كتابه « العصر العباسى الأول » / ١٧٣ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ٢١٣ - ٢١٤ .

٣٥- انظر د . محمد النويهى / شخصية بشار / ٧٦ - ٧٩ .

٣٦- السابق / ٧٩ .

٣٧- نفسه / ٨٠ - ٨٢ .

٣٨- نفسه / ٨٢ .

٣٩- نفس المرجع والصفحة .

٤٠- السابق / ٨٢ - ٨٣ . وكما ترى فإن مجمل رأى الدكتور النويهى فى عقيدة بشار يشبه شبها كبيرا رأى كاتب مادة « بشار » فى « Encyclopaedia of Islam » ، كما سبق أن أشرت .

٤١- نفسه / ٩٤ .

٤٢- نفسه / ١٣٨ - ١٣٩ .

٤٣- نفسه / ١٤٢ - ١٤٥ .

٤٤- نفسه / ١٤٥ - ١٤٦ .

٤٥- مقدمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لديوان بشار / ٢٠ - ٢٩ .

46- André Miquel , La Littérature Arabe , " Que sais-je " (no. 1355) , Paris , p. 49.

٤٧- انظر د . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٩٣ .

٤٨- انظر د . سيد حنفى حسنين / بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق / دار الثقافة للطباعة والنشر / القاهرة / ١٩٧٨ م / ١٠٣ - ١١٣ .

٤٩- انظر د . محمد زكى العشماوى / موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى / دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ١٩٨١ م / ١٠٣ - ١٠٤ .

٥٠- نفسه / ١٢٩ - ١٣٤ .

٥١- الديوان / ٣ / ٢٨٦ .

٥٢- انظر ديوان بشار / ٤ / ٧٨ .

٥٣- يقصد أنه هو أيضا يتمنى هذا ، لأن الأب فى دين كسرى (أى المجوسية) يحل له نكاح بناته .

٥٤- انظر ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٢٣ .

٥٥- انظر هذه القصيدة فى الديوان / ٣ / ١٣٠ وما بعدها ، وفيها هذه القوافى : « إذا - مدا - الودا - رِفدا - وفدا - عهدا » .

٥٦- انظر « أمالى المرتضى » / ١ / ١٣٤ .

٥٧- انظر « الأغانى » / ٣ / ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٥٨- السابق / ٣ / ١٥٣ - ١٥٤ .

٥٩- انظر الأبيات التى يرثى بها الشاعر ابنه ذاك فى الديوان (١ / ٢٥٤ - ٢٥٧) ، حيث ذكر اسم ذلك الطفل عدة مرات . والغريب أن الحكاية التى تشرح ظروف نظم هذه الأبيات تصور بشارا ساخطا ، على حين أن الشعر ينبىء عن رضا بالمقدور ابتغاء الحصول على أجر الصابرين . انظر الديوان / ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥ (بالهامش) ، والأغانى / ٣ / ١٦١ . على أن الجاحظ قد أورد فى « البيان والتبيين » (٢ / ١٠٦) هذه الكلمات التى نسبها « الأغانى » لبشار منسوبة لشيخ من بنى أسد ، مما قد يشكك فى أن يكون بشار هو قائلها . وكان أحدهم ، حسب الرواية ، قد قال له يعزيه : « اصبر ... ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » ، فقال مجيبا له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته . والله لئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد » .

٦٠- الموشح / تحقيق محمد على البجاوى / ٤٤٧- ٤٤٨ .

٦١- الأغانى / ٣ / ١٧٤ - ١٧٥ .

٦٢- السابق/ ٣ / ٢١٢ .

٦٣- النحل / ٦٨ - ٦٩ .

٦٤- الأغانى / ٣ / ١٥٨ - ١٥٩ .

٦٥- السابق / ٣ / ١٦٧ - ١٦٨ .

٦٦- نفسه / ٣ / ٢٢٥ .

٦٧- نفسه / ٣٣ / ١٤٤ .

٦٨- د . نجيب البهبيتى / تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / ٣٤١ .

٦٩- الديوان / ١ / ١٧١ .

٧٠- نفسه / ٢ / ٢٠٣ .

٧١- نفسه / ٣ / ٣٠٣ .

٧٢- ٣ / ١٦٩ .

٧٣- ٢ / ٢٩٦ .

٧٤- ٤ / ٣٣ .

٧٥- ٤ / ١٨ .

٧٦- ٤ / ٦٢ .

٧٧- ١ / ١٠٤ .

٧٨- ١ / ٢٤٣ .

٧٩- أى مهما كان بعيداً عنه صلى الله عليه وسلم فى النسب (الديوان / ١ / ١٢٤) .

٨٠- نفسه / ١ / ٢٣٧ . والضَّرَب : العسل الأبيض الغليظ .

٨١- ١ / ٣٤٦ .

٨٢- ١ / ٣٥٩ .

٨٣- ١ / ٣٧٩ .

٨٤- ٢ / ٢٩٨ - ٢٩٩ . وساقى الحجيج : العباس . ومُنهب الزاد : هاشم بن عبد مناف .

٨٥- كذا . وقد تكون : « وجُنِنْتَ » .

٨٦- الديوان / ٢ / ٣٢٢ .

٨٧- ٣ / ١٩٩ .

٨٨- ١ / ١٣٢ .

٨٩- ١ / ١٣٣ .

٩٠- ١ / ١٨٨ .

٩١- ١ / ٢٢٦ . والكلام عن حبيبته ورحلتها إلى الشام وتركها إياه .

٩٢- ١ / ٣٥٥ .

٩٣- ٢ / ٩٥ .

٩٤- ٣ / ٦٨ .

٩٥- ٣ / ١٧٩ .

٩٦- ٣ / ٢٣٤ .

٩٧- ١ / ٣٧ .

٩٨- ٤ / ٢٨ .

٩٩- ٤ / ٧٧ .

١٠٠- ١ / ١١٥ .

١٠١- ٤ / ١٥٢ .

١٠٢- ١ / ٢٦٨ .

١٠٣- الكلام هنا فى وصف النشوة بغناء جارية .

١٠٤- ٢ / ١٦١ .

١٠٥- ٣ / ١٤٢ .

١٠٦- ٢ / ١٢٨ . وأبو الدحداح هو أحد من ثبتوا فى هزيمة أحد ، وقُتل شهيدا يومها . وقال فيه النبى عليه السلام : « كم من عذق رداح لأبى الدحداح » (انظر الهامش رقم ٦ من الديوان فى الموضع المذكور هنا) .

١٠٧- الديوان / ١ / ٢٠٩ .

١٠٨- ١ / ٣٨٣ .

١٠٩- ٢ / ٩٥ .

١١٠- ٢ / ١٠٨ .

١١١- ٢ / ٣١٩ .

١١٢- ٣ / ٢٢٠ .

١١٣- ٣ / ٨٨ .

١١٤- ٣ / ٩٨ .

١١٥- ٤ / ٣٧ .

١١٦- ١ / ٢١٤ . وهو يدعو لها بكل قوة وضراعة ألاّ تذوق فى حبّه ما يذوق هو فى حبها ، ضنًّا بها أن تقاسى من لهيب الحب ما يقاسى .

١١٧- ١ / ٣٨١ .

١١٨- ٢ / ٤١ .

١١٩- ٣ / ١٣٢ . وسفيح : هو سفيح بن عمرو ، أحد ممدوحيه .

١٢٠- ٣ / ١٢ .

١٢١- ٣ / ٢١ .

١٢٢- ١ / ٢٥٦ .

١٢٣- حُبّى (بتشديد الباء وفتحها) : اسم حبيبته .

١٢٤- الديوان / ٢ / ٣٨ .

١٢٥- ٢ / ٧٢ .

١٢٦- ٢ / ٧٧ .

١٢٧- ٢ / ٩٢ .

١٢٨- ١ / ٢٥٢ .

١٢٩- ١ / ٢٥٥ .

١٣٠- ١ / ٢٧٠ .

١٣١- ٢ / ٤٤ .

١٣٢- ٣ / ١٥٣ .

١٣٣- ٤ / ٥٢ .

١٣٤- ٤ / ٩٩ .

١٣٥- ١ / ١٥٠ .

١٣٦- ١ / ٢٣٧ .

١٣٧- ١ / ٣٦١ .

١٣٨- ٣ / ٤٩ .

١٣٩- ٤ / ١٤٤ .

١٤٠- ٤ / ١٥١ .

١٤١- ١ / ١٣٠ .

١٤٢- ١ / ١٤١ .

١٤٣- ١ / ٢٥٤ .

١٤٤- ١ / ٣٨١ . وعَوْضُ ما : مادام .

١٤٥- ٢ / ٩ .

١٤٦- ٢ / ١٥ .

١٤٧- ٢ / ١٢٠ . والنصَفات : الخادمات . والراح : الأيدى .

١٤٨- ٢ / ٢٤٣ .

١٤٩- ٢ / ٢٥٩ .

١٥٠- ٢ / ٣٠٥ .

١٥١- ٣ / ٨ .

١٥٢- ٣ / ٦٦ .

١٥٣- ٣ / ١٦٨ .

١٥٤- ٤ / ٥٥ . يشبّه حبيبته بالشراب البارد الذى يتناوله الصائم عند إفطاره وهو حرّان الجوف .

١٥٥- ٤ / ١٥٧ .

١٥٦- ٤ / ١٦٢ .

١٥٧- ٤ / ١٦٦ .

١٥٨- ٤ / ٢٣٠ .

١٥٩- ١ / ١٧٤ .

١٦٠- ١ / ٢٠٢ .

١٦١- ١ / ٢٢١ .

١٦٢- ٢ / ١٤٣ .

١٦٣- ٢ / ٢٦٩ .

١٦٤- ٢ / ٣٢٧ .

١٦٥- ١ / ١٣٠ . والأكل فى سبعة أمعاء هو كناية عن الكفر . وهو من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (انظر الهامش رقم ٣ فى الموضع المذكور من الديوان هنا) .

١٦٦- ١ / ١٣٩ . وقوله « الباقيات الصالحات » موجود بنصّه فى الآية / ٤٦ من سورة « الكهف » .

١٦٧- ١ / ١٤٠ . وهو من قول الرسول عليه السلام : « زُر غِبًّا تزدد حُبًّا » (انظر الهامش / ٣ فى ذلك الموضع المذكور من الديوان هنا) .

١٦٨- ١ / ٣٣٤ . وقوله : « قصر مَشِيد » مأخوذ من الآية / ٤٥ من سورة « الحج » .

١٦٩- ١ / ٣٤٨ . وعبارة « الجار الجنب » قد وردت فى الآية / ٣٦ من سورة « النساء » . والأسهودة : السّهد والأرق .

١٧٠- ١ / ٣٥٦ . والعبارة الأولى التى تحتها خط هى من قوله تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين » (الطور / ٢١) ، والثانية هى نفسها عبارة قرانية وردت على لسان امرأة العزيز فى سورة « يوسف » / ٥١ .

١٧١- ٢ / ٢٣٩ . وهى مثل قوله : « كل امرىء رهين بما اكتسبا » فى الشاهد السابق .

١٧٢- ٣ / ٢ . والشطرة الثانية هى من قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » (الفجر / ١٤) .

١٧٣- ٣ / ١٧ . وهو مأخوذ من قوله سبحانه : بئس الورد المورود » (هود / ٩٨) .

١٧٤- ٣ / ٤٣ . وهو مستوحى من العبارة القرآنية : « فَأْذَنوا بحرب من الله

ورسوله » (البقرة / ٢٧٩) .

١٧٥- ٣ / ٦٨ . والشطرة الثانية من قوله تعالى : « ولن أجد من دونه ملتحدا » (الجن / ١٢) .

١٧٦- ٣ / ٧٠ . وقد جاء فى الآية الرابعة من سورة « الفلق » الاستعاذة من « شر النفاثات فى العقد » .

١٧٧- ٣ / ١١٣ . والإشارة فى البيت إلى قوله تعالى : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » (العنكبوت / ٤١) .

١٧٨- ٤ / ٧ . وهو من قول الرسول عليه السلام : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (انظر الهامش رقم / ٤ فى ذلك الموضع المذكور من الديوان هنا) .

١٧٩- ٤ / ٤٤ . وهو مأخوذ من قوله سبحانه (الأنفال / ٥٣) : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

١٨٠- ٤ / ٩٨ . وفى أول آية من سورة « الواقعة » نقرأ : « إذا وقعت الواقعة » . و « يا عبد » : ترخيم « يا عبدة » ، حبيبته .

١٨١- ٤ / ١٥٨ . و « غمًّا بغمّ » عبارة موجودة بنصها فى الآية / ١٥٣ من سورة « آل عمران » .

١٨٢- ١ / ٢٦٢ .

١٨٣- ١ / ١٩٠ .

١٨٤- ١ / ١٩٣ .

١٨٥- ١ / ١٩٨ .

١٨٦- ١ / ٣٥٩ .

١٨٧- ٢ / ٢٥ .

١٨٨- ٢ / ٣٦ .

١٨٩- ٢ / ٥٨ .

١٩٠- ٢ / ٢٥٦ .

١٩١- ٣ / ٢٦ .

١٩٢- ٣ / ٢٦٣ .

١٩٣- ٣ / ٢٧١ .

١٩٤- ١ / ٢٣٦ . وساقى الحجيج هو العباس ، رضى الله عنه . وقد تكررت الإشارة إليه فى الديوان بهذه الصفة . انظر مثلا ١ / ٢٥٧ ، ٣٣١ ، و ٢ / ٢٩٩ .

١٩٥- ١ / ٣٧٩ . وأبو الفضل : هو العباس ، رضى الله عنه .

١٩٦- ٣ / ٥٨ . والمقصود عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأبوه هذا هو جعفر الطيار ، رضى الله عنهما .

١٩٧- ٣ / ٢٨٤ . والإشارة إلى عبد الله بن العباس ، رضى الله عنه .

١٩٨- ٣ / ٢٨٥ .

١٩٩- ٣ / ٢٥١ . وصاحبا النبى عليه السلام هما بطبيعة الحال أبو بكر وعمر ، رضى الله عنهما .

٢٠٠- « على » هنا هو على بن عبد الله بن العباس ، جدّ المهدى .

٢٠١- الديوان / ٣ / ٢٨٤ .

٢٠٢- ١ / ٢٤٨ .

٢٠٣- ٤ / ٦١ .

٢٠٤- ٣ / ٢٣٢ .

٢٠٥- ٤ / ٦٦ .

٢٠٦- ١ / ٢٨٧ .

٢٠٧- ٢ / ٢٥٩ .

٢٠٨- ١ / ٢٣٩ .

٢٠٩- ٢ / ٢٦١ .

٢١٠- ٣ / ١٩ .

٢١١- الأرعن : الجيش الكثيف .

٢١٢- الديوان / ٣ / ٤١ .

٢١٣- ٣ / ٨٢ .

٢١٤- ٣ / ٢٢٣ .

٢١٥- ٣ / ٢٦١ .

٢١٦- ٢ / ٢٤١ .

٢١٧- ٢ / ١٢٣ . والقِماح : ظمأ الإبل مع وجود الماء أمامها ، ولكنها لعلةٍ فيها لا تستطيع شربه .

٢١٨- ٣ / ٩٥ . و« أوثر » : هل هى « آثر » ؟ أم هل هى « يؤثر » ؟

٢١٩- ٢ / ٩٦ .

٢٢٠- ٣ / ٩٩ .

٢٢١- ٣ / ١٢٣ . وزمع : مشى بطء .

٢٢٢- ٤ / ١٣٦ .

٢٢٣- ٤ / ١١١ . والموُق : الحمق والغباء .

٢٢٤- ١ / ١٥٤ .

٢٢٥- ١ / ٣٨٠ . وانظر المستشرق بيستون (Beaston) فى كتابه « Selections from the Poetry of Bssar » (Cambridge University Press, 1977, p.5) ، حيث يبرز دعوى بشار فى هذه القصيدة أن الفرس لا العرب هم المتمسكون الحقيقيون بالإسلام ، إذ إنهم هم القوة الرئيسية التى أزالت ملك بنى أمية ، أعداء الدين فى نظره .

٢٢٦- ٣ / ٢٥١ .

٢٢٧- حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / ٣٧٤ .

٢٢٨- د . محمد نبيه حجاب / معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٢ / ١٩٧٣ م / ١٣٦ .

٢٢٩- الأغانى / ٣ / ١٥٨ - ١٥٩ .

٢٣٠- السابق / ٣ / ١٥٩ .

٢٣١ - نفسه / ٣ / ٢١٧ - ٢١٨ .

٢٣٢- انظر القصيدة فى الديوان / ٤ / ١٥٦ - ١٦١ .

٢٣٣- انظر الديوان / ١ / ١٣٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، و ٢ / ١٠٨ ، ١٩٠ - ١٩١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، و ٣ / ١٤ مثلاً .

٢٣٤- انظر الديوان ١ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٣٦٧ ، و ٣ / ١١٤ ، ١٢٤ ، ٢٥٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ مثلاً .

٢٣٥- انظر الديوان / ٢ / ٤١ ، ٥٤ مثلا .

٢٣٦- انظر الديوان / ٢ / ٣٠ ، ١٢٧ ، ١٧٤ ، ٢٠٦ مثلا .

٢٣٧- انظر الديوان / ٢ / ١٥٦ ، ٢٧٢ .

٢٣٨- ٣ / ٢٨٣ .

٢٣٩- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٨٨ - ١٨٩ .

٢٤٠- السابق / ٣ / ٢٢٢ .

٢٤١- السابق / ٣ / ٢٣٠ - ٢٣١ .

٢٤٢- موسى هو الهادى ابن الخليفة المهدى .

٢٤٣- انظر « الأغانى » / ٣ / ٢٣٩ - ٢٥٠ .

٢٤٤- انظر مقدمة الديوان / ١ / ٢٨ .

٢٤٥- انظر د . يوسف الصميلى / بشار بن برد - شخصيته ومنهجه الشعرى / دار الوحدة / بيروت / ٣٥ .

٢٤٦- انظر الديوان / ٢ / ٤٥ - ٤٦ ، ٢٧٧ ومابعدها .

٢٤٧- انظر د . محمد النويهى / شخصية بشار / ١٤١ .

٢٤٨- انظر فى وفاة الأولين « الأعلام » للزركلى ، وفى وفاة سوار « الكامل » لابن الأثير / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ٣ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م / ٥ / ٤١ .

٢٤٩- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٨٢ .

٢٥٠- شخصية بشار / ١٤١ .

٢٥١- وانظر كذلك د . أحمد كمال زكى / الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى / دار المعارف / ٤٧٧ ، حيث يأخذ كلام صاحب « الأغانى » على ظاهره .

بشار والشعوبية

الشائع أن بشارا متلوّن فى ولائه : لأنهم رأوه يفتخر مرة بولائه فى بنى عقيل فيقول :

إننى من بنى عقيل بن كعب ... موضع السيف من طُلَى الأعناقِ

ومرة بولائه فى قيس :

أمِنْتُ مضرة الفحشاء أنى ... أرى قيسًا تَضُرّ ولا تُضارُ
كأن الناس حين تغيب عنهم ... نبات الأرض أخطأه القِطارُ
وقد كانت بتدمُرَ خيلُ قيس ... فكان لتدمرِ فيها دمارُ
بحىٍّ من بنى عيلانَ شُوسٍ ... يسير الموت حيث يقال : ساروا
وما نلقاهمو إلا صَدَرْنا ... بِرِىّ منهمو وهمو حِرارُ

ومرة يتبرأ من العرب فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال ، وبعضهم ... مولى العُرَيْبِ ، فخذ بفضلك فافْخَرِ
مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المَشْعَرِ
فارجع إلى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الأجلّ الأكبر (١)

ورابعة يهاجم الأعراب هجومًا قاصفًا عاصفًا فينشىء فيهم على البديهة رائيته الصاعقة الماحقة ، وذلك فى مجلس مجزأة بن ثور السدوسى الذى كان ينشد فيه الحاضرين شعرًا ، وإذا ببدوى عنجهىّ يقتحم المجلس ويبدى استصغاره لبشار وشعره بعدما عرف أنه من الموالى . وهى القصيدة التى يقول فيها :

سأخبر فاخر الأعرب عنّى ... وعنه حين تأذن بالفخارِ
أحين كُسيتَ بعد العُرْى خَزًّا ... ونادمتَ الكرام على العُقَارِ
تُفاخر يا ابن راعيةٍ وراع ... بنى الأحرار ؟ حسبُك من خسار
وكنتَ إذا ظمئت إلى قراح ... شركْتَ الكلب فى وَلْغ الإطارِ
تُريغ بخطبةٍ كسر الموالى ... ويُنسيك المكارمَ صيدُ فار (٢)

وخامسةً يقول :

ونُبِّئتُ قومًا بهم جِنّةٌ ... يقولون : « من ذا ؟ » وكنتُ العَلَمْ
ألا أيها السائلى جاهدا ... ليعرفنى ، أنا أنفُ الكرم
نَمَتْ فى الكرام بنى عامر ... فروعى ، وأصلى قريشُ العجم

فيفتخر بأصله الأعجمى وبمرباه فى بنى عامر وولائه فيهم ، جامعًا بهذه الطريقة الفخر بالعجم والعرب معًا (٣) ... وهكذا .

والحقيقة أن بشارًا كان يعتز بولائه فى بنى عقيل ، ولا نعرف أنه انقلب فغض من شأنهم قطّ . كذلك فرائيته التى صكّ بها وجه الأعرابى الأحمق المتغطرس وأنفه وعينيه ليست موجهة إلى العرب (٤) ، بل إلى الأعراب الذين يمثلهم ذلك البدوى . وبشار يقول بصريح اللفظ : « سأخبر فاخر الأعراب » . ويقول أيضا فى نفس القصيدة : « يا ابن راعية وراع » . وكل العيوب التى شنع عليه بها إنما هى عادات الأعراب فى طعامهم وشرابهم ، وليست عادات العرب كلهم . وهذا أمر معروف لا يحتاج إلى فضل إيضاح . ويؤكد هذا أن مجزأة بن ثور السدوسى صاحب البيت الذى كان القوم مجتمعين فيه يستمعون إلى شعر بشّار لم يشعر أن الكلام موجّه إلى العرب جميعًا ، وإلا لكان (وهو واحد من العرب) قد غضب وأخذته الحمية وشتم بشارا وطرده ، بل لما سمح له من البداية حين استأذنه أن يرد على ذلك الأعرابى . وإن تعليق مجزأة على قصيدة بشار التى صبّها كالنحاس المذاب على رأس البدوى المتعجرف ليغنى عن كل كلام ، إذ قال لذلك الأعرابى : « قبّحك الله ! فأنت كسبت هذا الشرّ لنفسك ولأمثالك » (٥) . فانظر كيف ضيّق دائرة من يشملهم هجاء بشار فجعلها لا تضم إلا هذا الأعرابى المعتدى وأمثاله . وعلى أية حال ، فبشار فى هذه القصيدة إنما يدافع عن نفسه . وليس على المنتصف بعد ظلمه من سبيل . ولا شك أن اعتراض هذا البدوى الجلف يدل على ضيق أفق ذميم وغباء ما بعده غباء (٦) . لقد خدم بشار وغيره من الموالى من الشعراء والكتاب لغة القرآن الكريم خدمة جليلة ونفخوا فى حياتها

أنفاسًا عطرة ، فما معنى الاستهانة بأقدارهم ومواهبهم والغض منهم ومن جهودهم ؟

ثم حتى لو كان بشار افتخر بأصله الأعجمى دون أن يثيره أحد أو يعتدى عليه فلا أظن أن عليه فى ذلك من بأس ، فقد كان العرب يفتخرون ابتداءً ، دون أن يهيجهم أحد ، بعروبتهم وماضيهم الجاهلى فلا ينكر عليهم ذلك منكر ، فلم ينبغى الإنكار على الأعجمى إن سلك هذا السبيل ؟ لقد كان من الأفضل بطبيعة الحال ألا ينزلق المسلمون إلى هذا . أمّا وقد تسومح مع العرب فيه فليتسامح مع الموالى أيضا ، فليس أولئك أفضل من هؤلاء ، بل الجميع بشر وعبادٌ للمولى الأكبر جل وعلا . ولسنا بهذا ننصر الأعاجم على العرب . لا ، بل نحن نحاول أن ننظر إلى الأمر نظرة عادلة منصفة . ونحن بعدُ مسلمون نعتز بديننا وبكتابه الذى نزل بلسان عربى مبين ورسوله العربى الكريم ، ونعرف للعرب الأوائل فضلهم العظيم فى حمل رسالة الإسلام ونشرها شرقًا وغربا ، والتضحية بالنفس والولد والنفيس فى هذا السبيل . ولكننا لا نوافقهم إذا رأينا أنهم قد سهوا عن شىء من مبادىء الإسلام .

على أن هناك من يأخذ على بشار أنه كان ساكتا مطأطئا رأسه أيام دولة بنى أمية فلم ينبس بكلمة عن أصله الأعجمى بل كان يفتخر بالعرب وحدهم ، ثم لما قامت دولة بنى العباس نفض عن نفسه ذلك وأبدى خبيئة ضميره فانقلب على العرب وعلا صوته بالتمدح بأعجميته . والحقيقة أن الذى روى رائية بشار المتقدمة وعلق عليها هو أبو عبد الله المقرىء الجحدرى الذى كان يقرأ فى المسجد الجامع للبصرة (٧) ، وهو ما يجعل من الممكن ، نظريًا على الأقل ، أن تكون تلك الحادثة قد وقعت أيام أن كان بشار يعيش فى البصرة فى عصر بنى أميّة ، فراويها رجل من أهل البصرة ، وفى القصة مجزأة بن ثور السدوسى ، وكونه من سدوس ربما دلّ على أنها حدثت عندما كان بشار يسكن إلى جوار بنى سدوس وبنى عقيل فى البصرة (٨) ، فإن واصل بن عطاء عندما أعلن ضيق ذرعه به (وواصل مات سنة ١٣٠هـ ، كما بينت فى موضع

آخر من هذه الدراسة ، أى فى العصر الأموى) قال ما معناه أنه لولا عدم رضاه عن أسلوب الغيلة فى التخلص من الخصوم لدسّ إليه من يقتله وهو فى قلب داره ولكان من يقوم بهذا الأمر واحدًا من بنى عقيل أو من بنى سدوس (٩) ، أى واحدًا من الذين ينزل بشار بينهم فى البصرة ويمت إليهم بصلة الولاء (١٠) . وقد حاولت أن أعرف شيئا عن مجزأة بن ثور هذا ومتى مات لأصل من ذلك إلى أن أحدد بالضبط متى قيلت هذه القصيدة وهل كان ذلك فى العصر الأموى فعلاً أو فى العصر العباسى ، ولكنى لم أعثر فى كل ما رجعت إليه من كتب التراجم والتاريخ إلا على مجزأة بن ثور الصحابى ، وهو سدوسى أيضا .

وفى « الأغانى » أن رجلاً شريفا من بنى زيد قد جاء إلى بشار وعنّفه قائلاً له : « لقد أفسدت علينا موالينا . تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغّبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل » ، فرد عليه بشار هذا الرّد العنيف الملتهب : « والله لَأصلى أكرم من الذهب ، ولَفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يودّ أن نسبك له بنسبه . ولو شئت أن أجعل جواب كلامك كلاما لفعلتُ ، لكن موعدك غدًا بالمربد » ، فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشارا يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فوجد رجلاً ينشد هذا الشعر لبشار فيه وفى قومه :

شهدتُ على الزيدى أن نساءه   ضياع إلى أير العقيلى تزفرُ

...

بلَوْتُ بنى زيد فما فى كبارهم   حلوم ولا فى الأصغرين مُطَهَّرُ

...

أجدّهمو لا يتقون دنية   ولا يؤثرون الحقّ والخير يُؤْثَرُ

...

يريدون مسعاتى ودون لقائهم   قناديل أبواب السماوات تَزْهَرُ

ويقولون إن ذلك الزيدي رجع من فوره إلى بيته ولم يدخل المربد حتى مات (١١) .

والذى أحب أن ألفت الانتباه إليه هو أن بشارا قد واعد الرجل المربد وأُنشدت قصيدته فيه فى ذلك السوق فى اليوم التالى ، أى أنه كان حينئذ فى البصرة . بيد أننا لا ندرى أكان ذلك فى العصر الأموى أم بعد قيام الدولة العباسية . ذلك أن بشارًا عاد إلى البصرة وعاش فيها أواخر العصر الأموي وصدر الدولة العباسية قبل أن ينتقل إلى بغداد (١٢) .

وقصيدته الميمية التى أوردنا منها الأبيات التى يقول فيها :

نمتْ فى الكرام بنى عامر   فروعى ، وأصلى قريش العجم

وإن كان قد قالها فى عصر بنى العباس (فى تضاعيف مديحه لعمر بن العلاء أحد قواد المنصور) فإنه لا يهاجم فيها العرب رغم تمدحه بأصله الأعجمى ، بل بالعكس يجمع بين فخره بهم وفخره بالأعاجم كما هو بيّن ظاهر . بل إنه حين أراد التمجيد من شأن القوم الأعاجم الذين انتسب إليهم نراه قد شبههم بقريش فى العرب ، مما يدلّ على أنه يجعل العرب أصلا يقيس عليهم قومه ، أى أنه كما فى العرب قريش فكذلك للأعاجم قريشهم أيضًا .

ثم انتهى الأمر إلى أن رفع صوته مجلجلاً بهذه القصيدة التى يقول فيها مشهدًا العرب على ما يقول :

هل من رسول مخبر   عنى جميع العربِ
من كان حيا منهمو   ومن ثوى فى التُّربِ
بأننى ذو حسب   عالٍ على ذى الحسب ؟
جدّى الذى أسمو به   كسرى ، وساسانُ أبى
وقيصرٌ خالى إذا   عددتُ يومًا نسبى
...
ولا حدا قطُّ أبى   خلف بعير أجرب

ولا أتى حنظلة   يثقبها من سغب
...
ولا شوينا ورلا   منضنضا بالذَّنَبِ
ولا تقصّعْتُ ولا   أكلتُ ضبّ الحِزَبِ
... إلخ .

وقد تساءل د. سيد حنفى حسنين قائلاً : هل كان من الممكن أن يقول بشار والدولة الأموية بعصبيتها العربية :

هل من رسول مخبر   عنى جميع العرب ... إلخ ؟ (١٣)

والحقيقة أننا فى حالة بشار لا نستطيع أن نجزم جزما بشيء فى الجواب على هذا السؤال . لكن حتى لو كانت الإجابة بالنفى فما على بشار وأمثاله من حرج إن هم ردّوا أيام العباسيين بالافتخار على العرب الذين كثيرا ما شمخوا عليهم واستطالوا فى عهد بنى أمية (١٤) .

الهوامش

١- انظر فى ذلك « الأغانى » / ٣ / ١٣٩ .

٢- الأغانى / ٣ / ١٦٦ .

٣- السابق / ٣ / ١٣٨ .

٤- على عكس ما جاء مثلا فى كتاب د . مصطفى الشكعة « الشعر والشعراء فى العصر العباسى » / ٢٥ .

٥- الأغانى / ٣ / ١٦٧ .

٦- وهناك قصيدة أخرى ، ولكن أصغر من هذه ، قيلت فى ظروف تشبه ظروف إنشاء هذه القصيدة ، ولنفس الغرض ، إذ إن إعرابية قد افتخرت على ابنة بشار ، فما كان من بشار إلا أن امتشق حسام شعره وانهال به على الأعراب . وهى القصيدة الدالية الموجودة فى الجزء الثالث من الديوان / ص ١٥١ .

٧- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٦٦ .

٨- الأغانى / ٣ / ٢١٠ .

٩- نفسه / ٣ / ١٤٦ .

١٠- نفسه / ٣ / ١٣٦ - ١٣٧ .

١١- انظر القصة والشعر فى « الأغانى » / ٣ / ٢٠٤ .

١٢- انظر د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / ٢٠٢ .

١٣- انظر كتابه « بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق » / ١٤١ .

١٤ . ومع ذلك فقد رفع إسماعيل بن يسار صوته مفاخرا بأصله الأعجمى أيام بنى أمية . كما أن بعض الشعراء من ذوى الخؤولة الأعجمية قد تمدّحوا آنذاك بهذه الخؤولة . بل إن جريرًا قد مدح الموالى فى بعض أشعاره مدحًا شديدا (انظر د . شوقى ضيف / العصر الإسلامى / دار المعارف / ط ٧ / ٢١٢ - ٢١٤) .

الملامح الفنية لشعر بشار

سمات الغزل عنده

لكل شاعر أو أديب أسلوبه الفنى الخاص الذى يتميز بملامحه ألفاظا وعبارات وتراكيب وصورًا ومعانى . وهذا التميز يتمثل فى جمّاع هذه الملامح ، إذ ما أكثر أن يتكرر فى أسلوب أديب أو شاعر آخر هذا اللفظ أو ذلك التركيب مثلاً ، بيد أن العبرة باجتماع هذه الملامح كلها معًا . ويمكن تمثيل ذلك بمعارف الوجه فى الإنسان ، فإنه من المستحيل أن ينفرد شخص بشكل عينيه فلا تشاركهما فى ذلك عينا إنسان آخر ، أو بلون بشرته أو شعره أو الندبة التى على يمين أنفه أو قلع أسنانه أو الغضون التى على جبهته .. ولكن الذى يميّزه هو التركيبة الناشئة من تجمع كل هذه الملامح فى وجه واحد على ذلك النحو .

وقد لاحظت عددًا من السمات اللفظية والتصويرية فى شعر بشار :

من ذلك استعماله عددا من المرات فى غزله كلمة « دسّ » ، كما فى الأبيات التالية :

أشتهى أن أدسَّ قبلك فى التُّرْ ... ب لكى تصبحى بنا كالمصابه (١)

* * *

دسَّت إلىّ البنان تخبرنى ... عنها فمنّى وربما كذبا (٢)

* * *

ودسَّت فى الكتاب إلىّ : إنى ... - وقيتك - لو أرى خللا مضيتُ (٣)

* * *

دسستُ إليها منطقى ، وكسوتها ... مناسب مثل الوشى بالحِبَرَاتِ (٤)

* * *

دسستُ إليها أيا مجلّز ... وأى فتى إن أصاب اعتزم (٥)

* * *

أبدلنـــا اللـــه بـــه غيـــره ... ودسّ فـــى حِـــرِ الخيـــزران (٦)

ومما تكرر عنده فى شعره الغزلى أيضا، ولكن على نحو أوسع ، كلمة « مِجْسَد » وجمعها « مجاسد » . والمجسد نوع من الملابس النسائية ذو يدين على هيئة الجسد ومصبوغ بالزعفران ، كانت النساء يلبسنه فى تلك العصور . وهو يستعمل هذه الكلمة فى سياق التغزل بحبيباته عادة :

زيـــن المجاســـد ، مثلهـــا ... يُشْفَــى بــه ضِغْـــنُ القلـــوب (٧)

* * *

كالشمـس ، إن برقـت مجاسدهـــا ... تحكـى لنـا الياقـوت والذهبـــا (٨)

* * *

فـــى مجسديهـــا ظبـــى بريّـــةٍ ... قلبى عليهـــا هالـك مستميتْ (٩)

* * *

شربتُ بكـأس العاشقيـن ، وزارنـــى ... هـلال عليـه مجسـد وعقـودُ (١٠)

* * *

بينـــا كـــذا إذ برقـت برقـــة ... بيـــن رداء الخـــزّ والمجســـدِ (١١)

* * *

هـى بدر السماء ، لا بل هـى الشمـ ... ـس تدلّـت فـى مذْهبِ وجِسادِ (١٢)

* * *

حـــور أوانـــس كالدمـــى ... أو كالأهلـة فـــى المجاســـدْ (١٣)

* * *

لعـوب بألبـــاب الرجـــال ، كأنهـــا ... إذا سفرت بدرٌ بـدا فـى المجاسد (١٤)

* * *

فلمـــا اشتكـت حَرّ السموم وأهلهـــا ... قريب وملّت مشيهـا فـى المجاسدِ (١٥)

* * *

تعادي [illegible] وتمشي فى مجاسدهـــا ... كأنها صنم فـى الحـىّ معمــودُ (١٦)

* * *

من بنـى مالـك بـن وهبـان كالشـــا ... دن جلّـى فـى مجســد وعقـود (١٧)

* * *

وصفـت مجاسدُهـــا روادفَ نعمـــة ... ومهفهفـا قلـق الوشـاح خضيدا (١٨)

* * *

وإذا غـــدوتَ ذكرتـــــه ... وبـــدت لعينـك فـــى المجاسـد (١٩)

* * *

ذهـــوب بألبـــاب الرجـال كأنهـــا ... إذا بـرزت بَرْديّةٌ فـــى المجاسـدِ (٢٠)

* * *

جنّيـة الحسـن ، لا بل فـى مجاسدهـا ... ما لم تر العيـن بين الجن والبشـرِ (٢١)

* * *

وعـــروس يشـرب فـى المجاسد والحِبَـا ... أيـام فضلُ جمالهـــا مذكـــورُ (٢٢)

ولا ندرى بالضبط لماذا تكرر ذكر « المجسد » فى غزل بشار على هذا النحو اللافت للنظر ، والرجل كفيف تستوى عنده الملابس جميعا . أتراه كان هو التقليعة فى ملابس النساء فى ذلك العصر ورأى بشار الناس يكثرون من ذكر هذه اللفظة فأعجبته وأكثر من إدخالها فى شعره ليكون عصريا مثلا ؟ لكن هل تشيع هذه الكلمة فى شعر المعاصرين له ؟

أيًّا ما يكن الأمر فهناك كلمة أخرى تدل على نوع آخر من الملابس تتكرر فى شعر بشار الغزلى رغم أنها ليست مـن الألفـــاظ الشائعة فى شعر الشعراء لا قديما ولا حديثًا ، وهـى كلمـة « قرقـر » . و « القرقـر » (وبعضهم يـرى أن الصواب « قرقل ») هو ثوب نسائى لا كمّين له :

أنَسِيتُ قرقـر العفـاف وفـى العَيْـــ ... ـــن دواءٌ للناظريـــــن وداءْ (٢٣)

* * *

وآخر عهد لى بها يوم أقبلت   تهادى عليها قرقرٌ ورداهْ (٢٤)

* * *

كأن فى قرقرٍ تضمَّنها   سفرجلا طيّبا وتفاحا (٢٥)

* * *

إذا واجهتها يومًا   تجرّ القرقر الحبْرا (٢٦)

* * *

تُعفَى أثرى عمدا   بجرّ المِرْط والقرقر (٢٧)

ويكثر عنده وصف الحبيبة بضخامة الأرداف وثقلها ومن ثم بطء حركتها ، وإن كانت مع ذلك هضيمة الحشا :

سلمى ثَقال الردف مهضومة   يأبى سواها قلبى الخالبُ (٢٨)

* * *

وثَقال الأرداف مهضومة الكشح   كغصن الريحان يهتزّ رطبا (٢٩)

* * *

كأنها قمر رابٍ روادفه   عذب الثنايا بدا فى عينه دَعَجُ (٣٠)

* * *

بَرِحتْ بأتلع فى قلائده   وغدت تهزّ روادفا رُجُحا (٣١)

* * *

مبتّلةٌ فخمةٌ فعمةٌ   هضيم الكشح بُوصُها أرْجَحُ (٣٢)

* * *

ريا الروادف ملواحٌ منعّمة   يا حبذا كل ريا الردف ملواح ! (٣٣)

* * *

فأعطيتُها كفّ الصفاء فأعرضت   ثقيلة أدعاص الروادف رودُ (٣٤)

* * *

تكاد إذا قامت لشىء تريده   تميل بها الأرداف ما لم تَشَدَّدِ (٣٥)

* * *

رُجُح الروادف والشَّوَى   لا يأتزرن على الرفائد (٣٦)

* * *

وثقيلة الأرداف مُخْطَفة الحشا   مثل الغزالة مقلتين وجيدا (٣٧)

* * *

وثقال إذا راحت ، كسول إذا غدت   وتمشى الهوينى حين تمشى تأودا (٣٨)

* * *

عجزاء من نسوة منعّمة   هيفٍ ثقالٍ أردافُها خُرُدِ (٣٩)

* * *

وثقال الأعجاز قطّعن قلبى   بحديث لذٍّ ودهرٍ قصير (٤٠)

* * *

رُجُح الروادف كالظبا   ء تعرّضتْ حُوًا وطُفا (٤١)

وبالمناسبة ، فقد كان هذا هو ذوق العرب فى الجمال النسائى فى القديم . وما أكثر ما وصف الشعراء ضخامة أرداف المرأة التى يتغزلون فيها .

وهناك بيت آخر بنفس المعنى والصورة الموجودين فى الشاهد الثانى من هذه الشواهد، ونصه :

قامت لتركب فارتجت روادفها   فى لين غصن من الريحان منآد

ظن د. عبدالفتاح صالح نافع أن الشاعر يشبه فيه أرداف المرأة بغصن الريحان ، ورأى فى ذلك خروجا على المألوف ، لأن الشعراء إنما يشبّهون بالغصن قوام المرأة لا روادفها (٤٢) . لكن الحقيقة أن بشارا لم يخرج على مألوف الشعراء العرب ، فهو يقول إن أردافها ترتجُّ فى الوقت الذى يأود فيه قوامها مثل غصن الريحان .

هذا، وقد نقل البروفسور بيستون البيت الثالث من الشواهد المارّة هنا كالتالى :

كأنها قمر رابٍ روافده   عذب الثنايا بدا فى عينيه دَعَجُ

باستبدال كلمة « روافده » بـ « روادفه » (٤٣) ، مع أنه ينقل عن نفس المصدر الذى

أنقل منه . ويبدو لى أن الأمر مرجعه إلى السهو . على أن هذا ليس بيت القصيد، بل المهم أنه ترجم البيت هكذا : " She is like a moon full-rounded , sweet of smile and black of eye " (٤٤) ، ثم علق عليه مفسرًا « راب روافده » بـ " with swelling butttocks " ، أى « ضخم الأرداف » . وهذا فعلاً ما عناه الشاعر ، كما هو واضح . إلا أن البروفسور بيستون قد زاد فقال إن عبارة « راب روافده » تعنى « البدر » ، وإن « البدر » صورة عربية لوصف الوجه الجميل (٤٥) . وهذا إغراق فى النزع وإخطاء للرميّة تمامًا ، فمراد الشاعر أن حبيبته ذات وجه مشرق كالقمر ، وتتمتع بأرداف ثقال ضخام . هذا كل ما هنالك . أمّا التفسير الذى أتى به المستشرق فقد جرّته إليه قراءته البيت خطأً فيما يبدو .

كما يكثر عند بشار وصف المرأة بأنها « حوراء » . وهو هنا أيضا يجرى على الذوق العربى القديم . قال :

حوراء كانت هوى نفسى ومنيتها ... لو قرّب الدهرُ من لُقْيانها أمدا (٤٦)

* * *

حورٌ أوانس كالدمى ... أو كالأهلة فى المجاسدْ (٤٧)

* * *

وجَوارٍ حور المدامع لذّا ... ت الأمانى كالنظم نظم الفريد (٤٨)

* * *

أحْورُ عبّى لنا حبائله ... بالحسن ، لا بالرُّقَى ولا العُقَدِ (٤٩)

* * *

ظلت على قلبها الحوراءُ ممسكةً ... من ظاعنٍ حرّك الأحشاء والكبدا (٥٠)

* * *

أفالآن إذ مالت إليها صبابتى ... أُعزَّى عن الحوراء ذات المجاسدِ ؟ (٥١)

* * *

لا تحسبنّى كمن تجرى مدامعه ... من الوعيد مع الحور الرعاديد (٥٢)

* * *

حوراء كالريم أعلاها ، إذا خرجت ... تهتزّ فى كَفَلٍ كالدّعص مَرْمارِ (٥٣)

* * *

حوراء ، فى مقلتيها حين تبصرها ... سحرٌ من الحسن لا من سحر سحّارِ (٥٤)

* * *

الشمس تدنو ولا تصطاد ناظرها ... ولو بدت هى صادت كلَّ نظّارِ (٥٥)

* * *

وأحور محسودٍ على حسن وجهه ... يزين السموطَ نَحْرُه وترائبُه (٥٦)

* * *

وحوراء من حور الجنان غريرة ... يرى وَجْهَهُ فى وجهها كلُّ ناظرِ (٥٧)

* * *

جوراء جاءت من الفردوس مقبلةً ... فالشمس طلعتها والمسك رياها (٥٨)

وهو يسمّى النساء اللاتى يتعلق بهن بـ « الأوانس » (أو « الآنسات ») و « الغوانى » (أو « الغانيات » ، أى اللاتى بلغ من جمالهن أنهن يستغنين عن أى حليةٍ أو زينة) :

وأقعدنى عن الغُرّ الغوانى ... وقد ناديتُ ، لو سُمع النداءُ (٥٩)

* * *

هجرتُ الآنسات وهن عندى ... كماء العين ، فقدهما سواء (٦٠)

* * *

فقل للغانيات يَقَرْنَ ، إنى ... وَقَرْتُ وحان من غزلى انتهاءُ (٦١)

* * *

إن الغوانىَ لا يُغْنين مسألة ... ولا ترى مثل ما يسلبننا سَلْبا (٦٢)

* * *

حورٌ أوانس كالدمى   أو كالأهلة فى المجاسد (٦٣)

* * *

أنى شبابك قد مضى محمودا   ودع الغوانى إن أردن صدودا (٦٤)

* * *

أعادك طيفُها وبما يعودُ   وحب الغانيات جوًى يؤودُ (٦٥)

* * *

لم أقصر عن الأوانس حتى   مسّنى من عُبَيْدَةَ التسهيدُ (٦٦)

* * *

ثم بذلتُ صفحتى للغوانى   كل شىء إلى بِلًى مردودُ (٦٧)

* * *

لو ان الغانيات ملكن قلبى   لكان محلّ عبدة فى السّوادِ (٦٨)

* * *

فحسبى من مهازلة الغوانى   ومن كأس لسورتها فسادُ (٦٩)

* * *

يقول إذا راح الأوانسُ حُيّضا :   فديتُ خليلا لا يحيض ولا يلدْ (٧٠)

* * *

ورغبتُ عن أُنس الأوانس تجتنى   طُرَفَ الهوى وبعينهنّ قميرُ (٧١)

* * *

صدتُ الأوانس كالدمى   وسقيتُهن الخمر صرفا (٧٢)

* * *

فلا يحسب البيض الأوانس أن فى   فؤادى سوى سُعْدى لغانيةٍ فَضْلا (٧٣)

* * *

نهانى أمير المؤمنين عن الصّبا   فدون الغوانى عَوْمَةٌ لا أعومُها (٧٤)

كذلك فـ «السُّهاد» و «الأرق» والتقلب على «الوساد» من الألفاظ

والمعانى التى تبرز فى غزل بشار :

فتقلبتُ ساهرا   مقشعرّ الذوائبِ (٧٥)

* * *

أهْدَى لعينى ذكركم سَهَدًا   من غير ما سقم ولا طبّ (٧٦)

* * *

أقاسى بكِ تسهيدًا   ولو أستطيع حولتُه (٧٧)

* * *

بل كيف يحمل طولَ ليلته   قلقُ الوساد يبيت مُجْتنِحا ؟ (٧٨)

* * *

أرقى لشخص ما يفارقنى   ويحبه قلبى وإن نزحا (٧٩)

* * *

لقد هاج دمعى نازح بنزوحه   ونومى إذا ما نوّم الناس أنزحُ (٨٠)

* * *

أمسكتِ شُقّة نفسه فأذاعها   وبخلتِ فاتخذ الهموم وسادا (٨١)

* * *

يا شوقها لفراقنا   وتقلبى فوق الوسائدْ (٨٢)

* * *

ولا صاحبٌ أشكو إليه فأشتفى   إذا ما شكا رأسى مكان الوسائدِ (٨٣)

* * *

قطعْتِ الليالى فى هجره   رقادا ، ويقطعها ساهدا (٨٤)

* * *

لم أقصر عن الأوانس حتى   مسّنى من عبيدة التسهيدُ (٨٥)

* * *

كأنى من هواكِ أخو فراشٍ   يفوق بنفسه قلقُ الوسادِ (٨٦)

* * *

فآلى على الهجر الرقادُ ، ولم تزل   نجيّا لضيفان الهموم مسهّدا (٨٧)

* * *

أشادن ، قد مضى ليل وليل   أكابده وقد قلق الوسادُ (٨٨)

* * *

فبات هَجُورا للوساد ، وقد يرى   على ما بعينيه مكان الوسائدِ (٨٩)

* * *

وكيف يُغْفى قلقُ الوساد   ، جن عليه الليلُ بالسهادِ ؟ (٩٠)

* * *

نبا بكَ خلف الظاعنين وسادُ   ومالك إلا راحتيك عمادُ

لخدك من كفيك فى كل ليلة   إلى أن ترى وجه الصباح وسادُ (٩١)

* * *

لم أسهد من المراح ، ولكن   طال ليلى بها وكان قصيرا (٩٢)

وكذلك لفظا « الكآبة » و « الكمد » :

أبِيتُ وعينى بالدموع رهينة   وأُصبح صبّا والفؤاد كئيب (٩٣)

* * *

فأجرع الصَّوْحِ لا ترْعَى مسارحُه   كلّ المنازل مبثوثٌ بها الكَآبُ (٩٤)

* * *

طرقتنا بالزابيين الربابُ   رُبّ زَوْرٍ عليك منه اكتئابُ (٩٥)

* * *

سألانى وصف ما ألقى ، ولا   أستطيع الوصف . إنى مكتئبْ (٩٦)

* * *

دعنى وسلمى أعش بلذتها   إن ساعفتْ أو أمُتْ من الكمدِ (٩٧)

* * *

نطوى لذاك الزمان نصرفُه   طيبا ، ونَشْفِى به صدى الكَمَدِ (٩٨)

* * *

أفما أنى لك يا عبيدة أن   تشفى أخا الأحزان والكمد ؟ (٩٩)

* * *

وقد شفّنى ألا تزال كليفةً   تصبّنى فيها فأصبح مُكْمَدا (١٠٠)

* * *

سوى شوق عينى إلى وجهها   وأنى إذا فارقتْ أكْمَدُ (١٠١)

الهوامش

١- الديوان / ١ / ١٩٣ .

٢- ١ / ٣٢٥ .

٣- ٢ / ٦ .

٤- ٢ / ٤١ .

٥- ٤ / ١٥٨ .

٦- ٤ / ٢٠٧ .

٧- ١ / ١٧٤ .

٨- ١ / ١٧٦ .

٩- ٢ / ٣٤ .

١٠- ٢ / ١٦٣ .

١١- ٢ / ١٧٥ .

١٢- ٢ / ١٧٩ .

١٣- ٢ / ٢٤٣ .

١٤- ٢ / ٢٥٧ .

١٥- ٢ / ٢٦٣ .

١٦- ٢ / ٢٦٩ .

١٧- ٢ / ٢٧٣ .

١٨- ٢ / ٣٢٨ .

١٩- ٣ / ٤٥ .

٢٠- ٣ / ٧٧ .

٢١- ٣ / ٢٤٦ .

٢٢- ٣ / ٣٠٣ .

٢٣- ١ / ١١٧ .

٢٤- ١ / ١٢٦ .

٢٥- ٢ / ١٥٤ .

٢٦- ٣ / ٢٣٨ .

٢٧- ٣ / ٣٠٤ .

٢٨- ١ / ٢٢٦ .

٢٩- ١ / ٢٨٢ .

٣٠- ٢ / ٧٧ .

٣١- ٢ / ١٠٢ .

٣٢- ٢ / ١٠٩ .

٣٣- ٢ / ١٣٤ .

٣٤- ٢ / ١٦٣ .

٣٥- ٢ / ٢٠٨ .

٣٦- ٢ / ٢٤٣ .

٣٧- ٢ / ٢٦٠ .

٣٨- ٣ / ٣١ .

٣٩- ٣ / ٦٦ .

٤٠- ٣ / ٢٠٥ .

٤١- ٤ / ١٠٨ .

٤٢- انظر كتابه « الصورة فى شعر بشّار » / دار الفكر / عمان / ١٩٨٣ م / ٢٠٢ .

٤٣- انظر « Selections from the Poetry of Baŝŝar » / ص ٦ .

٤٤- السابق / ٣٢ (السطر الأخير) .

٤٥- السابق / ٣٣ (السطران ٦ ، ٧ من أسفل) .

٤٦- ٢ / ١٩٢ .

٤٧- ٢ / ٢٤٣ .

٤٨- ٢ / ٢٧٥ .

٤٩- ٣ / ٦٦ .

٥٠- ٣ / ٦٨ .

٥١- ٣ / ٧٦ .

٥٢- ٣ / ١٥٧ .

٥٣- ٣ / ١٦١ .

٥٤- ٣ / ١٦٧ .

٥٥- ٣ / ١٦٧ .

٥٦- ٤ / ١١ .

٥٧- ٤ / ٨٠ .

٥٨- ٤ / ٢٣٠ .

٥٩- ١ / ١٠٤ .

٦٠- ١ / ١٠٤ .

٦١- ١ / ١٠٤ .

٦٢- ١ / ٣٥٦ .

٦٣- ٢ / ٢٤٣ .

٦٤- ٢ / ٣٢٦ .

٦٥- ٣ / ١٤ .

٦٦- ٣ / ٢٠ .

٦٧- ٣ / ٢٢ .

٦٨- ٣ / ٢٥ .

٦٩- ٣ / ٥١ .

٧٠- ٣ / ١٠٢ .

٧١- ٣ / ٢٩٨ .

٧٢- ٤ / ١٠٩ .

٧٣- ٤ / ١٢٩ .

٧٤- ٤ / ١٨٧ .

٧٥- ١ / ١٦٣ .

٧٦- ١ / ٢١٣ .

٧٧- ٢ / ١٥ .

٧٨- ٢ / ٩٨ .

٧٩- ٢ / ٩٩ .

٨٠- ٢ / ١٠٥ .

٨١- ٢ / ١٦٥ .

٨٢- ٢ / ٢٤٥ .

٨٣- ٢ / ٢٦٤ .

٨٤- ٣ / ٢ . وقد ورد هذا البيت بنفس النص تقريبا فى ٣ / ١٤٨ .

٨٥- ٣ / ٢٠ .

٨٦- ٣ / ٢٢ .

٨٧- ٣ / ٣٢ .

٨٨- ٣ / ٥٠ .

٨٩- ٣ / ٧٦ .

٩٠- ٣ / ٩٢ .

٩١- ٣ / ١٣٥ .

٩٢- ٣ / ٢٣٤ .

٩٣- ١ / ١٧٩ .

٩٤- ١ / ٢٢٩ .

٩٥- ١ / ٣٣٢ .

٩٦- ١ / ٣٤٩ .

٩٧- ٢ / ١٨٣ .

٩٨- ٣ / ٧ .

٩٩- ٣ / ٢٦ .

١٠٠- ٣ / ٥٧ .

١٠١- ٣ / ١٢١ .

التعبير عن الإغراء الجنسى أو العاطفى بلفظ « الصيد »

الإغراء الجنسى والعاطفى هو لون من ألوان المطاردة يحاول المحبّ أن يفوز فيه بقلب حبيبته ويقتنصه . وكثيرا ما يحتاج الأمر إلى الصبر والتخطيط والترصد والتظاهر بعكس ما هو واقع ... إلخ ما يلجأ إليه الصائد للإيقاع بفريسته . وكثيرًا ما عبّر الشعراء عن الأسلوب الذى ينتهجه المحبّ للفوز بقلب حبيبه بلفظ « الصيد » ومشتقاته . من ذلك قول طرفة عن سلمى حبيبته :

وقـد ذهبـتْ سلمـى بعقلـك كلـه   فهل غيـر صيـد أحرزتـه حبائله ؟

وقول امرىء القيس يفتخر بأنه لم يقع صيدا سهلاً فى حبالة « هِرّ » ، التى وقع فيها غيره من الرجال :

وهـرّ تصيـد قلـوب الرجـال   وأفلت منهـا ابـن عمـرو حُجُـر

وعلى عكسه المرقش الأكبر ، الذى يتشكى من أنه يصاد ولا يستطيع الاصطياد :

فمـا بالـى أفِـى ويُخـانُ عهـدى ؟   ومـا بالـى أُصـادُ ولا أصيـد ؟

ويقول عدى بن الرقاع :

يصطـاد يقظـانَ الرجال حديثُهـا   وتطيـر بهجتُهـا بـروح الحالـم

ويقول سُحَيْم :

لهند وأتـرابٍ لـها شَبَـهِ الدمـى   يصدن فمـا ينجـو لهـنّ سليـمُ

ويقول عمر بن أبى ربيعة على لسان إحدى صواحبه :

ليـت المغيـرىَ الـذى لـم نجـزه   فيمـا أطـال تصيُّـدى وطِلابـى

كانـت تـردّ لنـا المنـى أيامنـا   إذ لا تُـلام علـى هـوى وتصابـى

ويقول أيضا :

تـراءت لـى لتقتلنـى   فصادتنـى ولـم أصِـدِ

ويقول جميل :

ولكنما يظفرن بالصيد كلما ... جلون الثنايا الغرّ والأعين النُّجْلا

ويقول القطامى :

وفى الخدور غمامات برقْن لنا ... حتى تصيدْننا من كل مصطادِ

ويقول أعشى همدان مصورا العلاقة بينه وبين الحسناوات على أنها علاقة صيد من كلا الطرفين للآخر :

أصيد الحسان ويصطدننى ... وتعجبنى الكاعبُ المُعْصِرُ

ويصف جرير حبيبته بـ « صائدة القلوب » :

طرقتك صائدةُ القلوب ، وليس ذا ... وقت الزيارة ، فارجعى بسلام

ويقول الوليد بن يزيد :

أضحى فؤادك ، يا وليد ، عميدا ... صبًّا قديما للحسان صيُودا

وليس قليلاً تصوير بشار هو أيضا للحبّ وإغراءاته بألفاظ « الصيد » :

من المتصيدات بكل نَبْلِ ... تسيل إذا مشت سيل الحُبابِ (١)

* * *

أسَدٌ تصيّده غزالٌ شادنٌ ... ما اصطاد قبلك شادنٌ آسادا (٢)

* * *

أبطرف مقلتِك المريضة صدتّه ؟ ... ما إن سمعتُ بمثله مصطادا (٣)

* * *

من حُبّ ظبى صاده ... يا من رأى ظبيا يصيدُ ؟ (٤)

* * *

ونقارسٌ قد زانها ... حَلَقُ غدائرها تصيدُ (٥)

* * *

كالحَلْى حُسْنُ حديثها ... ودلالها إحدى المصايدْ (٦)

* * *

بيضاء كالدرة الزهراء غُرّتها ... تصطاد عينا ولا تُرْجَى لمصطادِ (٧)

* * *

أجِدّكِ لا أنت تدنيننى ... ولا الصيدُ متّبعٌ صائدا (٨)

* * *

غداة يروقه كَفَلٌ نبيل ... وعينٌ فى النقابِ لها صيُودُ (٩)

* * *

أذكرْتُ نفسى عشية الأحدِ ... من زائر صادنى ولم يَصِدِ (١٠)

* * *

لقد صادنى ريمٌ أردت اصطياده ... وما كنتُ لولا ما أردتُ أُصادُ (١١)

* * *

صِدْتُ الأوانس كالدمى ... وسقيتُهن الخمر صِرفا (١٢)

الهوامش

١- ١ / ١٤٩ .

٢- ٢ / ١٦٦ .

٣- ١ / ١٦٨ .

٤- ٢ / ٢١٤ .

٥- ٢ / ٢١٦ .

٦- ٢ / ٢٤٥ .

٧- ٢ / ٣١٩ .

٨- ٣ / ٣ . وقد ورد هذا البيت بنفس النص تقريبا فى ٣ / ١٤٧ .

٩- ٣ / ١٥ .

١٠- ٣ / ٦٥ .

١١- ٣ / ١٣٦ .

١٢- ٤ / ١٠٩ .

لعوب بألباب الرجال

هناك عبارة غزلية تكررت فى شعر بشار أربع مرات على الأقل مع تغيّر الكلمة الأولى فيها ، وهى قوله : « لعوب / شغوف / ذهوب بألباب الرجال » :

لعـــوبٌ بألبـــاب الرجـــال كأنهـــا إذا سَفَرتْ بـدرٌ بدا فــى المجاسدِ (١)

* * *

ذهـــوب بألبـــاب الرجـــال كأنهـــا إذا بــرزتْ برديّـةٌ فــى المجاســد (٢)

* * *

لعــوبٌ بألبـاب الرجــال ، وإن دنـت أُطيـعَ التُقَـى ، والغــىُّ غيْرُ مطاع (٣)

* * *

وجاريـــةٍ يُغْلـــى بأمثالهـــا الفتـــى شغـوف لألبــاب الرجـال فَتــونِ (٤)

الهوامش

١- ٢ / ٢١٠ .

٢- ٣ / ٧٧ .

٣- ٤ / ٩٩ .

٤- ٤ / ٢١٩ ، وإن كان الكلام فى البيت ، على ما بيَّن الشيخ ابن عاشور ، عن القصيدة لا عن جارية من النساء .

الأسود يحرسونها

عبّر بشار فى ثلاثة مواضع على الأقل من شعره الذى بين أيدينا عن صعوبة لقاء الحبيبة ومنعتها بأن ببابها أسودًا يحرسونها فليس بإمكانه من ثمّ الوصول إليها . وفى أحد هذه المواضع نراه قد جعل الأسود من « الجن والسادة » :

عـــاد الغـــداةَ الصـــبَّ عيـــــدُ   فالقلـــــب متبـــول عميـــــدُ

مِـــــنْ حـــب ظبـــى صـــاده   يا مـــن رأى ظبيـــــا يصيـــد ؟

مِـــــنْ حولـــــه حراســـــه   وببابـــــه أســـد مريـــــد (١)

* * *

ودون لقائهـــــــا ليـــــــلاً   أســـود الجـــــن والســـادة (٢)

* * *

ومـــا كـــان إلاَّ لَهْـــوَ يـــوم سرقتُـــــه   إلى فاتر العينين من دونه الأُسَدْ (٣)

الهوامش

١- ٢ / ٢١٤ .

٢- ٣ / ٦٢ .

٣- ٣ / ٦٩ .

الاستشهاد على آلام حبه بنحوله

تضافرت الرويات على ضخامة جثة بشار ، حتى لقد وُصِف مرة بأنه كالجاموس . ومع هذا فقد تجاهل بشار هذه الضخامة فيه وكرّر فى شعره القول بأنه بلغ من النحول بسبب العشق مبلغا عظيما ، ممّا دفع بعض معاصريه إلى السخرية منه والتهكم القارص به . قال له بعضهم تعليقا على البيت الأخير من الأبيات التالية : « ما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم ما حركتك من موضعك ! » (١) . وقال نفر من أصدقائه حينما أنشدهم هذا البيت : « يا ابن الزانية ، تقول ذلك وأنت كأنك فيل ، عرضك أكثر من طولك ! » (٢) .

يا صاح ، لا تسأل بحبى لها   وانظر إلى جِسْمِىَ ثم اعْجَبِ

من ناحل الألواح لو كِلْتَه   فى قلبها مرّ ولم يَنْشَبِ (٣)

* * *

وبرانى الحب حتى   كثُرت فيها نحوبى (٤)

* * *

يأمرون المحب بالصبر عمّن   قد برى الحبُّ جسمه فاستطاحا (٥)

* * *

فى حُلّتى جسم فتى ناحلٍ   لو هبّت الريحُ له طاحا (٦)

الهوامش

١- الأغانى / ٣ / ٢١٤ - ٢١٥ .

٢- السابق / ٣ / ٢٣٣ .

٣- الديوان / ١ / ١٤٦ .

٤- ١ / ٢٢١ .

٥- ٢ / ١٢١ .

٦- ٢ / ١٥٢ .

تميته وتحييه

كثيرًا ما وصف بشار تأثير الحب عليه بأنه الموتُ ، والحبيبة هى قاتلتُه التى تدفنه فى بعض الأحيان حيًا . ولكنه فى بعض الأحيان الأخرى يجعلها محييته . إنها إذن تميته وتحييه : تميته بقسوتها وهجرها وعدم استجابتها لحبه ، وتحييه إذا رضيت عنه أو نولته ريقها . بل إنها إن تنزلت وكلمت ميتا فى نعشه قد مات بالأمس وشبع موتًا فإنه يُبْعَث ويُكتب له الخلود :

نَدَبَـتْ فـى المسلّبـا ... ت قتيـلَ الكواعـبِ (١)

* * *

يغشانـى الموتُ من وَجْدٍ بها دِيَمًا ... والشوق تأخذنـى منه أهاضيبُ (٢)

* * *

لـو متُّ ثـم سقيْتَنـى برُضابـه ... رجعـت حيـاة جنازتى برضابِـهِ (٣)

* * *

أتـى بعـضُ مـا ألقيـ ... ـتِ مـن هجـرى وألقيـتُ

فمـا أمسيـت حتـى صـ ... ـرخ الحـىُّ وسُجّيـتُ (٤)

* * *

قد مـتّ مـن شـوق إلى وجههـا ... ولـو أراهـا فـى منامـى حييتْ (٥)

* * *

دفنْتِنـى حيـا ولا ذنـب لـىْ ... والحـىّ لا يُدفَـنُ حتـى يموتْ (٦)

* * *

ففـؤاده طُـرًا يعيـش بذكرهـا ... ويمـوت حيـن تُظِلُّه الزفـراتُ (٧)

* * *

ولـو اننـى فـى التّـرب ثـم دعوتِنـى ... لبّيْتُ صوتَـكِ والعظـامُ رُفـاتُ (٨)

* * *

عُبَيْدةُ همُّ النفس إن يدن حبُّها وإن تنأ عنها فارق النفسَ رُوحُها (٩)

* * *

ولو تُكَلِّم محمولاً جنازتُه قد مات بالأمس أو ترثى له خَلَدا (١٠)

* * *

يموّتنى شوقى وتحيينى المنى فلستُ بحيّ فى الحياة ولا الرّدِى (١١)

* * *

ما تأمرين لذى عين مؤرّقةٍ قد مات من حبكم يا عبد أو كادا ؟ (١٢)

* * *

ولو وهبتِ لنا يوما نعيش به أحييتِ نَفْسًا وكانت من مساعيكِ (١٣)

الهوامش

١- ١ / ١٦٤ .

٢- ١ / ١٩٤ .

٣- ١ / ٢٨٠ .

٤- ٢ / ١٨ .

٥- ٢ / ٢٢ .

٦- ٢ / ٣٣ .

٧- ٢ / ٣٥ .

٨- ٢ / ٣٦ .

٩- ٢ / ١٤٣ .

١٠- ٢ / ١٩٢ .

١١- ٢ / ٢٠٨ .

١٢- ٣ / ١٤٦ .

١٣- ٤ / ١٢٤ .

الوقوع فى الحب قضاء وقدر

من المواقف التى يشعر فيها الإنسان شعورًا قويا غلاّبا بأنه مسلوب الإرادة مسيَّر ، لا رأى له فى الأمر ولا يستطيع أن يتخذ فيه قرارا ، موقف الحبّ . إن المحبّ فى البداية لا يكاد يشعر بالهوة التى ينزلق إليها . وعندما يبدأ فى التنبّه إلى مشاعره يكون الأمر من اللذة والحلاوة بحيث لا يفكر مطلقًا أن يتوقف ليبصر موضع قدمه . ثم إذا تأزّمت الحال وأخذت الآلام تنتاشه وتبرّح به يكون قد علق فى شباك الهوى على نحوٍ لا يمكنه الخلوص منه ، وعندئذ يتراءى له الأمر وكأنه قدر مبرم لا يستطيع حياله شيئًا . يقول المجنون معبّرا عن هذه الحالة الأليمة اليائسة التى يسميها ابتلاء :

خليلىَّ ، لا والله لا أملك الـ ... ـذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلاً بشىء غير ليلى ابتلانيا ؟

ويقول جميل بثينة :

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابةٍ ... حبيب إليه ، فى ملامته ، رشدى

وقال : أفق . حتى متى أنت هائم ... بثينة ؟ فيها قد تعيد وقد تُبْدى

فقلت له : فيها قضى الله ما ترى ... علىَّ . وهل فيما قضى الله من ردّ ؟

ويقول ابن أبى ربيعة مخاطبًا صاحبته أسماء :

أورثتِنى داءً أخامره ، ... أسماءُ ، بزّ اللحم عن عظمى

لو كنتِ أنت قسمتِ ذاك له ... منّى عليه لجرتِ فى القسْمِ

لكن ربى كان قدّره ... فقضاء ربى أفضل الحكْمِ

ويقول الوليد بن يزيد :

أنتِ همّى يا سليمى ... قد قضاه الربُ حتما

نزلت فى القلب قسرا ... منزلا قد كان يُحْمَى

ثم هذا هو سيد التابعين سعيد بن المسيّب ، فيما يقول جامع بن مُرْخِية

الكلابى ، يفتى بأن المحب لا لوم عليه ولا حرج ، إذ إن الأمر كله خارج عن إرادته . والله لا يكلّف عبده إلا ما استطاعَ إليه سبيلا :

سألتُ سعيد بن المسيّب مفتى الـ ... ـمدينة : هل فى حب ظمياء من وزْرِ ؟

فقال سعيد بن المسيب : إنما ... تُلام على ما تستطيع من الأمر

ولم يتخلف بشار هو أيضًا عن قافلة المحبين الذين يتعللون لما يقاسونه فى حبهم من الهموم وألوان الكرب والشقاء بأنه قضاء وقدر . وهل يُرَدُّ القضاء كما يقول ؟ وهل على المحبّ من ذنب فى أمر قُدِّر عليه أن يشقى به فى سابق الكتب ؟ :

لم تنلها يدى بحولى ، ولكن ... قُضِيَتْ لى . وهل يُرَدُّ القضاءُ ؟ (١)

* * *

وما ذنب مقدورٍ عليه شقاؤه ... من الحب عند الله فى سابق الكُتْبِ ؟ (٢)

* * *

سيقت إلى الشام ، وما ساقها ... إلا الشَّقا والقدرُ الجالبُ (٣)

* * *

لقد كنتُ عن عضّ الصبابة والهوى ... غنيّا ، ولكن المقادير تغلبُ (٤)

* * *

ولو متّ كان الموت خيرا من الشقا ... وما للفتى مما قضى الله مخرجُ (٥)

* * *

وعلى النساء بشاشة ... وأرى الصلاح إلى فسادِ

فاصبر لقسمة ما ترى ... لا يُدْفَعُ القدر المعادى (٦)

الهوامش

١- ١ / ١١٩ .

٢- ١ / ١٨٨ .

٣- ٢ / ٢٢٦ .

٤- ١ / ٣٤١ .

٥- ٢ / ٩٥ .

٦- ٣ / ١٢٠ .

استعطاف الحبيبة باستشارة مشاعر التقوى والتحرج لديها

يلجأ الشعراء المحبون ، ضمن ما يلجأون إليه من وسائل لترقيق قلب حبائبهم ، إلى استشارة مشاعر التقوى لديهن وتخويفهن بالله ممَّا يسببنه لهم من آلام ومواجع . وليس شرطًا أن يكون هذا الكلام خارجًا من القلب ، فقد لا يعدو الأمر أن يكون حيلةً أو تظرفا . يقول ابن أبى ربيعة :

فاتقى ذا الجلال يا أم عمرو   واحكمى فى أسيركم بالصواب

* * *

وتحرجى من قتل من لم يبغكم   هجرا ولا صرمًا ولم يتبغَّضِ

* * *

قتلتنا يا حبذا أنتمو   فى غير ما جرمٍ ولا مأثمِ

والله قد أنزل فى وحيه   مبينا فى آيه المحكم :

من يقتل النفس كذا ظالمًا   ولم يُقِدْها نَفْسَه يَظْلمِ

* * *

وخبرينى : ما الذى عندكم   بالله فى قتل امرىء مسلمٍ ؟

ويقول جميل :

ألا تتقين الله فيمن قتلتِه   فأمسى إليكم خاشعا يتضرَّعُ ؟

ويقول العرجى :

عُوجى علينا ربَّةَ الهودجِ   إنك إلا تفْعَلى تَحْرَجى

ويقول ابن قيس الرقيات :

أمَّ البنين ، سلبْتِنى حِلْمى   وقتلتنى فتحملى إثمى

. . .

بالله يا أم البنين ألم   تَخْشَىْ عليك عواقب الإثم ؟

وحول هذا المحور نفسه تدور الأبيات التالية لبشار :

غصبتْ عُبَيْدةُ قلبه … أيحلّ فى الإسلام غَصْبُهْ ؟ (١)

* * *

فاتقى الله يا حُبَيْبَ وجودى … بشفاء لعاشق مكروبِ (٢)

* * *

نوليه واتقى إلهك فيه … ليس ما قد فعلتِ بالتعتيبِ (٣)

* * *

تركتِنى مستهام القلب فى شُغُلٍ … لهفان لا والدًا أهوى ولا ولدا

أخا هموم وأحزان تأوّبنى … فاخشَىْ إلهك . إنى ميّتٌ كمدا (٤)

* * *

هلاّ تحرجْتِ يا عبّادُ من رجلٍ … قد زمّه الحبّ حتى ذلّ فانقادا (٥)

* * *

فتحرّجى إن كنتِ مؤمنةً … بالله يا عبّادَ من هَجْرِى (٦)

الهوامش

١- ١ / ١٧٢ .

٢- ١ / ٢٧٠ .

٣- ١ / ٢٧٠ .

٤- ٢ / ١٩٤ .

٥- ٣ / ١٤٥ .

٦- ٣ / ٢٢٤ .

ليس فى الحب من حرج

يتكرر فى الشعر الغزلى العربى بعد الإسلام القول بأنه ليس فى الحب حرجٌ ، بل إن بعضهم يتظرف بل يتخابث فلا يبرىء الحب وحده من الحرج بل يسحب هذا الحكم على القبلة أيضا . وقد يضيف إلى القبلة سواها . والسبب فى شيوع هذه الظاهرة فى شعر ما بعد الإسلام أن الدين الحنيف يشدد فى أمر العلاقة بين الرجل والمرأة ، فأراد الشعراء بهذه الدعاوى المضادة إلى تهوين الأمر على معشوقاتهم . قال العرجى :

هل فى ادّكار الحبيب من حرج ؟ — أم هل لهمّ الفؤاد من فرج ؟

ويقول ابن قيس الرقيات :

حدثونى : هل على رجل — عاشقٍ فى قبلة حَرَجُ ؟

ويقول جامع بن مُرْخية الكلابى :

سألتُ سعيد بن المسيب مفتى الـ — ـمدينة : هل فى حبّ ظمياء من وزرِ ؟

فقال سعيد بن المسيّب : إنما — تُلام على ما تستطيع من الأمر

وهى فُتْيا تجمع إلى ظرفها وحنانها عمق النظرة والتغلغل فى الأمر .

وبعد ، فهذا شاعرنا بشار يتناول هذه المعانى . وهو لا يرى فى الحب ولا فى القبلة بل ولا حتى فى العناق أى حرج . وهو كابن مرخية يسأل أحد المفتين نفس سؤال الشاعر الكلابى . وتأتيه الفتوى ولكن بشىء من التفصيل لا نجده فى الفتيا المسندة إلى ابن المسيب . نسمع ؟ :

فقلت لها : لم أجن فى الحب بيننا — أثامًا على نفسى ، فممَّ أتوب ؟ (١)

* * *

فقلت : يا منيتى ويا سكنى — ما فى عناقٍ وقبلةٍ حَرَجُ (٢)

* * *

قالوا : « حرام تلاقينا » ، فقلت لهم : — ما فى التلاقى ولا فى قُبلةٍ حَرَجُ (٣)

* * *

يلومك فى مودتها سعيدٌ — وما فى حب عبدة من جُناحِ (٤)

* * *

أيها القارىء المُذْكِرُ بالله ، — تَرَى فى وصال حِبٍّ جُناحا ؟

قال : لا بأس بالحديث إذا ما — لم يزيدا على الحديث جماحا (٥)

* * *

يا صاح ، كِلْنى إلى بيضاء معطارِ — وارفق بلومى ، فما فى الحب من عارِ (٦)

* * *

فشربتُ غير مباشر حَرَجًا — برضاب أشنبَ باردٍ عَذْبِ (٧)

الهوامش

١- ١ / ١٨٠ .

٢- ٢ / ٧١ .

٣- ٢ / ٧٦ .

٤- ٢ / ١١٣ .

٥- ٢ / ١٢١ .

٦- ٣ / ٢٦٧ .

٧- ٤ / ١٠ .

إشهاد الله والدموع على الحب

يلجأ المحبون إلى كل وسيلة ممكنة لتأكيد حبّهم لصواحبهم ، فيحلفون لهن ، ويصفون حرقات النار التى تأكل قلوبهم وأكبادهم ، ويتأوهون ويولولون ، ويشهدون الله والدموع والمواضع وغير ذلك على ما يمور فى أفئدتهم من حبّ . ومن ذلك قول جميل :

فمن كان فى حُبّى بثينة يمترى   فبرقاء ذى ضالٍ علىّ شهيدُ

يقصد الهضبة التى ، كما تقول القصة ، أقام فيها أيامًا دون طعام أو شراب (١) .

ويقول عمر بن أبى ربيعة :

يشهد الله على حبى لكم   ودموعى شاهدٌ لى والحَزَنْ

وقد جرى بشار هو أيضا على هذا التقليد فاستشهد بالله وبدموعه على حبه ، بل وعلى رقه أيضا ، كما استشهد طرفه ونفسه :

شهد اللسان بما أُجنّ له   والدمع يشهد كلما سَفَحَا (٢)

* * *

صدّقينى بما أقول ، فإنى   باعثٌ بالهوى دموعى شهودا (٣)

* * *

وإذا تعرض ذكرُها كاتمتُهُ   وكفَى بأدمُعِىَ السِّجام شهودا (٤)

* * *

ريمُ ، قد تبتُ وطالت عثرتى   شهد الله ، ودمعى شهدا (٥)

* * *

أيها اللائمى ولم آت بأسا   يشهد الله والثلاثُ الشُهُود (٦)

* * *

فلا تسألِ القلب عن حبّها   كفى بالدموع لها شاهدًا (٧)

* * *

طرقـي وسمعـي شهيداها على بصري   بالـرّق منّـي ، ونفسي ذاتُ إقـرارِ (٨)

الهوامش

١- انظر ابن قتيبة / الشعر والشعراء / ١ / ٤٤٠ .

٢- ٢ / ٩٩ .

٣- ٢ / ١٨٥ .

٤- ٢ / ٢٥٩ .

٥- ٣ / ١٢ .

٦- ٣ / ٢١ .

٧- ٣ / ١٥٠ .

٨- ٣ / ١٦٧ .

الشكوى إلى الله من الحبيبة وصدودها

عندما يفيض الألم عن حدّه المحتمل فإن المتألم يبحث عن صدر حنون يبثه همه ونجواه ويشكو إليه ما يجد من عذابٍ ممضّ . وكثيراً ما يتجه المحبون إلى اللّه مقلب القلوب وخالق المشاعر والأحاسيس أن يخفّفَ عنهم ما يصطلون من نار متأججة أو يعطفَ قلب الحبيبة عليهم . يقول جميل :

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس ، حبها   ولابدَّ من شكوى حبيب يُرَوَّعُ

ويقول أيضا :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى   ومن حُرقٍ تعتادنى وزفيرِ
ومن كُرَبٍ للحب فى باطن الحشا   وليل طويل الحزن غير قصير (١)

ويقول قيس لبنى :

إلى الله أشكو فَقْدَ لبنى كما شكا   إلى الله فقدَ الوالدين يتيمُ
يتيم جفاه الأقربون ، فجسمه   نحيلٌ ، وعهد الوالدين قديمُ

ويقول كذلك :

إلى الله أشكو نيّةً شقت العصا   هى اليوم شتى ، وهى أمس جميعُ
فيا حجرات الحى ، كيف تحمّلوا   بذى سلم ؟ لا جادكنّ ربيع

وقد شكا بشار إلى ربه ما لاقاه أو ما ادَّعى أنه كان يلاقيه من الجوى ، فقال :

فعلى حُبّى عويلى   وإلى الله شكاتى (٢)

* * *

فإلى الله مشتكاى مع الهائم الشجِى (٣)

* * *

أشكو إلى الله شوقا لا يفرّطنى   وشُرّعا فى سواد القلب تختلجُ (٤)

* * *

إلى الله أشكو أن بالقلب كربة   من الشوق لا تَبْلَى ولا تتفرّجُ (٥)

الهوامش

١- ويُروَى هذان البيتان لقيس بن ذريح أيضا . انظر د . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٩٨١ م / ١ / ٤٢٦ .

٢- ٢ / ٣٨ .

٣- ٢ / ٧٢ .

٤- ٣ / ٧٧ .

٥- ٢ / ٩٢ .

الرقة والتحبب والخضوع فى مخاطبة المحبوبة

اشتهر العباس بن الأحنف بذلك إلى الحدّ الذى قد يُظَنّ معه أنه هو الوحيد الذى أبدى احترامًا ورقة زائدين فى مخاطبة محبوبته لدرجة الخضـــوع لهـا ومناداتهـــا بـ « يا أميرتى » و « مليكتى » و « سيدتى » ... إلخ (١) .

ولكن الشيخ الطاهر بن عاشور قد جعل لبشار قصب السَّبق فى نظم ألفاظ التحبب من مثل « نور عينى » (٢) .

والحقيقة أن بشارًا فعلاً قد أبدى فنونًا من ذلك فى مخاطبة حبيباته ، ولم يقتصر الأمر على المثال الذى ضربه الشيخ ابن عاشور كما سيرى القارىء بعد قليل ، وإن كان لابد من القول بأن تحبب العباس من الرقة والشفافية بحيث لا يبلغه أسلوبُ بشار . ولكن لابدّ من القول أيضا بأنه لا العباس ولا بشار هو أول من انتهج هذا الأسلوب ، وإن كانا فيما يبدو قد أكثرا منه إكثارا يلفت النظر ، مع الفرق الذى أشرت إليه آنفا بين طريقتيهما .

انظر مثلاً إلى البيت التالى لأبى دَهْبَل الذى يصوّر غاية الخضوع للحبيبة والرغبة المطلقة فى عمل أى شىء يقرّبه إليها ويستجلب رضاها :

ياليــت أنــى بأثوابـــى وراحلتـــى   عبْـــدٌ لأهلـك طـولَ الدهـــر مؤتَجَـرُ

وانظر كيف جعل عبد الله المخزومى ، الشاعر الأموى ، حبيبته « أميرا » عليه :

وأنفـــذ جـــارحـــاكِ ســواد قلبـــى   فأنـــتِ علـــىَّ ما عشنـــا أميـــرُ

ويقول ابن قيس الرقيات :

ظعنـــت لتحزننــــى كثيــــرهْ   ولقـــد تكـــون لنـــا أميـــرهْ

ومثله ابن أبى ربيعة :

وأنــت قــرة عينــى إن نَــوًى نزحــتْ   ومُنْيتــى ، واليـك الشـــوق والطـرب

* * *

أميرًا على ما شئت منى مسلطا ... فسل ، فلك الرحمن ، تُمنح سُولا

* * *

أنت الأميرة ، فاسمعى لمقالتى ... وتفهَّمى من بعض ما لم تفهمى

إنى أتوب إليك توبة مذنب ... يخشى العقوبة من مليك مُنْعِمِ

حتى أنال رضاك ، حيث علمتُه ، ... بطريف مالى والتليد الأقدمِ

وقد قابلت صاحبته هذا منه بمثله :

إن كنتَ ترجو أن تلاقى حاجة ... فامكث ، فأنت على الثواء أميرُ

* * *

فأنت ، أبا الخطاب ، غَيْرَ مدافعٍ ... علىَّ أميرٌ ما مكثتَ مُؤمَّرُ

ويقول جميل لبثينة :

فمُرينى أُطِعْك فى كل أمر ... أنت والله أوجه الناس عندى

* * *

ولو أرسلت يوما بثينة تبتغى ... يمينى ، ولو عزَّت علىَّ يمينى

لأعطيتُها ما جاء يبغى رسولها ... وقلت لها : بعد اليمين سلينى

ويصف الوليد بن يزيد حبيبته بأنها « قرة العين » :

عرفتُ المنزل الخالى ... عفا من بعد أحوالِ

...

لسلمى قرة العين ... وبنت العمّ والخالِ

وقبل العباس بن الأحنف نجد أبا العتاهية ينادى حبيبته بـ « سيدتى » :

ألا ما لسيدتى ؟ مالها ... تُدِلَّ فأحمل إدلالها ؟

ويجعلها مولاته :

الله بينى وبين مولاتى ... أبدت لى الصدودَ والملالاتِ

والآن مع بشار وأسلوبه فى التحبُّب إلى صواحبه :

فأما يا قرّ ... ة عينى ومُنَى قلبى

ويا نفسى التى تسكـ ... ـن بين الجَنْب والجَنْبِ (٣)

* * *

حدثينى ، فأنت قرة عينى : ... هل تحبيننى ؟ فهل نلتِ حُبّى ؟ (٤)

* * *

ولو يسطيع إذ شطّتْ ... على ما كان من عَتْبِ

حذاها وجهه نَعْلاً ... فلم تمش على التُّرْبِ (٥)

* * *

نورَ عينى ، أصبتِ عينى بسكْبِ ... يوم فارقتنى على غير ذنْبِ (٦)

* * *

أنتِ الأميرة فى الهوى ... وأنا المسىء المُذْنِبُ (٧)

* * *

عَبْدَ ، أصبحتِ حياتى ... فصلينى يا حياتى (٨)

* * *

فقلت : يا منيتى ، ويا سَكَنِى ... ما فى عناقٍ ولا فى قبلة حَرَجُ (٩)

* * *

كأن أميرا جالسًا فى حجابها ... تؤمّل رؤياه عيونٌ وفودِ (١٠)

* * *

أنتِ الأميرة فى روحى وفى جسدى ... فابرى وريشى . بكفَّيك الأقاليدُ (١١)

* * *

لا أطيق العزاء عن منية النفـ ... ـس . عذيرى فى حبّها من يزيدِ (١٢)

* * *

فالعين حين أروم هجْرك طُرفة ... وعلى فؤادى من هواك أميرُ (١٣)

* * *

قلت لها عند ذاك : يا سكني   لا بأس . إني مجرّب حَذِرُ (١٤)

* * *

يا خاتم الملك ، يا سمعي ويا بصري   زوري ابن عمك أو طيبي له يَزُرِ (١٥)

* * *

دعيني يا أميرةُ من سرار   ومن شَغَبٍ عليَّ ومن مَسَارِ (١٦)

* * *

ألا يا نور عينيَّ الـ   ـذي كنتُ به أنْظُرْ (١٧)

* * *

يا عبد ، إني قد ظَلِمْتُ ، وإنني   مُبْدٍ مقالة راغب أو راهب

وأتوب مما تكرهين لتقبلي   والله يقبل حسن فعل التائبِ (١٨)

* * *

عبد ، إني قد اعترفتُ بذنبي   فاغفري واعدلي خطائي بِحُبّي (١٩)

* * *

نفسي لنفسك خُلّة   وكذاكِ أنت أميرتي (٢٠)

* * *

يا قرة العين ، إني لا أسمّيكِ   أكني بأخرى أسمّيها وأعنيكِ (٢١)

* * *

أزْمَان جِنّيُّ الشباب مطاوعٌ   وإذِ الأميرُ عليّ من حرّانِ (٢٢)

الهوامش

١- انظر د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء في العصر العباسي / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٢- انظر مقدمة ديوان بشار / ١ / ٣٩ .

٣- ١ / ٢٠٦ .

٤- ١ / ٢٦٧ .

٥- ١ / ٢٥٩ .

٦- ١ / ٢٧٤ .

٧- ١ / ٣٦٠ .

٨- ٢ / ٥٦ .

٩- ٢ / ١ .

١٠- ٢ / ١٥٩ .

١١- ٢ / ٢٦٧ .

١٢- ٣ / ١٤٣ .

١٣- ٣ / ٦ .

١٤- ٣ / ١٧٢ .

١٥- ٣ / ٢٤٢ .

١٦- ٣ / ٢٦٨ .

١٧- ٣ / ٣٠٥ .

١٨- ٤ / ١٨ .

١٩- ٤ / ٢٢ .

٢٠- ٤ / ٢٩ .

٢١- ٤ / ١٢٣ .

٢٢- ٤ / ٢٠٤ .

استيلاء الحب على كل كيانه

مثل هذا الحبّ الذى قال بشار إنه يميت ويحيى لابد أن يستولى على كيانه استيلاءً تامًا : على جسده وكبده ولسانه وأطرافه وسمعه وبصره ونفسه وقلبه وهمومه . والحبيبة هى برؤه وسقامه ، ومنى نفسه وهمه ، وماله وسكنه وأهله وزوّاره . باختصار : هى ، كما قال ، منتهى حاجاته القصوى وأوطاره :

فاطمتنى . ملكتِ نفسى وقلبى   وهمومى فما يجاوزن وَصْبا (١)

* * *

قل لِحُبِّى : قرينى   أنت نفسى وحياتى
وهمومى حين أغدو   وحديثى فى صلاتى (٢)

* * *

تلك أسقامى وبرئى   من سقامى لو تواتى
ومنى نفسى وهمّى   فى مقيلى وبياتى
ونعيمى حين أغفى   وشفاءُ اليقظات
والتى أمسى وأغدو   فى عشىّ وغداة
ذاهب اللب إليها   معلنا بالزفرات
فإذا قمتُ أصلىّ   عرضتْ لى فى صلاتى (٣)

* * *

أتشهى قربها على العسر واليُسْـ   ـر وعند الضيا ويوم التنادى (٤)

* * *

يا بنت صقر بن قعقاع ، على كبدى   شوق إليك وفى روحى وفى جسدى (٥)

* * *

أنتِ المنى وحديث النفس خاليةً   ومنتهى حاجتى القصوى وأوطارى
أرضى بقربكِ من مال ومن سكَن   ومن نعيمى ومن رهطى وزوّارى (٦)

* * *

أبيت والحب فى سمعى وفى بصرى   وفى لسانى وأطرافى وآثارى (٧)

* * *

ما زال منه رسيس لا يفارقنى   فى الرأس والعين والأوصال كالسُّكُرِ (٨)

* * *

لِىَ فى قلبى منه لوعةٌ   ملكتْ قلبى وسمعى والبَصَرْ (٩)

* * *

كأن وجدى بها ، وقد حُجِبَتْ ،   فى الرأس والعين والحشا سُكْرُ (١٠)

الهوامش

١- ١ / ٣٨٠ .

٢- ٢ / ٣٦ .

٣- ٢ / ٥٤ .

٤- ٢ / ١٨٠ .

٥- ٣ / ١٤١ .

٦- ٣ / ١٦١ .

٧- ٣ / ١٦٢ .

٨- ٣ / ٢٤٤ .

٩- ٤ / ٤٩ .

١٠- ٤ / ٦٣ .

لامبالاته باللوم

مِثْلَ كل الشعراء العرب المحبين تقريبا يكرر بشار أنه لا يبالى بالعذال وما يلومونه به ، وسيظل على حبّه لصاحبته ، وأنه قد ملَّ ما يسمعه من نصائح اللّوام ، وأن اللوم على الحب ليس من سداد الأمر ، لأن الحبّ لا يمحوه من قلب المحب العذل . بل إنه ليدعو على أولئك العذال بالسقم والعذاب :

يا صاح ، لا تَجْرِ فى لومى وتأنيبى   ماكلّ من لم يُجِبْ قومًا بمغلوبِ (١)

* * *

قلتُ للآثم فيها   غَصّ منها بالشرابِ

لا تُطاع الدهر فيما   قد عنانى بِقُراب

ليت من لام محبا   ورماه باعتياب

. . .

تاله الله بِسُقْم   شاغل أو بعذابِ (٢)

* * *

يا خليلىّ ، أخرجانى من الحب سويا ، ولا تلوما محبّا (٣)

* * *

ولقد أيقنَ أنى   لا أطيع العاذلاتِ (٤)

* * *

عظتى فيها ، رُويدًا   قد مللتُ الواعظاتِ

لا أطيع الناس فيها   أبدا حتى المماتِ (٥)

* * *

فدع لوم المحب إذا تهادى   به حب النساء . لحاكَ لاحِ

فإنك لا تردّ هوًى بلوم   ولا طرب المتيمِ بِامّضاحِ (٦)

* * *

• دعا لومَ المحبّ إذا تمادى   فما لوم المحب من السدادِ (٧)

الهوامش

١- ١ / ٢٦٠ .

٢- ١ / ١٧١ - ١٧٢ .

٣- ١ / ٣٥٢ .

٤- ٢ / ٥٣ .

٥- ٢ / ٥٤ .

٦- ٢ / ١١٣ .

٧- ٣ / ٢٤ .

التفدية

يكثر فى الشعر العربى القديم تفدية الشاعر من يحبه أو يمدحه أو يرثيه بنفسه أو بأبويه أو بعشيرته كلها . وقد جرى بشار على هذا الأسلوب فى التعبير عن حبه (وإعظامه لمدوحيه) فهو يفدّى بالنفس والأبوين والعشيرة والطارف من ماله والتلاد وحتى جيرانه :

بأبى وأمى من يقارننى   فيما أقول ومن أقاربهُ (١)

* * *

ويفدّى سواك فى مجلس القو   م ، ويعنيك بالتفدّى ، وربّى (٢)

* * *

لقد فدّيتُه ألفا   ولو كلّمنى زدتُهْ (٣)

* * *

أما شعرتِ ، فدتكِ النفسُ جاريةً ،   أن ليس لى دون ما منيتِنى فَرَجُ ؟ (٤)

* * *

بأبى أنتِ وإن باعدتنى   وبأمّى أنتِ ، يا نفسى ، الفدا (٥)

* * *

لا تصرميه يا عبيدة ، واقصدى   نفسى فداكِ وطارفى وتلادى (٦)

* * *

بأبى تلكم وأمى ونفسى   فى التدانى إذ دنت والبِعادِ (٧)

* * *

دعى ما تصنعين ، فدتك نفسى ،   عُبَيْدَ ، وطارفى بعد التلادِ (٨)

* * *

بأمى وأمى والعشيرة كلها   شخصٌ هناك ضجيعه محبورُ (٩)

* * *

يا عبد ، أنت ذخيرتى   نفسى فدتْكِ وجيرتى (١٠)

* * *

بأبى والله ما أحسنه   دَمْعَ عين يغسل الكُحْلَ قَطَرْ ! (١١)

* * *

يا عبد ، يا قرة عينى   أنصفى . روحى فداكِ (١٢)

وقد علّق البروفسور بيستون على هذه العبارة فى بيت لبشار بما قد يفهم منه أنها من سمات الشعر فى العصر العباسى دون ما سبقه من عصور (١٣) ، على حين أنها منتشرة فى الأسلوب العربى القديم شعره ونثره منذ العصر الجاهلى .

الهوامش

١- ١ / ٢١٧ .

٢- ١ / ٢٦٩ .

٣- ٢ / ١٦ .

٤- ٢ / ٧٦ .

٥- ٣ / ١٢ .

٦- ٣ / ٦٥ .

٧- ٣ / ٩١ .

٨- ٣ / ١٤٠ .

٩- ٣ / ١٦٤ .

١٠- ٤ / ٢٩ .

١١- ٤ / ٧٠ .

١٢- ٤ / ١٢٤ .

١٣- انظر ص ٣٣ من « Selections from the Poetry of Baŝŝar » .

التسبيح أمام جمال المحبوبة

من ضمن ما لجأ إليه بشار فى التعبير عن جمال محبوبته قوله إن الناس عندما يرونها يسبّحون الخالق من انبهارهم بجمالها . بل إنه فى أحد النصوص قد طلب بنفسه من خليله أن يسبّح أمام جمال هذه المحبوبة إعجابا بهذا الجمال وصنع الخالق الذى أبدعه :

ورآها النساء تغلو فسبَّحْـ   ـنَ غلاءً لما استبان الغلاءُ (١)

* * *

إذا رآها نساء الحىّ قلن لها :   سبحان من صاغها ! يُغْرقن إطنابا (٢)

* * *

ولمّا جلاها السمع سبّح ناظر   وكبّر رقّاف وسار فأرهجوا (٣)

* * *

وخدٌّ أسيلٌ وكفٌّ إذا   أشارت لقوم بها سبّحوا (٤)

* * *

تُلْقَى بتسبيحة من حُسْن ما خُلِقَتْ   وتستفزّ حَشَى الرائى بإرعادِ (٥)

* * *

سبّح خليلى ، وقل : يا حسن تصويرِ !   راحت سُلَيْمى تهادى فى المقاصيرِ (٦)

الهوامش

١- ١ / ١١٧ .

٢- ١ / ٢٠٩ .

٣- ٢ / ٩٥ .

٤- ٢ / ١٠٨ .

٥- ٢ / ٣١٩ .

٦- ٣ / ٢٢٠ .

الانشغال بالحبيبة عن العبادة

تكررت عند بشار الإشارة إلى انشغاله بحبيبته وجمالها عن شعائر العبادة : إمَّا بتركها تماما ، وإمَّا بعدم استطاعته التركيز فى الصلاة مثلا واحتياجه من ثمّ إلى شىء يحصى به عدد الركعات التى صلاَّها .

لكن ينبغى التنبيه إلى أن بشارًا ليس هو فاتح هذا الطريق ، فإن الشعراء منذ الجاهلية يرددون مثل هذا المعنى فى أشعارهم ، كلٌّ بطريقته . قال النابغة :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... عَبَدَ الإله صرورةٍ متعبّدِ
لرنا لبهجتها وحسن حديثها : ولَخَالَه رُشْداً وإن لم يَرْشُدِ

وقال ربيعة بن مقروم الضبى :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... فى رأس مشرفة الذُّرا يتبتَّلُ
لرنا لبهجتها وحسن حديثها : ولَهَمَّ من ناموسه يتنزَّلُ

ويقول عمر بن أبى ربيعة على لسان إحدى عاشقاته :

قالت لترب لها تحدثها : لَنُفْسِدنَّ الطواف فى عمرِ
قومى تصَدَّىْ له ليبصرنا ... ثم اغمزيه يا أختُ فى خَفَرِ
قالت لها : قد غمزتُه فأبى ... ثم اسبطرّت تسعى على أثرى

ويقول كذلك عن نفسه :

بدا لى منها معصم حيث جَمَّرتْ ... وكفٌّ خضيب زُيِّنَتْ ببنانِ
فوالله ما أدرى ، وإن كنت حاسبًا ، ... بسبع رميتُ الجمر أم بثمانِ

ويقول جميل :

أصلّى فأبكى فى الصلاة لذكرها ... لِىَ الويلُ مما يكتب الملَكانِ

* * *

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة ... وأىَّ جهاد غيرهن أريد ؟
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكلُّ قتيل عندهن شهيدُ

ويقول مجنون ليلى :

فوالله ما أدرى إذا ما ذكرتها   أثنتين صليتُ الضُّحا أم ثمانيا

ويقول قيس بن الملوح فى حبيبته ليلى :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعةٍ   بخيف منًى ترمى جمار المحصَّبِ

ويبدى الحصى منها إذا قذفتْ به   من البرد أطراف البنان المخضَّبِ

ويقول العرجى :

ما عمرة نهزتنا نحو أرضكمو   ولا هوًى غيركم يا أم داودِ

ويقول أيضا :

نلبث حولا كاملا كلَّه   لا نلتقى إلا على منهجِ

فى الحج إن حجَّتْ . وماذا مِنًى   وأهله إن هى لم تَحْجُجِ ؟

ومن كلام ابن قيس الرقيات :

حبذا الحجّ والثريا ومن بالـ   ـخيف من أجلها وملقى الرحالِ !

ثم أخيرا هذا البيتان للوليد بن يزيد :

ألا حبّذا سفْرى وإن قيل إننى   كلفتُ بنصرانيةٍ تشرب الخمرا

يهون علىَّ أن تظل نهارها   إلى الليل لا أولَى نصلّى ولا عصرا

بشار إذن ليس أول من ألم بهذا المعنى فى شعره ، وإن كان قد تكرر عنده .

وهذه شواهده :

عَبْدَ ، بالله أطلقى   من عذابٍ مواصِبِ

رجلا كان قبلكم   راهبا أو كراهب

يسهر الليل كله   نظرا فى العواقبِ

فثناه عن العبا   دة وجدٌ بكاعب

شغلته بحبها   عن حساب المحاسب (١)

* * *

ولو يتركنى الحُبُّ   لقد صمتُ وصلّيتُ (٢)

* * *

قل لِحُبِّى : قرينى   أنت نفسى وحياتى

وهمومى حين أغدو   وحديثى فى صلاتى (٣)

* * *

فإذا قمتُ أصلّى   عَرَضَتْ لى فى صلاتى (٤)

* * *

لَتَقْبِيلُ خديها ومصّ لسانها   ألذّ من الباكين فى عرفاتِ (٥)

* * *

أعُدّ سجودى بالحصى وتلومنى   ولولا الهوى أوهمتُ بعض سجودى

كأن بقلبى جِنّة تستفزّه   بنسيان ما صليتُ غَيْرَ عديد (٦)

* * *

هَذِى التى دلّهه حبّها   وكان حينا من حَصَى المَسْجِدِ (٧)

* * *

لعمرك ما تَرْكُ الصلاة بمنكر   ولا الصوم إن زارتك أمّ محمدِ (٨)

* * *

ما أصلّى إلا وعندى رقيب   قائم بالحصى يَعُدّ سجودى (٩)

* * *

أصوم يوما فأرقا من تذكرها   ولا أصلّى الضحا إلا بعدّادِ (١٠)

الهوامش

١- ١ / ١٦٤ .

٢- ٢ / ٣٠ . وقد رُوى هذا البيت للوليد بن يزيد ضمن أبيات له ثمانية هو البيت الثانى فيها (انظر « شعر الوليد بن يزيد » / جمع وتحقيق د . حسين عطوان / مكتبة الأقصى / عمان / ط ١ / ١٩٧٩ / ٢٨) .

٣- ٢ / ٣٦ .

٤- ٢ / ٥٤ .

٥- ٢ / ٥٨ .

٦- ٢ / ١٥٦ - ١٥٧ .

٧- ٢ / ١٧٤ ، أى كان ملازمًا له كأنه من حصاه .

٨- ٢ / ٢٠٦ .

٩- ٢ / ٢٧٢ .

١٠- ٢ / ٣٢٠ .

عبادة الحبيبة

قد يُظَنُّ أن التعبير عن شدة الحب بـ « أعبدك » هو من المعانى العصرية التى وردت إلينا من الأدب الأوربّى . ولكن الحقيقة أنَّ التعبير عن شدة الوجد والوله بما يدل على هذا المعنى هو أسلوب قديم فى شعرنا يرجع على الأقلّ إلى عمر بن أبى ربيعة وكُثَيِّر عزّة ومعاصريهما من الغزليين . قال عمر :

مرّ بى فى نَفَرٍ يحففنه   مثل ما حف عِبادٌ يوثَنْ

وقال أيضًا ، وقد أخذه (كما سوف نرى) بشار معنًى ولفظًا :

لا تجعلنْ أحدًا عليك إذا   أحببتَه وهويته ربّا

ويقول قيس بن الملوح :

أرانى إذا صليت يمّمت نحوها   بوجهى وإن كان المصلّى من ورائيا

وما بىَ إشراك ، ولكنّ حبها   كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

ويقول كثير :

رهبان مدين والذين عهدتُهم   يبكون من خوف العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت كلامها   خروا لعزة ركّعًا وسجودا

ويجعل ذو الرمة الوقوف عليها من أركان الحج ، لا يتم إلاّ به :

تمام الحج أن تقف المطايا   على خرقاء واضعة اللثامِ

ويقول الوليد بن يزيد :

لو رأينا لسليمى أثرا   لسجدنا ألف ألف للأثرْ

واتخذناها إمامًا مرتضًى   ولكانت حجّنا والمعتمَر

إنما بنت سعيد قمرٌ   هل حرِجْنا إن سجدنا للقمر ؟

فإذا جئنا إلى بشار وجدناه يكرر هذا المعنى وينوّعه : فحبيبته مرة صنم ، ومرة كصليب النصارى ، ومرة ربّ (بصريح اللفظ) . والناس يصلّون لها ويطيلون القنوت . ويزيد على ذلك قائلا إن الناسك الأجلح إذا رأى ثديها خرّ أمامه ساجدًا .

وهو معنى شهوانى لا يلتئم مع العبادة وما يحيط بها من أجواء روحانية :

عدمتُكَ عاجلا ، يا قلبُ ، قلبا   أتجعل من هويتَ عليك ربّا ؟ (١)

* * *

ألا يا صنم الأزد الذى يدعونه ربّا
سُقِيتَ العذْبَ من وُدّى   وإن لم تسقنى عَذْبا (٢)

* * *

أنا مشغوف بسلمى   كالنصارى بالصليب (٣)

* * *

لو خرجَتْ للناس فى عيدهم   صلّى لها الأمرد والشائبُ (٤)

* * *

لم يكن لى رب سوى الله يا عبد   فما لى اتخذتُ وجهك ربّا ؟ (٥)

* * *

وروقةٌ بِكْرٌ يُصَلَّى لها   حين تُجَلّى ويُطال القنوتْ (٦)

* * *

لها منطق فاخر فاتن   كحلى العرائس يُسْتَمْلَحُ
وعينان يجرى الردى فيهما   ووجه يُصَلَّى له أسجح
وثدى لرؤيته سجدة   يدين له الناسك الأجلح (٧)

* * *

كأننى عابد من حب رؤيتها   إن المحب تراه مثل من عبدا (٨)

* * *

تغدو ثقالاً ، وتمسى فى مجاسدها   كأنها صنم فى الحىّ معبودُ (٩)

* * *

مِنْ كلّ مقبلة الشباب كأنها   صنمٌ لأعجم لا ينى معبودا (١٠)

الهوامش

١- ١ / ١٦٥ .
٢- ١ / ٢٠٢ .
٣- ١ / ٢٢١ .
٤- ١ / ٢٢٧ .
٥- ١ / ٢٨١ .
٦- ٢ / ٢٣ .
٧- ٢ / ١٠٨ .
٨- ٢ / ١٩٤ .
٩- ٢ / ٢٦٩ .
١٠- ٢ / ٣٢٧ .

الجنون

ومن المعانى التى تتكرر فى شعر بشار معنى « الجنون » ، الذى يقصد به (كما كان الشعراء ولا يزالون يقصدون) أن حبّه العنيف الذى لا يجد متنفَّسا ولا يلقى عند الحبيبة صدًى قد أذهل عقله من الإحباط واليأس . وقد التفت المستشرق بيستون إلى هذا الملمح فى الشعر العربى وما يعنيه ، وذلك عند تعليقه على ترجمته للبيت التالى لبشار :

يقولون : داء القلب جِنّ أصابه ، ودائى غزال فى الحجال ربيبُ (١)

وهذه شواهد على ورود هذه اللفظة فى شعر بشار الغزلى ، وإن كان لابد من الاستدراك بأن استعمالها غير مقصور على هذا اللون من الشعر ، فقد وردت عنده فى الهجاء، وغيره أيضا :

فوالله ما أدرى أبى من طلابها   جنون أم استحدثتُ إحدى العجائب (٢)

* * *

به جِنّة من صبوة لعبت به   وقد كان لا يصبو غلاما مُشَبَّبا (٣)

* * *

فؤادى بكِ مجنون   ولو أستطيع سلسلتُه (٤)

* * *

كأن بقلبى جِنّةً تستفزه   بنسيان ما صليتُ غير عديد (٥)

* * *

ومما وردت فيه هذه اللفظة أيضا خارج الشعر الغزلى عند بشار قوله :

غنّى بالرباب إن كنت تشدو   غار نومى وجُنّ فىّ الشرابُ (٦)

الذى يشير إلى أن سورة الشراب قد أخذت منه مأخذها .

وكذلك البيتان التاليان ، وهما فى الهجاء :

وُجنّ فُرَيخ الزنج بل جُنّت استُه   فأصبحت دلاّقا له بطبيبِ (٧)

* * *

فإن كنت مجنونا فعندى سَعُوطه   وإن كنت جنّيا فجدّى أعشر (٨)

والبيت الأول يصوّر شدة اغتلام الأُبنة فى مهجوّه ، والثانى يهدد المهجوّ بأنه لن يفلت من عقاب الشاعر أيًّا كانت حالته ، هذا العقاب الذى سيشفيه مما فيه ويعيد إليه عقله فى رأسه .

الهوامش

١- انظر كتابه « Selections from the Poetry of Baššar » / ٢٦ .

٢- ٢ / ٢٠٤ .

٣- ١ / ٢١١ .

٤- ٢ / ١٤ .

٥- ٢ / ١٥٧ .

٦- ١ / ٣٣٢ .

٧- ١ / ٣٦٧ .

٨- ٣ / ٢٦١ .

الحبيبة هى الداء والدواء

والحبيبة أو عينها هى داؤه ، وهى وريقها أيضا دواؤه ، ولكنه دواء صعب عزيز المنال :

إن فى عينها دواءً وداءً   للملمّ ، والداء قبل الدواءِ (١)

* * *

ريق سعدى يا ابن الدُّجَيْل الشفاء   فاسقنيه . لكل داء دواء (٢)

* * *

مريضةُ ما بين الجوانح بالصبا   وفيها دواء للقلوب وداءُ (٣)

* * *

ودواء عينى ، قد علمتَ ، وداؤها   ريّا البنان كدُمْية المحرابِ (٤)

* * *

ولقد أسأل المغيرة ، لمّا   دَوِىَ القلبُ ، عن دواءِ القلوبِ (٥)

* * *

وجاريةٍ فى مقلتيها لناظر   دواءٌ وداءٌ غير أم عدات (٦)

* * *

هام قلبى باللواتى   هنّ دائى وشفائى (٧)

* * *

ما دواء الذى يسهّد بالليـ   ـل ولا يستريح فى الإصباح ؟ (٨)

* * *

إن دائى طغى ، وإن شفائى   غُبرة من رضاب فيك البَرُودِ (٩)

* * *

لا تُمنّى أخاك فى ملة الحـ   ـب بداءٍ دواؤه مفقودُ (١٠)

ومع ذلك ، فإن لفظتى « الداء والدواء » وما فى معناهما قد تقابلانا أحيانا

خارج مجال الحب وعذاباته :

وإنى لأستبقى بحلمى مودتى　　وعندى لذى الداء الملحّ دواءُ (١١)

* * *

أرى حاجتى عند الأمير مريضة　　فهلاّ تداويها وأنت طبيبها ؟ (١٢)

* * *

داءُ عاصٍ ومداوى فتنة　　سفرتْ حربا ولاحت تستعر (١٣)

* * *

إن الطبيب بطبه ودوائه　　لا يستطيع دفاع مقدورٍ أتى

ما للطبيب يموت بالداء الذى　　قد كان يُبْرِى مثله فيما مضى ؟ (١٤)

الهوامش

١- ١ / ١٠٧ .

٢- ١ / ١١٣ .

٣- ١ / ١٢٦ .

٤- ١ / ٢١٦ .

٥- ١ / ٢٦٩ .

٦- ٢ / ٤١ .

٧- ٢ / ٥١ .

٨- ٢ / ١٤١ .

٩- ٢ / ٢٧٣ .

١٠- ٣ / ٢٠ .

١١- ١ / ١٢٨ .

١٢- ١ / ٣٧٧ .

١٣- ٣ / ٢٩٤ .

١٤- ٤ / ٢٣٠ .

الطبيب والكاهن والرُّقَى

وهو يذكر الطبيب والكاهن (وبالذات « كاهن المِصْر ») والرقى ذكراً ملحوظًا ، وذلك فى مجال الحبّ وآلامه والبحث عن علاج له أو اليأس من الشفاء منه :

يا كاهن المصر ، هل تحدثنى : ما بال قلبى بذكرها نَخِبُ ؟ (١)

* * *

كأنى بِكَ مطبوبٌ وما أحدثتَ لى طِبّا (٢)

* * *

فويلى من الحمّى ، وويلى من الهوى لأيهما أبغى دواء الطبائب ؟ (٣)

* * *

أخُشّابُ ، قد طال انتظارى ، فأنعمى على رجل يدعو الأطباء متعبا (٤)

* * *

يا كاهن المصر ، لنا حاجة فانظر لنا : هل سَكَنِى آيب (٥)

* * *

لو قدرنا على رُقى سحر هارو ت طلبنا الوصال بالتحبيب (٦)

* * *

حَبَلَتْنى بمناها ورُقاها فالخِلابِ (٧)

* * *

إن كان ليس به الجنون فإنما لعب الرقاة بقلبه أو ما به (٨)

* * *

ألا يا كاهن المصر الذى ينظر فى الزيت (٩)

* * *

سأرقيها فتأتيكَ ولو كانت على حُوتِ (١٠)

* * *

وعزّيت نفسى عن عبيدة بالرُّقَى لتسلى ، وما تسلى عن الرُّقيات (١١)

* * *

طبيبى ، داونى وتأنَّ سقمى لك اليوم التلادُ على النجاحِ (١٢)

* * *

ولا يدفع الموتَ الأطباءُ بالرُّقَى وسيان نحسٌ يُتّقى وسعودُ (١٣)

* * *

أنتِ الطبيبُ ، فما تقضين فى رجلٍ يدعو الأطباءَ بين الموت والسَّهَرِ ؟ (١٤)

* * *

غَرِضًا إليك من الهوى غَرَض المريض إلى الطبيبْ (١٥)

* * *

كأن كلامه يوم التقينا رُقًى يأخذن فى طول وعَرْضِ (١٦)

* * *

وقصائد مثل الرُّقَى أرسلتُهنّ فكُنّ شَغْفًا (١٧)

الهوامش

١- ١ / ١٩٠ .
٢- ١ / ٢٠٢ .
٣- ١ / ٢٠٤ .
٤- ١ / ٢١١ .
٥- ١ / ٢٢٦ .
٦- ١ / ٢٧١ .
٧- ١ / ٢٧٢ .
٨- ١ / ٢٧٩ .
٩- ٢ / ١٦ .
١٠- ٢ / ١٧ .
١١- ٢ / ٤٠ .
١٢- ٢ / ١١٤ .
١٣- ٢ / ١٦٢ .
١٤- ٣ / ٢٤٣ .
١٥- ٤ / ١٩ .
١٦- ٤ / ٩٤ .
١٧- ٤ / ١٠٩ .

خُلْف الوعد

أكثرَ الشعراء العرب من الشكوى من خُلْف حبائبهم للوعد ، بل إن بعضهم كان يستعطف الحبيبة أن تمنيه بوعد باللقاء ، ثم فلتخلف موعدها بعد ذلك ، إذ يكفيه أن يسمع منها كلمة طيبة يعيش على الأمل معها وقتا ، وذلك بدل أن تتركه يصطلى على الدوام لواعج اليأس المحرقة . يقول بشار :

إنى على خُلْف المواعد منكمو   صابٍ إليكِ ، ولستُ بالمتصابى (١)

* * *

أخْلَفَتْ حين أُريدَتْ   مثل إخلاف السرابِ (٢)

* * *

إذا قلت: أَوْفى العهد ، قالت وأعرَضتْ :   ستدرك ما قد فاتك اليوم فى غدِ (٣)

* * *

سأصرم وصلا من عليّة ، إنها   صرومٌ كما أوهى كذوبُ المواعدِ (٤)

* * *

ألانت لنا يوم التقينا حديثها   أمانىَّ وعدٍ ثم زاغت بما تَعِدْ (٥)

* * *

لا تجعلنْ فى غدٍ وعدى وبعد غدٍ   فإن فَعَلْتِ فما وفَّيْتِ ميعادا (٦)

* * *

وعَدتِنى ثم لم توفى بموعدتى   فكنتِ كالمزن لم يُمْطِرْ وقد رَعَدا (٧)

* * *

فَضَحَتْ جودها بطول مِطالٍ   حالَفَتْهُ ، وآفة الجود مَطْلُ (٨)

الهوامش

١- ١ / ٢١٦ .
٢- ١ / ٢٧١ .
٣- ٢ / ٢٠٧ .
٤- ٢ / ٢٠٩ .
٥- ٣ / ٦٩ .
٦- ٣ / ١٤٦ .
٧- ٣ / ٣٨ .
٨- ٤ / ١٤٣ .

عقارب الحب وحيّاته

وما أكثر ما يذكر بشار عقارب الحب وحيّاته وأفاعيه ، وإن كانت العقارب والحيات والأفاعى غير مقصورة على الهوى ولذعاته :

فكـــأن ليلــــكَ مــــن تذكرهـــا   ليــــل السليــم ســـرت عقاربُــه (١)

* * *

إذا قُدِحَــتْ منهــا الصبابــة تَنَجَّـــتْ   عقــاربَ فيهـا عقربـا ثـم عقربـا (٢)

* * *

إذا ذاد عنـــه عقربـا مـــن هواكمـــو   برقيتـــه دبّـتْ لـــه منكِ عقــربُ (٣)

* * *

قـــول النســـاء عـــلا بهـــا   ولكـــل فـــجٍّ عقـــربُ (٤)

* * *

أظـل كأنـــى شـــاربٌ ســـمّ حيـــة   ويعتادنـى الوسواس حيـن أبيــتُ (٥)

* * *

بيـن الإمـام وموسـى لامـرئ شــرفٌ   هــذا الهمام ، وهـــذا حيّة الوادى (٦)

* * *

تفــحّ دونـى القوافــى كـــلُّ شارقـةٍ   فـحّ الأفاعى لكلب الحىّ والسّيـدِ (٧)

* * *

وكريــم يـــرى الملامـــة كالحيـــــــة صبّحْنــه مــذرّ الـــذُّرورِ (٨)

* * *

إن الهـــوى جثمـــــت عقاربـــــه   فيـه جثـوم الفـــرخ فى الوكْـرِ (٩)

* * *

قطعـــتُ إلى الزّمـــاع دبيـــب واشٍ   وإن عقـــارب الواشـــى سَـــوارِ (١٠)

* * *

تـزلّ القوافـــى عـن لسانـى كأنهـــا   حُمَـات الأفاعـــى ريقهن تصبُّـبُ (١١)

الهوامش

١- ١ / ٢٢٠ .

٢- ١ / ٢١٢ .

٣- ١ / ٢٩٢ .

٤- ١ / ٣٥٩ .

٥- ٢ / ٣٩ .

٦- ٢ / ٣٠٨ .

٧- ٣ / ١٥٧ .

٨- ٣ / ٢١٩ .

٩- ٣ / ٢٢٧ .

١٠- ٣ / ٢٦٨ .

١١- ٤ / ١٦ .

قلبها كالحجر

مع أن بشارا كان حريصًا إلى حد كبير على التخاشع أمام حبيبته وتلقى ما تفعله به من صدّ ودلال فى صمتٍ ، فإن تكلم فإنما ليعبر عن ألمه دون أن ينالها بكلمة ، فإنَّه فى بعض الأحيان القليلة لم يستطع أن يسيطر على غضبه فوصفها بأن قلبها حجر :

كأنها حجر من بُعْد نائلها شطّت علىّ ، وإن ناديتُ لم تُجِبِ (١)

* * *

إن كان قلبكِ بعدى صار من حجرٍ فأيقنى أن قلبى ليس من حَجَرِ (٢)

* * *

لا أستطيع الهوى وهِجْرَتَها قلبى ضعيفٌ ، وقلبها حَجَرُ (٣)

الهوامش

١- ١ / ٢٦٦ .

٢- ٣ / ٢٤٣ .

٣- ٣ / ٢٦٥ .

الشقاء المصبوب

وقد يصوّر الشاعر الحُسْن أو الحُبّ (أو الهجاء) وما يجلبه على المحب (أو المهجوّ) من شقاء وكأنه شيء « يُصَبّ » :

إذا أصبحتَ صبّحك التصابى ... وأطرابٌ تُصَبُّ عليك صبّا (١)

* * *

أفى شوق تُرَى جسمى ؟ ... صببتَ الهمَّ لى صبّا (٢)

* * *

ونادى سعيدًا فاستصبَّ من الشقا ... ذَنُوبا كما صُبَّت عليه ذنائِبُهْ (٣)

* * *

وتلافيتِى بذلك عنهن ... وأُنْس يَصُبُّ للحُبّ صبّا (٤)

* * *

صببتُ على ابنِ فَزْعةَ من عذابى ... أذاةً لا يسكّنها البَرُودُ (٥)

* * *

يصبّ لسانه طُرَفا علينا ... كما تساقط النُّطَفُ السِّدادُ (٦)

* * *

إذا فارقتُها صبّت ... علىّ الهمّ والفِكْرا (٧)

* * *

إذا نظرَتْ صبّت عليك صبابةً ... وكادت قلوب العالمين تطيرُ (٨)

* * *

صببتِ هواكِ على قلبه ... فضاق وأعلن ما قد كتم (٩)

* * *

من فتاة صُبّ الجمال عليها ... فى حديث كلذة النشوانِ (١٠)

الهوامش

١- ١ / ١٦٥ .

٢- ١ / ٢٠٢ .

٣- ١ / ٣٢١ .

٤- ١ / ٣٨٠ .

٥- ٣ / ١٩ .

٦- ٣ / ٥٢ .

٧- ٣ / ٢٣٨ .

٨- ٤ / ٧٨ .

٩- ٤ / ١٥٩ .

١٠- ٤ / ٢١٣ .

حرقة الكبد

وما أكثر الشكاوى فى شعر بشار الغزلى من حرقة الكبد وقَرْحتها وذوبانها :

فيا كبدا فيها من الشوق قَرْحة   وليس لها مما تحب شفاءُ ! (١)

* * *

فأصبحت من سُعْدَى قصيًا بحاجة   أرى كبدى من حرها ستذوبُ (٢)

* * *

على النأى محزون ، وفى القلب مُغْرم   فيا كبدا ! أىَّ الطريقين أركب ؟ (٣)

* * *

أصفراء ، فى قلبى عليك حرارة   وفى كبدى الهيماء نارٌ تلهَّبُ (٤)

* * *

كيف السبيل إلى لهو وقد تركتْ   سعدى على كبدى من حبها نُدَبا ؟ (٥)

* * *

كأنما فى كبدى قَرْحة   من حبها يفرثها فارثُ (٦)

* * *

للهجر نار على قلبى وفى كبدى   إذا تأيتِ ، ورؤيا وجهك الثَّلَجُ (٧)

* * *

ويا كبدًا قد أنضج الشوق نصفها   ونصفٌ على نار الصبابة يُنْضَجُ (٨)

* * *

إذا ذُكرت سَبَقَتْ عَبْرتى   وكادت لها كبدى تقرحُ (٩)

* * *

تثاقلت الذلفاء عنى ، وما درت   بذى كبد حرّى يغص قريحها (١٠)

* * *

إن إعراضكِ من تبليغنا   أسخط القلب وأوهى الكبدا (١١)

* * *

فيـــا كبـــدا مـن الطـــرَب المعنّـــى   إليهـــا ! إنّ أهونـــه شديـــدُ (١٢)

* * *

يا عبـدُ ، ضـاق بحبكـــم جَلَـــدى   وهواكمـــو صـــدعٌ على كبـــدى (١٣)

* * *

فمـــا كلمتْنـــى دارهـــا إذ سألتُهـــا   وفى كبدى كالنّفط شُبَّت له النـارُ (١٤)

الهوامش

١- ١ / ١٢٧ .

٢- ١ / ١٨٦ .

٣- ١ / ٢٩٣ .

٤- ١ / ٣٤١ .

٥- ١ / ٣٥٥ .

٦- ٢ / ٦٣ .

٧- ٢ / ٧٤ .

٨- ٢ / ٩٥ .

٩- ١ / ١٠٩ .

١٠- ٢ / ١٤٢ .

١١- ٣ / ١١ .

١٢- ٣ / ١٧ .

١٣- ٣ / ٢٥ .

١٤- ٤ / ٦٥ .

حتى مـ(ـتى) ؟

وهو من كثرة إلحاح الألم عليه بسبب هجر حبيبته لا يكف عن التساؤل بـ : « حتى مـ(ـتى) » هذا الصّد والعذاب ؟ :

يا عبد ، حتّام لا ألقاك خالية   ولا أنام ؟ لقد طولتِ تعذيبي (١)

* * *

وحتى متى لا نلتقي لحديثنا   ومكنون حب في الحشا قد تشعبا ؟ (٢)

* * *

حتى متى أنتِ يا خُشّاب جالسة   لا تخرجين لنا يوما ولا نَلِجُ ؟ (٣)

* * *

حتام تُجْشِمني الصّبا وتشفّني ؟   بل ليت غيرك يا فؤاد فؤادا (٤)

* * *

حتام أدعو الصبا وأتبعه   والموت دانٍ والله بالرّصَدِ ؟ (٥)

* * *

حتى متى أنا مشغول بحبكمو   من شدة الحبّ أو أهذي بأشعاري ؟ (٦)

* * *

حتى متى يُبْقِي لنفسك حُبّه ؟   والمرء يصبر . إنه لصبورُ (٧)

* * *

يا صاحِ ، قد أمسكتْ رسالتها   فاجمع حَنُوطي . حتّام تنتظرُ ؟ (٨)

الهوامش

١- ١ / ١٩٦ .

٢- ١ / ٢١٢ .

٣- ٢ / ٧٥ .

٤- ٢ / ١٦٦ .

٥- ٢ / ١٨٢ .

٦- ٣ / ١٦٣ .

٧- ٣ / ١٦٥ .

٨- ٣ / ٢٦٥ .

حسبى

على أن الأمر لا يقف عند حدّ التساؤل بـ « حتى متى ؟ » ، بل كثيرا ما يزيد الألم فيدفع الشاعر إلى الصراخ قائلا : « حسبى ... » ، وإن كان استعمل تلك الكلمة خارج هذا المجال أيضا :

أمَــا حَسْبُــك يا أسمــاء   أنــى منــك فــى حَسْــبِ ؟ (١)

* * *

ليس شــىء أجـل مـن فرقــة النفــ   ـس ، فحسبى ! فُجِعْتُ بالنفس . حسبى ! (٢)

* * *

فاكشفى ما بنا ، وعـودى علينـا   قد لقينـا إليك فـى الحب حَسْبا (٣)

* * *

ضِقْتُ عن كُربـة العتاب ، فحسبى !   لا تزيـدى حبيـب نفسـك كربـا (٤)

* * *

أمَــا حَسْبُــك أنــى منــ   ـك طــولَ الليــل مسبـوتُ ؟ (٥)

* * *

فلا تسقنى . أصبحت من سكرة الهوى   أميـد . ألا حسبـى مــن السكراتِ (٦)

* * *

حسبُ نفسى من حبهـا ما بنفسـى   أنـا بـالٍ والحــبّ غـضّ جديـد (٧)

* * *

فحسبــى مــن مهازلــة الغوانــى   ومــن كــأس لسورتهــا فسـادُ (٨)

* * *

وحَسْبُـكَ أنـى منـذ ستيــن حِجَّـةً   أكيـد عفاريــت العِــدا وأُكـادُ (٩)

* * *

أراك تجـارى الغُـرّ مــن آل عامــر   وأنت بهيم اللون . حسبك من فَنَدْ (١٠)

* * *

حسبـى بمــا قـد لقيـتُ يا عُمَــرُ   لم يأتـى عــن حبيبتــى خبـرُ (١١)

* * *

ربّ ، لا صبــر لى على الهجر . حسبى   فأَقِلْنى ، حسبى ، لك الحمد ، حسبى (١٢)

ألا طـرد الهـوى عنــى رقــادى   فحسبـى ما لقيــتُ مـن السهـاد (١٣)

* * *

حسب قلبـى مـا بـه مـن حبهــا   ضـاق مـن كتمانـه حتـى علَنْ (١٤)

إلاَّ أن تلك الكلمة لم تقتصر على هذا ، فقد استعملها الشاعر أيضًا فى تخفيف الإثم الذى ارتكبه :

حسبـى وحسـب التـى كلفـتُ بهــا   منــى ومنهــا الحديــثُ والنظــرُ

أو قبلــة فــى خــلال ذاك   ....

أو لمس ما تحــت مرطهــا بيـدى   .... (١٥)

الهوامش

١- ١ / ١٥٩ .
٢- ١ / ٢٧٤ .
٣- ١ / ٣٥٣ .
٤- ١ / ٣٨١ .
٥- ٢ / ١٩ .
٦- ٢ / ٤٠ .
٧- ٣ / ٢٠ .
٨- ٣ / ٥١ .
٩- ٣ / ١٠٦ .
١٠- ٣ / ١١٣ .
١١- ٣ / ٢٦٤ .
١٢- ٤ / ٢٢ .
١٣- ٤ / ٣٨ .
١٤- ٤ / ٢١٧ .
١٥- ٣ / ١٧٠ .

تذكيرها بالماضى

مما نجده فى شعر بشار الغزلى تذكيره من يتغزل فيها بما كان لهما من ليالٍ جميلة مرَّت ، وتَمَنّيه أن تتكرر مثل هذه اللقاءات السعيدة بدل الهجر والصدّ اللذين يشقى بهما . قال :

يا سَلْمَ ، هل تذكرين مجلسنا   أيام رأسى كأنه عِنَبُ
إذ نحن بالمِيثِ لا نرى أحدا   يُزْرى وإذ شأننا به اللعبُ ؟ (١)

* * *

كيف أرجو يوماً كيومى على الرّ   سّ وأيامِنا بحقف الكثيبِ
إذ نسوق المُنَى ونغتبق الرا   ح ويأتى الهوى على تغييب ؟ (٢)

* * *

اذكرى ليلةَ نلهو   فى رعود وسحابِ
وحديث نصطفيه   فى عفافٍ وتصابى (٣)

* * *

أراجعٌ أنتَ لنا مجلسَا   بين مُدامٍ وسماع مُنيبْ ؟
يا حبذا ذاك على نأيه   وحبّذا ليلتنا بالكثيبْ (٤)

الهوامش

١- ١ / ١٩١ .

٢- ١ / ١٩٨ - ١٩٩ .

٣- ١ / ٢٧٣ .

٤- ١ / ٣٦١ .

لا يغنى عنها غيرها

كثيرًا ما يؤكد بشار أنه لا يريد إلاّ من يحبها ، وأن غيرها من النساء لا يمكن أن يملأ مكانها من قلبه ، لأنه منذ أن وقع فى هواها قد صرفه هذا الهوى عن سائر النساء ، فلم يعد يجد لمذاقهن طعمًا ، إذ ملكت هى عليه قلبه ونفسه وهمومه ، فسلاهن وصام (كما يقول) عنهن ونسى ما كان يربطه بهن :

سلمى ثقال الردف مهضومةٌ ... يأبى سواها قلبى الخالبُ (١)

* * *

يقولون : « فى أنثى من انثى خليفة » ... وقد كذبوا . بعض الأوانس نَيْرَبُ

وقد كان لى فيهن داعى قرابةٍ ... ولكنْ ذواتُ الودّ أدنى وأقربُ (٢)

* * *

أرسلتْ خُلّتى من الدمع غَرْبا ... ثم قالت : صبوتَ ، بل كنتَ صبّا

قلت : كلاّ . لا . بل صفا لكِ حتى ... زادك الله يا عبيدةُ حُبّا

ما تعرضت للكوانس فى الستر ... ولا العارضات سِرْبا فسربا

أنت كدّرتِ شِرْبهن فأصبحـ ... ـن غضابا علىّ يذممن شِرْبا

وتلافيتِنى بذلك عنهن ... وأُنس يَصُبّ للحب صَبّا

فلهن الطلاق منى . ومنى ... لك طولُ الصفاءِ والودّ عذْبا

فاطمئنى . ملكت نفسى وقلبى ... وهمومى فما يجاوزن وَصْبا (٣)

* * *

أما ينفعنى عند ... كِ قولٌ معجِبٌ قلتُه

وصَوْمِى لك عنهن ؟ ... ولولا أنت ما صمتُه (٤)

* * *

ما من جميلةِ معشرٍ إلا لها ... أختٌ تُعَدّ . وما لها أخواتُ (٥)

* * *

من هوى عبدة البخيلة إنى ... لا أرى غيرها لقلبى رواحا (٦)

* * *

لو خُيِّر القلبُ من يمشى على قدم ... لاختار سعدى ولم يعدل بها أحدا

لو ساعفتنا وصد الناس كلهمو ... لما وجدتُ لفقد الناس مفتقدا (٧)

* * *

ومجلسِ خَمْسٍ قد تركتُ لحبها ... وهن كزهر الروض أو لؤلؤ السرد (٨)

* * *

فلا يحسب البيض الأوانس أن فى ... فؤادى سوى سُعْدَى لغانيةٍ فَضْلا (٩)

الهوامش

١- ١ / ٢٢٦ .

٢- ١ / ٣٦٠ .

٣- ١ / ٣٨٠ .

٤- ٢ / ١٥ . والبيت الثانى إشارة إلى انصرافه عن الأخريات من أجلها ، لأنها وحدها الحبيبة .

٥- ٢ / ٣٥ .

٦- ٢ / ١٢٣ .

٧- ٢ / ١٩٤ .

٨- ٣ / ٩ .

٩- ٤ / ١٢٩ .

الدعاء على الحبيبة

عندما يضيق صدر الشاعر المحب ولا يعود يتحمل مزيدًا من العذاب الذى تصبه عليه حبيبته قد ينطلق لسانه فى ذروة اليأس بالدعاء عليها أن يذيقها الله مما تذيقه إياه أو أن تموت أو ... أو ... . وقد عاب النقاد القدماء ذلك ، لأنهم كانوا يشترطون فى الغزل أن يكون كله كلامًا رقيقا يتذلل فيه الشاعر بين يدى حبيبته ويجعل من نفسه عبدها الأسير الذى تفعل به الأفاعيل وهو راضٍ سعيد ، غير مدركين فى غمرة هذه التقاليد الحديدية أن للقلب الإنسانى منطقه الذى يختلف عن ذلك (أحيانا على الأقل) ، وأن مثل هذه الأدعية القاسية قد تكون أدلَّ على شدة الحب من الكلام المعسول الرقيق الذى كانوا يشترطونه ، لأن الشاعر المحب لا يتلفظ بهذه الدعوات الشديدة إلاَّ من شدة وجده واضطرام نار الحب فى فؤاده . قال جنادة بن نجبة :

من حبها أتمنى أن يلاقينى ... من نحو بلدتها ناع فينعاها

لكى أقول : فراق لا لقاء له ... أو تضمر النفس يأسًا ثم تسلاها (١)

وقال سحيم :

وراهنَّ ربى مثل ما قد وَرَيْنَنى ... وأحْمَى على أكبادهن المكاويا (٢)

وقال جميل :

رمى الله فى عينَىْ بثينة بالقذى ... وفى الغُرّ من أنيابها بالقوادح

وقال العرجى :

ليت الإله ابتلاها بى وإن كرهت ... كما ابتلانى بها فى سالف الزمنِ

وقال عمر :

فليت ضِعْفَ الذى أَلْقَى يكون بها ... بل ليت ضعف الذى أَلْقَى تباريحُ

وقد دعا بشار على حبيبته من شدة تباريح ألمه كما دعا على حبائبهم غيره

من الشعراء ، فقال :

قل لحُبَّاء : إن تعيشى فموتى ... سوف نرضى لكِ الذى قد رضيتِ (٣)

* * *

فاشفنى بالصبر منها ... يا مجيب الدعواتِ

أو أذقْها يوم عنِّى ... كربة من كرباتى (٤)

الهوامش

١- انظر حكم المرزبانى على هذين البيتين بالقبح فى « الموشح » / ٢٤٧ .

٢- الورْى : داء يصيب الرئة قاتل . انظر البيت وشرحه فى ديوان سحيم / تحقيق عبد العزيز الميمنىّ / دار الكتب المصرية / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م / ٢٤ .

٣- ٢ / ١ . والمعنى : سوف نرضى لك الذى قد رضيته لنا من الاصطلاء بنار الحبِّ والحرمان .

٤- ٢ / ٥٥ .

تعرض النساء الأخريات له وتراميهن عليه

مثّلَ عمر بن أبى ربيعة كرر بشار فى قصائده (مخاطبًا حبيبته الهاجرة) أن النساء الأخريات يتعرضن له ويغرينه ، ولكنه منصرف القلب والفكر عنهن . ومن ذلك قوله :

وجوارٍ إذا تحلّينَ لم تد ... ر : أشاءٌ فى حليها أم نساءُ ؟
يوم سلوان إذ يناديننى : أقـ ... ـبل إلينا فعندنا ما تشاءُ
يتعرضن للتى يقاترة ... الطرق إذا أقبلت عناها الحياءُ
من بنات الملوك لا ... نماها إلى العلاء العلاءُ
كمهاة الكناس تَطِلّ لنا النفـ ... ـس على وُدّة وفينا جفاءُ
رحن يدعوننى إليها فأمسكـ ... ـتُ بسمعى فضاع ذاك الدعاءُ
ظلمهن الذى تمنين شغلى ... بفتاة منها التُّقَى والحياءُ (١)

* * *

ولقد أتانا أن غانية ... أخرى وكنتُ بهن كالنَّصِبِ
يأملننى ويرين منقصتى ... عند الرضا عنها وفى العتْبِ
لمّا مررتُ بها مستَترةً ... فى الحىّ بين خرائدٍ عُرُبِ
قالت لنسوتها على عجلٍ : ... أنّى لنا بمصدّع القلبِ ؟
لَسَماعُه إن كان يُسمعنا ... أشهى إلى قلبى من العتْبِ
فأجبتها : إن الفتى غَزِلٌ ... وأحَبُّ من يمشى على التُّرْبِ
لا تعجلينا أن نواعده ... فيكون مجلسنا على خِصْبِ
ونتال منه غير واحدة ... إن السماع لأهونُ الخطبِ (٢)

* * *

وقال لنساء الحىّ : مالك صافحا ... وما كنتَ عن أنس الأوانس تصفَحُ ؟
فقلت : السعدى شافع من مودتى ... إذا رمتُ أخرى ظل فى القلب يقدحُ (٣)

* * *

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعَث همّى غاب أو شهدا

صددتُ عنها فلم أدْمِنْ زيارتها إلى هواك فلم تجزى به صَفَدا (٤)

الهوامش

١- ١ / ١١٦ .

٢- ١ / ٢١٤ - ٢١٥ .

٣- ٢ / ١٠٥ .

٤- ٢ / ١٩٨ .

تهديده لها بالهجر

على رغم أن بشارًا يبدو عموما فى شعره العاطفى راضيًا بما تفعله به صاحبته لا يثور ولا يبدى سخطًا ، فإنه فى إحدى المرات يلجأ إلى تهديدها بأنه سيعاملها بالمثل وسيهجرها ويتركها لمن انصرفت إليه عنه :

قل لحُبَّاء : إن تعيشى فموتى   سوف نرضى لكِ الذى قد رضيتِ

...

قد شبعنا من ودك المرّ طعما   وروينا إن كنتِ منّا رويتِ

...

فاذكرى ودنا ، وذوقى سوانا   تذكرينا وتندمى مابقيتِ

...

أنت ياقوتةٌ قدرتُ عليها   لا أحب الشريك فى الياقوت (١)

الهوامش

١- ٢ / ١ - ٤ .

ارعواؤه عن التصابى

يكثر فى أشعار بشار الأخيرة قوله إنه قد ارعوى عن التصابى ، لأن الخليفة المهدى قد نهاه عن معاودة التشبيب بالنساء، ولأن الشيب قد أدركه . ومع ذلك نراه فى ذات الوقت يؤكد أن قلبه ما زال ينبض ، وإن كان يذكر أيضا أنه يحاول كبته :

أفنيتُ عمرى وتقضى الشبابْ   بين الحميا والجوارى الأَوَابْ

فالآن شفَّعْتُ إمامَ الهدى   وربّما طِبْتُ لحبّ وطابْ

صحوتُ ، إلا أن ذكر الهوى   يدعو إلى الشوق فأنسى مآب

لله درى ! لا أرى عاشقا   إلا جرى دمعى وطال انتحاب (١)

* * *

يا منظرا حسنا رأيتُه   فى وجه جارية فديتُه

بعثت إلىّ تسومنى   ثوب الشباب وقد طويتُه

...

أمسكتُ عنك ، وربما   عرض البلاءُ وما بَغَيْتُه

إن الخليفة قد أبى   وإذا أبى شيئا أبيْتُه

...

ونهانى الملكُ الهما   م عن النساء وما عصيتُه (٢)

* * *

فقلت لها : بان الشاب ، فقد مضى   وصاحبنى غيظ لغيرانَ مِنْباحِ

لعلك ألا تعرفينى بمثلها   هدانى أمير المؤمنين بمصباحِ

فآليت : لا آلو الخليفة طاعةً   ولا أبتغى إذنًا على ذات أوشاح (٣)

* * *

ديدنى ذاك فى الدجنة حتى انـ   ـجاب عنّى الصّبا طُلوعَ القتيرِ

ثم رثّ الهوى وراجعنى الحِلْـ   ـمُ ورُدّت عاريّةُ المستعيرِ

...

ذهبت لذة النساء فلا أَلْـ   ـقَى نعيمًا إلا حديث الذكورِ

وشبابى قد كان من لذة العيـ   ـش فأودى وغاله ابنا سميرِ (٤)

* * *

صحا القلبُ عن سلمى ، وشاب المُعَذَّرُ   وأقصرتُ إلا بَعْضَ ما أتذكَّرُ

وما نلتُها حتى تدلّت شبيبتى   وحتى نهانى الهاشمىُّ المُغَرَّرُ (٥)

الهوامش

١- ١ / ١٧٥ .

٢- ٢ / ٢٥ - ٢٦ .

٣- ٢ / ١٢٠ .

٤- ٣ / ٢٠٦ . والقتير : الشيب . وابنا سمير : الليل والنهار .

٥- ٣ / ٢٥٩ .

بحر الحب

تكررت عند بشار الإشارة إلى بحر الحب والغرق أو الإشفاء على الغرق فيه ، ومن ثم ذكر السباحة واللُّجَج :

لمّا رأتني غَرِقًا في الهوى   أَجْرَضُ بالموت وحولي كُتيتْ

قالت : ثقيل قد دنا موته   فقلت : ما كل مريض يموت (١)

* * *

كأن حبّك فوقي حين أكتمه   وتحت رجليّ لُجّ فوقه لُجَجُ (٢)

* * *

أقول لأصحابي : دعوني رهينةً   لبحر الهوى ، لاشك أني ملجّجُ (٣)

* * *

فيا حسنها إذ نلتقي بمهايلٍ   محبَّيْن في بحرٍ من الحب نلْتَجي ! (٤)

* * *

محبَّيْن معشوقين نغرق في الهوى   مرارا ، وطورا تستقلّ فنسبحُ (٥)

* * *

خاضتْ من الحب ضحضاحًا وما رَضِيَتْ   حتى جشَمْتُ إليها غير ضحضاح (٦)

الهوامش

١- ١ / ٢٣ .

٢- ٢ / ٧٤ .

٣- ٢ / ٩٢ .

٤- ٢ / ٨١ .

٥- ٢ / ١٠٦ .

٦- ٢ / ١٣٥ .

طيف الخيال

معروف أن الأحلام تقوم فى حالات كثيرة بتعويض الإنسان (تعويضا وهميا طبعا) عمَّا حُرَمه فى اليقظة . وكثيرًا ما يرى المحب فى منامه أنه مع حبيبه الهاجر ينال منه ما لا يستطيع نيله فى الواقع من حديث ووصال ، وأحيانا أكثر من ذلك . وقد عبّر الشعراء منذ القديم عن هذه الظاهرة بأساليب مختلفة : فبعضهم يوجز . وبعضهم يفصّل فيذكر وقت الزيارة من الليل والمسافة التى قطعها الطيف حتى وصل . وبعضهم يكتفى بالقول بأن حبيبته زارته فى المنام . وبعضهم يؤكد أنه فاز منها بكذا أو كذا . وبعضهم يبدى عدم ترحيبه بالزيارة ، وإن كان ذلك جدّ نادر . وبعضهم يرحّب بالطيف بل ويستجدى حضوره إن استعصى عليه ... وهكذا . قال طرفة :

أرَقَ العيـنَ خيـالٌ لـم يَقَـر ... طـاف والركـب بصحـراء يُسُـرْ

جـازت البيـد إلـى أرحلنـا ... آخـر الليـل بيعفـور خَـدِرِ

ثـم زارتنـى وصحبـى هُجَّـعٌ ... فـى خليـط بيـن بُـرْدٍ ونَمِـرْ

تخلـس الطـرف بعينـى بُرْغُـزٍ ... وبخَـدَّىْ رشـإٍ آدم غِـرّ

وقال أيضا رادًّا الطيف :

فقـل لخيـال الحنظليـة ينقلـب ... إليها ، فإنى واصـلٌ حبـل مـن وصل

وقال المرقش الأكبر :

سـرى ليـلا خيـال مـن سليمـى ... فأرقنـى وأصحابـى هُجُـودُ

فبـتّ أديـر أمـرى كـل حـال ... وأرقـب أهلهـا وهـو بعيـدُ

علـى أن قـد سمـا طرفـى لنـار ... يُشَـبُّ لهـا بـذى الأرطى وقـودُ

حواليهـا مهًا جُـمّ التراقـى ... وأرآم وغـزلان رقـود

يسـرن معـًا بطـاء المشـى بُـدًّا ... عليهـن المجاسـد والبـرودُ

وقال قيس بن الخطيم دهشا وفرحا فى ذات الوقت :

أنَّـى سريـتِ وكنـتِ غيـر سَرُوبِ ؟ ... وتقـرّبُ الأحـلامُ غيـرَ قريـبِ

ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه ... فى النوم غير مصرَّدٍ محسوبِ

وقال سويد بن أبى كاهل :

أرق العينَ خيالٌ لم يَدَعْ ... من سليمى ، ففؤادى منتزَعْ

ويقول سُحَيْم عبد بنى الحسحاس :

ألا حبذا مَسراكِ من نمَّ ليلةً ... طرقْت على شحط النوى أمَّ أسلما !

وإذا كان طرفة قد طرد الخيال غضبًا من حبيبته الهاجرة فقال :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب ... إليها ، فإنى واصلٌ حبل من وصل

ثم جاء جرير فجرى على أثره ورد الطيف هو أيضا معلنا أنه ليس على استعداد لاستقباله لأن الوقت ليس مناسبًا للزيارة ، حين قال :

طرقتْكَ صائدةُ القلوب ، وليس ذا ... وقت الزيارة ، فارجعى بسلامِ

فإن المجنون على خلاف ذلك يحاول النعاس محاولة على أمل أن يرى فى المنام حبيبته التى حرمه الواقع المرّ من رؤيتها ووصالها :

وإنى لأستغشى ، وما بِىَ نعسة ... لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا

ويفصّل ابن قيس الرقيات فى تصوير الحلم وما صنعه بحبيبته (أم البنين) . وهو يقصد بذلك إغاظة الوليد بن عبد الملك زوجها وعبد العزيز بن مروان والدها ، لأن الشاعر كان من حزب الزبيريين ، الذى كان ينافس الأمويين على السلطة وانتزع منهم لفترة حكم بعض البلاد :

فدع ذا ، ولكنْ حاجة ... قد كنتُ أطلبها
إلى أم البنين . متى ... يقرّبها مقرّبُها ؟
أتتنى فى المنام فقلـ ... ـتُ هذا حين أعقُبها
فلما أن فرحتُ بها ... ومال علىَّ أعذبها
شربتُ بريقها حتى ... نهلت وبتّ أشربها
وبتّ ضجيعها جذلا ... ن تعجبنى وأعجبها

وأضحكها وأبكيها ... وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعنى ... فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النو ... م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا منادٍ فى ... صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنّـ ... ـية لم يُدْرَ مذهبها
يؤرقنا إذا نمنا ... ويَبْعُدُ عنك مسربها

وهى كما ترى أبيات يقصد منها إلى الإغاظة والحرب السياسية . وكان ينبغى على الشاعر ألا يتورط فى ذلك وألاَّ يشجعه ممدوحوه الزبيريون عليه ، فليس هذا بالأسلوب اللائق بالرجال فى حربهم لخصومهم . ولكن متى كانت السياسية تبالى ما يليق وما لا يليق ؟ على أن الأبيات برغم ذلك جميلة ممتعة من حيث هى فن تصويرى .

ويقول الوليد بن يزيد فى أخت زوجته التى طلّق زوجته من أجلها ولم يرض أبوها أن يعطيها له زوجةً إلا بعد أن تولى الوليد الخلافة :

طرقتنى وأصحابى هجوع ... ظبيةٌ أدماء مثل الهلالِ
مثل قرن الشمس لما تبدّت ... واستقلّت فى رؤوس الجبال
تقطع الأهوال نحوى ، وكانت ... عندنا سلمى ألوف الحجال
كم أجازت نحونا من بلاد ... وحشةٍ قتّالةٍ للرجال

ويقول أيضا ، ولكن موجزًا ومتأملا هذه المرة :

ويلى ممّن جفانى ... وحبه قد برانى
وطيفه يلقانى ... وشخصه غير دانى
أغرّ كالبدر يُغْشَى ... بحسنه العينانِ

فإذا أتينا إلى بشار وجدناه يقول مرة إن طيف حبيبته قاتله ، ومرة إنه نال منها فى المنام ما يناله العروس من عروسه ، ومرة إن الطيف يزيده شوقا ولهفة ،

ومرة يدعوها لزيارته فى المنام . بل إننا نراه هو نفسه يزور حبيبته فى المنام طيفًا فتصاب عينها من ذلك الوقت بداءٍ :

يوم قالت : إذ رأيتُكَ فى النو　　م خيالاً أصبتَ عينى بداءِ (١)

* * *

منعتك أم محمد معروفها　　إلا الخيال ، وبئس حظُّ الغائبِ (٢)

* * *

إن الحبيب ، فلا أكافئه ،　　بعث الخيال علىَّ واحتجبا (٣)

* * *

منع النومَ طارقٌ من حُبَابَهْ　　وهموم تجول تحت الرّهَابَهْ (٤)

* * *

قد شفّنى حَزَنٌ ضاق الفؤاد به　　وسرّنى زائر فى النوم منتابا
باتت عروسًا وبتنا مُعْرِسين بها　　حتى رأينا بياض الصبح منجابا (٥)

* * *

يدعو إلى الموت طيف لا يؤرقنى　　وعارض منك فى جدّى وفى لَعِبى (٦)

* * *

ما على النوم لو تعرّضْتِ فيه　　فبلوناك فى سِخابٍ وإتْبِ ؟ (٧)

* * *

فيا سَقَما فقدُ الحبيب إذا نأى　　ورؤيتُه فى النوم أوْدَى من الفَقْدِ (٨)

* * *

أعادك طيفُها ؟ وبما يعودُ　　وحبّ الغانيات جَوًى يؤودُ ؟ (٩)

* * *

لقد زادنى شوقا خيالٌ يزورنى　　وصوت غناء من نديم مغرّدِ (١٠)

* * *

ولا ألمَّ بعينى من كَرَى سِنَةٍ　　إلا ألمّ خيالٌ منك فاعتادا (١١)

* * *

لا يذكر الدهرَ أو يسرى الخيالُ له　　إلا تغنى بها أو مسَّه ضررُ (١٢)

* * *

وربما شاقنى طيفٌ بصورتها　　وزُرتها قبل أصوات العصافيرِ (١٣)

* * *

لم يطل لَيْلِى ، ولكن لم أنم　　ونفى عنى الكرى طيفٌ ألمّ (١٤)

* * *

إذ لا يزال لها طيفٌ يؤرقنى　　نشوان من حبّها أو غير نشوانِ (١٥)

الهوامش

١- ١ / ١٠٨ .

٢- ١ / ١٦٧ .

٣- ١ / ١٧٥ .

٤- ١ / ١٩٢ .

٥- ١ / ٢٠٧ .

٦- ١ / ٢٦٤ .

٧- ١ / ٢٦٧ .

٨- ٣ / ١٠ .

٩- ٣ / ١٤ .

١٠- ٣ / ٧٣ .

١١- ٣ / ١٤٦ .

١٢- ٣ / ١٦٠ .

١٣- ٣ / ٢٢١ .

١٤- ٤ / ١٦٦ .

١٥- ٤ / ٢١٦ .

تشبيه القلب فى خفقانه بالطائر أو بجناحه

من الصور الشائعة فى الشعر العربى تشبيه الشاعر قلبه ، فى اضطراب دقاته وخفقاته وبخاصة عند رؤية الحبيبة أو سماع اسمها أو التألم من هجرانها له ، بالطائر المضطرب وبجناحه حين يهمّ بالطيران أو حين يعالج الخلاص من شبكة وقع فيها ، أو تشبيه آلامه بقبض الطائر بمخالبه الحادة على قلبه (١) . قال المجنون :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من مِنًى   فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما   أطار بليلى طائرًا كان فى صدرى

ويقول جميل :

كأن فؤادى فى مخالب طائر   إذا ذُكِرَتْ ليلى يَشُدُّ به قبضا

ومما يتصل بهذه الصورة قول المجنون يصوّر الراحة التى يشعر بها حينما تهفو ذكرى الحبيبة على فؤاده :

وإنى لتعرونى لذكراك هِزَّةٌ   كما انتفض العصفور بلَّله القَطْرُ

وقد تابع بشار هذا الأسلوب فرأيناه يكرر استخدام هذه الصورة فى شعره . وهذه شواهدها :

عِدِينا ، فإن النفس تُخْدَعُ بالمنى   وقلب الفتى كالطائر المتقلّبِ (٢)

* * *

إن قلبى مثل الجناح إلى من   بات يدعو وأنتَ غير مجيبِ

لو يطير الفتى لطرت من الشو   ق منيا إلى الحبيب المُنيبِ (٣)

* * *

تغنّى رفيقى باسمها فكأنما   أصاب بقلبى طائرا فتضرّبا (٤)

* * *

كيف لى بالسلوّ عمّن جفانى   وفؤادى كالطائر المستجاب ؟ (٥)

* * *

طال ليلى ، وبات قلبى جناحا ... ومللتُ العذّال والنّصّاحا (٦)

* * *

فجاءت على خوف كأن فؤادها ... جناحُ السُّمانَى يرعوى ويحيدُ (٧)

* * *

كأن فؤادى طائر حان وِرْدُهُ ... يهز جناحيه انطلاقًا إلى وِرْدِ (٨)

* * *

كأن فؤادى فى نخوافى حمامةٍ ... من الشوق أو صُنْعِ النوافث فى العُقَدْ (٩)

الهوامش

١- نبّه المستشرق بيستون إلى هذه الصورة فى الشعر العربى القديم فى كتابه الذى جمع فيه وترجم مختارات من شعر بشار ، مقارنًا بينها وبين التعبير الإنجليزى : " butterflies in the stomach " ، الذى لم يجد بينه وبينها كبير اختلاف ، إذ التعبير الإنجليزى يعنى القلق والانزعاج (Selections from the Poetry of Baŝŝrar , p. 7) .

٢- ١ / ١٧٢ .

٣- ١ / ١٩٨ .

٤- ١ / ٢٤٤ .

٥- ١ / ٣٥٤ .

٦- ٢ / ١٢١ .

٧- ٢ / ١٦٣ .

٨- ٣ / ٩ .

٩- ٣ / ٧٠ .

مخاطبة القلب

مخاطبة الشاعر المحب لقلبه أسلوب معروف فى الشعر الغزلى العربى منذ العصر الجاهلى . قال المثقب العبدى يخاطب قلبه ولكن بضمير الغائب لا بضمير المخاطب :

هل لهذا القلب ، سمعٌ أو بَصَرْ   أو تناهٍ عن حبيب يُدَّكَرْ ؟

ويتوجه عدى بن زيد إلى قلبه توجها مباشرًا ، إذ يناديه قائلاً :

ألا أيها القلب ، تعلَّل بِدَدَنْ   إن همّى فى سماع وأذَنْ

ويقول جميل لقلبه منكرًا عليه ضعفه ومغاضبًا له :

أفى كل يوم أنت محدثُ صبوةٍ   تموتُ لها ؟ بُدِّلْتُ غيرك من قَلْبِ

ويقول الوليد بن يزيد :

يا قلب ، كم كلِفَ الفؤاد بغادةٍ   ممكورةٍ ريّا العظام خريدِ

بل إن ابن أبى ربيعة قد خطا خطوة أبعد فأنطق قلبه قائلا :

قال لى فيها عتيقٌ مقالا   فجرت مما يقول الدموع

قال لى : ودّع سليمى ودعها   فأجاب القَلب : لا أستطيع

لا تلمنى فى اشتياقى إليها   وابك لى مما تجنّ الضلوع

وقد ذكر « الأغانى » عن مصعب بن عبد الله بن مصعب أن عمر قد راق الناس وفاق نظراءه وبرعهم بعدة أشياء منها « إنطاق القلب » (١) ، مما يفهم منه أنهم كانوا يرونه رائدًا فى هذا الأسلوب .

أما بالنسبة لبشار فقد وجدته يخاطب قلبه فى عدة مواضع من شعره ، ولم أتنبه إلى أنه أنطق قلبه كما فعل عمر بن أبى ربيعة . وهذه شواهد مخاطبته قلبه :

عدمتُكَ عاجلا ، يا قلب ، قلبا   أتجعل من هويتَ عليك ربّا ؟ (٢)

* * *

ألا يا قلب ، هل لك فى التعزّى ؟   فقد عذّبتنى ولقيتُ حَسْبا (٣)

* * *

أقول لقلب ليس لى ، غير أنه   لما شئت من شوق إلى جَلُوبُ

ألا أيها القلب الذى أدبرتْ به   سعادُ بنى بكرٍ ، ألستَ تُنيب ؟

تؤمّل سُعْدى بعدما شعَبَتْ بها   نوًى بين أقران الخليط شَعوبُ

تمنّيك سُعْدى كل يوم بكذبة   جديد ، ولا تُجْدِى عليك كذوبُ

إذا الناصح الأدنى دعاك بصوته :   « دع الجهل » لم تسمع وأنت كئيب

تَمَنَّى هوى سُعْدى مشيدا لحبها   كأن لا ترى أن المَفارق شيبُ (٤)

* * *

أقول لِمُثْبَتٍ وبه حَرَاكٌ   يهم ولا يُسمّح بانقيادِ :

أبعد عبيدة الحوراء تصبو   إلى أنثى ؟ فَقَدْتُك من فؤادِ !

فراجع باسمها طربا إليها   كما انصرف الذلول مع القِياد (٥)

* * *

يا قلب ، مالى أراك لا تَقِرُّ   إياك أعنى ، وعندك الخَبَرُ (٦)

الهوامش

١- انظر « الأغانى » / ط. بولاق / ١ / ٥٣ .

٢- الديوان ١ / ١٦٥ .

٣- ١ / ١٦٦ .

٤- ١ / ١٨٧ .

٥- ٣ / ٢٤ .

٦- ٣ / ١٩٩ .

تسمية أيام اللقاء ولياليه

ويبدو بشار أحيانا حريصًا على تسميه يوم اللقاء أو تحد

أسْقَمَتْ ليلةَ الثلاثاء قلبى   وتصدت فى الس

* * *

لقيتْنى يوم الثلاثاء تمشى   بالتصابى وبالعن

* * *

سقيًا له ولمُدْخلِ أدْخَلْتُهُ   يوم الخميس ع

* * *

فاذكرى ليلة الخميـ   ـس لسان

* * *

ما تأمرين بزائرِ أقصيتِه   يوم الخميس وقد

* * *

فى ليلة خلف شهر الصوم ناقصة   تسعا وعشرين قد

* * *

وذكرتُ من رمضان آخر ليلة   طلعت كواكبها ا

* * *

أذكرتُ نفسى عشية الأحدِ   من زائر ص

* * *

وشربٍ بهاليل فى ليلة   من الشهر نحلّ

* * *

شهر وشهران مرّ قبلهما   شهران مُرّان

* * *

وقد لاحظت هذه الملاحظة عند عمر بن أبى ربيعة ، كما فى الأبيات التالية :

أنكرتِّى اليوم بعد معرفتى ... وبعد جرى إليكم رَسَنى

ومجلسى ليلة الخميس لدى الخيما ... ت بين التلاع والحُصن

وليلة السبت إذ رأيتِ لنا ... بالودّ ، والدمعُ منك فى سَنَنِ

* * *

وقد مضت حجج ، منْ بَعْدُ ، أربعةٌ ... وأشهر ، وانتقصنا العامَ شعبانا

* * *

قالت : فميعادك التقمُّرُ فى ... أول عشر خَلَوْن من رجبِ

الهوامش

١- ١ / ١٠٨ .

٢- ١ / ٢٦٦ .

٣- ١ / ٢٨٠ .

٤- ٢ / ٧٣ .

٥- ٢ / ١٦٥ .

٦- ٢ / ١٩٦ .

٧- ٢ / ٢٥٨ .

٨- ٣ / ٦٥ .

٩- ٣ / ١٤٨ .

١٠- ٣ / ٢٦٤ .

١١- ٤ / ١٥٤ .

حب الأعمى

يتردد فى شعر بشار الغزلى الإشارة إلى أنه ، وإن كان أعمى ، فإنه قادر على الحبّ ، لأن العبرة فى الحب بالقلب لا بالعين . وهذه فى الحقيقة مغالطة من بشار أو الأقل عدم دقة ، فإن القلب لا يحب مباشرة ، بل لا بدّ له من حاسّة توصل إليه الشعور بالمحبوب . فإن عُدِم البصر قام السمع مقامه أو وصفُ الآخرين أو الشمُّ أو اللمسُ أو الذوقُ باللسان أو ذلك كله أو بعضه . وهذا هو الذى حدث فى حالة بشار ، إذ كانت وسيلته إلى الشعور بالمرأة سماع صوتها واستنشاق عبيرها ... إلخ ، وهو ما قاله فعلاً فى بعض الأحيان ، إذ أشار أكثر من مرة إلى عشقه لحديث بعض النساء . كما أنه فى بيت آخر قد طلب من صاحبته أن تمكنه من لمسها حتى يتأكد مما قيل له عن حسنها :

قالــت عُقَيْــل بن كعب إذ تعلقها ... قلبى فأضحى بـه مـن حبهـا أثـرُ
أنّى ، ولم ترها ، تصبو ؟ فقلت لهم : ... إن الفؤاد يرى ما لا يـرى البصـرُ (١)

* * *

فقلتُ : دعُوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلـب لا بالعيـن يُبْصر ذو اللُّبِّ
وما تبصر العينـان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنـان إلا من القلـبِ (٢)

* * *

قالـوا : بسلمى تهـذى ولم ترهـا ... يـا بُعْـدَ ما غاوَلَتْ بـك الفِكَـرُ !
فقـال : بعـض الحديـث يشغفنـى ... والقلـب راءٍ مـا لا يـرى البَصَـرُ (٣)

* * *

ولسـت بنـاسٍ مـن يكـون كلامُـه ... بأذنى ، وإن غُيِّبْتُ ، قُرْطًا معلَّقَا (٤)

* * *

يا قوم ، أذنى لبعض الحى عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا (٥)

* * *

أمامـةُ ، قـد وُصِفْتِ لنـا بِحُسْنٍ ... وإنـا لا نـراك فألمسينـا (٦)

هذا ، وقد رأى العقاد أن قول بشار بأن العبرة فى الحب بالقلب لا بالعين هو التعليل الصحيح ، إذ « ما أكثر ذوى الأبصار الذين يسلطون قلوبهم على عيونهم وأسماعهم وعقولهم فلا تبصر إلا ما تراه ولا تسمع إلا ما توده ولا تعقل إلا ما تشتهيه وتتمناه » (٧) . لكننى أرى أن هذا قلب للمسألة ، فإن الإدراك فى مثل هذه الحالة لا يصل إلى القلب (أو إلى المخ إن أحببت) إلا عن طريق الحواس ، ولا يمكن أن يقفز فوقها ويتخطاها إليه مباشرة . ثم إن الإنسان لا يحبّ بقصده ، على عكس ما يفهم من كلام العقاد . إنما يقع الحب رغم أنفه بل وغالبا دون أن يتنبه إلى وقوعه فى بداية الأمر، ثم بعد ذلك يلّون هذا الحب إحساسات صاحبه : رؤيةً وسمعًا وشمًّا ولمسًا . أما العكس فلا أظنه صحيحًا .

هذا ، ويرى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن دعوى عشق السمع كعشق البصر هى من مخترعات بشار التى لم يسبقه إليها أحد (٨) .

الهوامش

١- ٣ / ١٥٩ .

٢- ٤ / ١٢ .

٣- ٤ / ٦٤ .

٤- ٤ / ١٢٠ .

٥- ٤ / ١٩٤ ، ٢٠٦ .

٦- ٤ / ٢٠٦ .

٧- مراجعات فى الآداب والفنون / ١٢٤ .

٨- انظر مقدمة الديوان / ٥٠ .

ريق الحبيبة

كثيرًا ما يصف بشار ريق الحبيبة مشبها إياه بطعم التفاح مرة ، والشهد ثانية ، والراح مرة ثالثة . وهذا تشبيه متكافىء ، إذ كلا طرفيه يذاق باللسان . وهو فى بعض الأحيان يجعل هذا الريق شفاءً ، وفى أحيان أخرى يجعله نارا تحرق . والملاحظ أنه رغم تكرر وصف بشار لريق الحبيبة فى شعره لم يحدث قط أن أطال فى ذلك الوصف كما فعل كعب بن زهير مثلا فى مفتتح بردته حين راح يتغنى بريق سعاد فى أبيات كثيرة يتلو بعضها بعضًا مشبها إياه بخمر قد مزجت بماء بارد أُتى به من محنية فوق جبل قد هبّت عليها النسائم الباردة طوال الليل ... إلخ . والآن إلى الشواهد من شعر بشار :

أروح علــى المعــارف أريحيًّــا   وتسقينــى بريقتهــا النســاءُ (١)

* * *

ريـق سُعْـدَى ، يا ابن الدُّجَيْلِ ، الشفاءُ   فاسقنيــه . لكــل دواءٍ دواءُ (٢)

* * *

ومؤشَّــرِ ألمــى اللثــا   ت شهـيُّ طعـمِ الريــق عَذْبَــة (٣)

* * *

لاتكــن لــى الحيـاةُ إن لم تكــن لى   شربـةٌ مـن رُضابهـا غيـر غَصْـبِ (٤)

* * *

داءُ المحـب . ولـو يُشْفَـى بريقتهــا   كانـت لأدوائـه كالنار للحطــبِ (٥)

* * *

لـو مـتّ ثـم سقيتَنــى برُضَابــه   رجعـتْ حيـاةُ جنازتى بِرُضابِــه (٦)

* * *

ألا يا اسقيانــى بالرحيــق . فَنِيــتُ   ولـو بَقِيَـتْ حُبَّـى لنـا لبقيــتُ (٧)

* * *

وبذى طعم شنيب   باردٍ عذبِ اللثاتِ
طعمه من ذوب شُهْدٍ   شِيبَ بالماء الفُراتِ (٨)

* * *

كأن بريقها عسلاً جنيًّا   وطعمَ الزنجبيل وريحَ راحِ (٩)

* * *

ورضابِ ذى أشرٍ أغرّ كأنما   غُبِقَتْ مشاربه من التفاحِ (١٠)

* * *

وثغر يحكى المخبّرَ عنه   نفحةَ المسك فُتّ فى كاس راحِ (١١)

* * *

كأن ثلجا بين أسنانها   مستشركًا راحًا وتفّاحا (١٢)

* * *

ريق حُبّى أحْسوه سبعة أيـ   ـامٍ شفاءً لقرحةٍ بالفؤادِ (١٣)

* * *

إن فاها أشهى إلـ   ـىّ رضابًا ومورِدا
من جنا النحل بالنقا   خ زُلالا مبرّدا (١٤)

* * *

أيها الساقيان ، صبّا شرابى   واسقيانى من ريق بيضاء رُودِ

...

إن فى ريقها شفاءً لما بى   وسَعوطا للمُحْصَبِ الموْرودِ

...

إن دائى طغى ، وإن شفائى   غبرةٌ من رُضاب فيكِ البَرُودِ (١٥)

* * *

وكأنها شربت سلافة بابلٍ   بالساهريّة خالطتْ قِنديدا (١٦)

* * *

مؤشّر طيّب المذاقة كالرا   ح بطعم التفاح مُنْجَرِدِ
يا ليت مشربا بريقتها   أشفى به غُلّةً على كَبِدِ (١٧)

* * *

إذ نجتليها وإذ نُسْقَى على ظمإٍ   بالراح خالط أنفاسًا من القُطُرِ
من لؤلؤ أشِر الأطراف منبتُه   فى طيّب الطعم عذبٍ باردٍ خَصِرِ (١٨)

الهوامش

١- ١ / ١٠٦ .
٢- ١ / ١١٣ .
٣- ١ / ١٧٠ .
٤- ١ / ٢٦٧ .
٥- ١ / ٢٦٤ .
٦- ١ / ٢٨٠ .
٧- ٢ / ٣٩ .
٨- ٢ / ٥٣ .
٩- ٢ / ١١٢ .
١٠- ٢ / ١١٦ .
١١- ٢ / ١٤٠ .
١٢- ٢ / ١٥١ .
١٣- ٢ / ١٨٠ .
١٤- ٢ / ٢٠١ .
١٥- ٢ / ٢٧٣ .
١٦- ٢ / ٣٢٧ .
١٧- ٣ / ٦٧ .
١٨- ٣ / ٢٤٤ .

تشبيه المحبوبة بالجواهر

منذ القديم والشعراء العرب يشبّهون المرأة فى جمالها وفخامتها بالجواهر الثمينة كاللؤلؤ والياقوت والذهب . وقد توسّع بشار فى هذه الناحية فوجدنا عنده شواهد كثيرة على هذه الصورة . ومن شعراء الجاهلية الذين جروا فى هذا المضمار المرقش الأكبر ، إذ يقول :

النشر مِسْكٌ ، والوجوه دنا نير ، وأطراف الأكفّ عَنَمْ

وكذلك زهير بن أبى سلمى :

تنازعت المها شبهًا ودرّ البُـ حور ، وشاكهت فيها الظّباءُ

فأمّا ما فُوَيْقَ العقد منها فمن أدماءَ مرتَعُها خلاءُ

وأمّا المقلتان فمن مهاةٍ وللدرّ الملاحةُ والصفاءُ

ويقول طفيل الغنوى :

إن النساء ، ولو صُوِّرن من ذهب ، فيهن من هفوات الجهد تخييلُ

وقال لبيد :

من المُسِلين الرَّيْطَ ، لذٌّ ، كأنه تشرّب ضاحى جلده لونَ مُذْهَبِ

وقال النابغة :

قامت تراءى بين سجفى كلّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درة صدفية غوّاصها بَهِجٌ متى يرها يُهِلَّ ويَسْجُدِ

وبعد الإسلام يقول مثلا ابن قيس الرقيات :

حيِّ الاختين . قد أجمّ الفراقُ ودنت رحلة لنا وانطلاقُ

. . .

دُرّتا غائصٍ من الهند . مَالُ الشـ ـام يُجْبَى إليهما والعراقُ

ويقول عمر بن أبى ربيعة :

محطوطة المتنين أكمل خَلْقُها مثل السبيكة بضةً معطارا

* * *

بيضـــــــاء ناصعـــــة البيــــا　　　ض كــــدرة الصـــــدف الكنيـــــن

* * *

فطِــرن حَــذاً لِمَــا قالــت وشايعهــا　　　مثـلُ التماثيـل قـد مُوّهن بالذّهَـــبِ

ويقول جميل :

وأنــــت كلؤلـــــؤة المرزبــــــان　　　بمــــاء شبابـــك ، لــــم تُعْصَــرى

ويقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وهـى زهــراء مثــل لؤلـــؤة الغـــ　　　ـــوّاص ميـزتْ مـن جوهـر مكنـونِ

ويقول ذو الرمة عن حبيبته :

كأنهــــا درة منعمــــــــةٌ　　　مــن نســوة كــنَّ قبلهــــا دُرَرَا

* * *

حــواره فــى دَعَــج ، صفراء فى نَعَج　　　كأنهــا فضـــة قـــد مسَّهــا ذَهَــبُ

ويقول الأخطل مستلهمًا بيت لبيد الذى مرّ قبل قليل :

لـــــذّ تقبلـــه النعيـــم كأنــــما　　　مُسِحْــت ترائبــه بمــــاء مذهـــبِ

ولقد رأينا هذه الصورة تنتقل من ميدان الغزل ووصف النساء إلى المديح وتفخيم شأن الملوك . قال ابن قيس الرقيات فى عبد الملك بن مروان :

يأتلــق التـــاج فــوق مفرقـــه　　　علــى جبيـــن كأنـــه الذهـــبُ

وهو البيت الذى لم يعجب الخليفة الأموى ورأى أن مدح الشاعر لابن الزبير بالتقوى أفضل منه .

... وهكذا حتى نصل إلى بشار ، فنراه يكثر من هذا التشبيه وينوع فيه : فمن ذهب إلى لؤلؤ إلى درّ إلى ياقوت إلى زبرجد إلى فضة . ولا يقتصر الأمر على جسدها وصدرها بل يتعداه إلى صوتها وكلامها . قال :

بيضــاء صافيــة الأديــم ترعرعـــت　　　فــى جلــد لؤلــؤة وعفة راهـــبِ (١)

* * *

كالشمــس إن برقـــت مجاسدهــــا　　　تحكــى لنــا الياقـوت والذهبـــا (٢)

* * *

لــو كنــتِ غيــر فتــاةٍ كنـــتِ لؤلــؤةً　　　غالى بهــا مَلِكٌ بالتـــاج معصــوبُ (٣)

* * *

وجيــــدٌ يشبــــه الــــدُرّ　　　كجيـــد الريـــم سُلهـــوبُ (٤)

* * *

كأنمــا خُلِقَــتْ مــن جلــد لؤلــؤة　　　نَفْسًا من العطر إن حرّكْتَها ثابــا (٥)

* * *

أنــت ياقوتـــة قـــدرتُ عليهــــا　　　لا أحـبّ الشريـك فـى الياقــوتِ (٦)

* * *

كـــأن القـــول مـــن فيـــكِ　　　لنــــــا درّ وياقــــوتُ (٧)

* * *

كأنمــا خُلِقْــت فــى قشــر لؤلــؤةٍ　　　فكــلّ أكنافهــــا وَجْــةٌ بمرصــادِ

...

بيضــــاء كالــدرة الزهــراء غُرتُهـــا　　　تصطــاد عينا ولا تُرْجَى لمصطــادِ (٨)

* * *

ومجلسِ خَمْــسٍ قــد تركتُ لحبهـــا　　　وهـن كزهر الروض أو لؤلـؤ السَّرْدِ (٩)

* * *

ونحـــرا يريـــك الــدرّ لما بــدت لنــا　　　بـــه لِبّــةٌ منهــا تزين الزبرجــدا (١٠)

* * *

مــــــن اللؤلـــــؤ والياقــــو　　　ت أو مـــن عنبـــر الهِنْــدِ (١١)

* * *

ولــو تراهــا إذا ألقـــت مجاسدهـــا　　　وأبـــرزت عــن لَبـانٍ غيـــر خـــوّار

حسبتَهـا فضـةً بيضـاء فـى ذهـب   يا حسنها فضةً فى مُذْهب حار ! (١٢)

* * *

قالـت : ولا ذنـب لى إن كنتُ جاريـةً   قـد خصّنـى بالجمال الخالـقُ البـارى

فصاغنى صيغـةً نصفيـن : مـن ذهـب   نصفى ، ونصفى كدعص الرملة الهارى (١٣)

* * *

درة حيثمـا أديـرت أضـاءت   ومشـمّ مـن حيثمـا شُمّ فاحـا (١٤)

* * *

وتخـال مـا جمعـت عليـ   ـه ثيابهـا ذهبـا وعطـرا (١٥)

* * *

درة بحريـة مكنونـة   مازهـا التاجـر مـن بيـن الدُرَرْ (١٦)

* * *

مثـلَ حُـرّ الياقـوت إن مسـه النـا   رُ جـلاه البـلاءُ فـازداد زيْنًا (١٧)

الهوامش

١- ١ / ١٦٨ .

٢- ١ / ١٧٦ .

٣- ١ / ١٩٣ .

٤- ١ / ٢٠٥ .

٥- ١ / ٢٠٩ .

٦- ٢ / ٤ .

٧- ٢ / ٢٠ .

٨- ٢ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

٩- ٣ / ٩ .

١٠- ٣ / ٣١ .

١١- ٣ / ١٢٧ .

١٢- ٣ / ١٦٨ .

١٣- ٣ / ١٦٩ .

١٤- ٤ / ٣٣ .

١٥- ٤ / ٥٦ .

١٦- ٤ / ٦٩ .

١٧- ٤ / ٢٢٢ .

تشبيه الحبيبة بالعطر

وكما تكرر فى شعر بشار تشبيه حبيبته بالجواهر الثمينة ، كذلك تكرر تشبيهه إياها بعطر هذه الزهرة أو تلك . وإذا كانت التشبيهات من النوع الأول غير عادية من شاعر حُرِم نعمة البصر ، فإن النوع الآخر منها يبدو منسجما مع ظروف عاهته ، فهو وإن لم يمتعه الله بالنظر لم يحرمه من الشمّ . قال :

وإنى لمستشفى عبيدة ، إنها　　بدائى ، وإن كاتمتُه ، لطبيبُ
كقارورة العطار أو زاد نعتُها　　تلين إذا عاتبتُها وتطيبُ (١)

* * *

يا طَيّبَ ، سيان عندى أنتِ والطيبُ　　كلاكما طيب الأنفاس محبوبُ (٢)

* * *

كأنّ فى قرقرٍ تَضَمّنَها　　سفرجلا طيّبا وتفاحا (٣)

* * *

قضاها الله من مسكٍ　　ومن عنبرة غادةْ (٤)

* * *

من اللؤلؤ والياقو　　ت أو من عَنْبَرِ الهندِ
أو المسك ، فإن المس　　ك من أشباهه عندى (٥)

* * *

أحْرَمْتُ ريحانَ بستانٍ وناضرهُ　　حتى أشمَّك يا ريحانةَ البَلَدِ (٦)

* * *

خَودٌ عليها المسك والعبيرُ (٧)

* * *

ألا يا حبذا والله　　من أهدى لى العطرا
ومن أهدى لى الريحا　　ن قد شاب به سحرا (٨)

* * *

ألا يا نَفَس المسك الـ　　ـذى يُخْلَط بالعنْبَرْ (٩)

* * *

وزائرة ما مسَّها الطيبُ برهةً　　من الدهر ، لكنْ طيبُها الدهرَ فائحُ (١٠)

* * *

أشْبَهَكِ المسكُ وأشبهتِهِ　　قائمةً فى لونه قاعدةْ (١١)

* * *

كأنها صيغتْ لمن نالها　　من عنبرٍ بالمسك معجونِ (١٢)

* * *

حوراء جاءت من الفردوس مقبلةً　　فالشمس طلعتها ، والمسك ريّاها (١٣)

الهوامش

١- ١ / ١٧٩ .

٢- ١ / ١٩٣ .

٣- ٢ / ١٥٤ .

٤- ٣ / ٦٢ .

٥- ٣ / ١٢٧ .

٦- ٣ / ١٤١ .

٧- ٣ / ١٨٤ .

٨- ٣ / ٢٣٧ .

٩- ٣ / ٣٠٣ .

١٠- ٤ / ٣٣ .

١١- ٤ / ٣٤ .

١٢- ٤ / ١٩٩ .

١٣- ٤ / ٢٣٠ .

تشبيه الحبية بالروضة

تكرر عند بشار تشبيهه حبيبته بالروضة فى ألوانها الزاهية أو زهورها وعطرها . وهذه شواهد على ما نقول :

كأنما ألبستَها روضةً ... ما بين صفراءَ وخضراءِ (١)

* * *

ومجلسِ خَمْسٍ قد تركت لحبها ... وهن كزهر الروض أو لؤلؤ السَّرْدِ (٢)

* * *

كأن عليها روضةً يوم ودَّعَتْ ... بأقوالها خوفًا ، وراحت ولم تَعُدْ (٣)

* * *

كأنها روضة منوَّرةٌ ... تجمع طيبا ومنظرا حسنا (٤)

الهوامش

١- ١ / ١٢٩ .

٢- ٣ / ٩ .

٣- ٣ / ٦٩ .

٤- ٤ / ٢٢٣ .

تشبيه المسموع بالمرئى والمشموم والمذوق

تكرر فى شعر بشار تكررًا ظاهرا تشبيه حديث الحبيبة بأشياء مرئية ، وكذلك بأشياء مشمومة أو مذوقة باللسان . فأما التشبيه بالمشمومات والمذوقات فذلك هو الوضع المنتظر من شاعر كبشار وُلِد كفيفا فهو لا يدرك المرئيات ولا يحقق شيئًا منها . إنما المشكلة فى تشبيهه المسموع بالمرئى ، وقد كان العكس هو المفروض أن يكون ، لأن حاسة البصر معطلة عنده فى حين أن أداة السمع عنده ، ككل المكفوفين ، أنشط منها عند البصراء .

وقد فسَّر د. محمد النويهى صنيع بشار هذا بأنه يريد أن « ينقل شعوره الدقيق إلى المبصرين بلغة يفهمونها ... يريد أن يصور للناس اللذة السمعية التى يجدها فى الاستماع إلى صوتها (أى صوت المغنية) ذى الأنغام المتعددة الدقيقة ، فلجأ إلى تشبيه يستطيعون أن يفهموه ، فشبه تعدد هذه الأنغام بتعدد الألوان والظلال التى يرونها بعيونهم ويصفونها فى حديثهم وأدبهم الشعرى والنثرى » (١) .

أما د. نجيب البهبيتى فإنه يعيب هذا اللون من التشبيه عند بشار ، ويرى أن التشبيه عند السابقين كان « يقوم على الدقة الصارمة فى ملاحظة وجوه الشبه بين المشبه والمشبه به » و « على مطابقة الصورة للصورة المطابقةَ الموضِّحةَ المقوية » ، وأنه « لما جاء بشار لم يكن له من القدرة ما يسعده بهذا القدر منه ولا بما يقاربه ، فمال به دون شعور منه بميله إلى التشبيه التقريبى ، ونقله بذلك إلى الغموض بعد أن كانت وظيفته التوضيح ، واعتمد به على الإبهام بعد أن كانت غايته الدلالة ، فهو يوضح محدودا بغير محدود » . ثم يسوق أبيات بشار التى يشبه فيها حديث حبيبته بقطع الرياض ، معقبا بقوله : « ما هى العلاقة بالضبط بين ترديدها حديثها وبين قطع الرياض التى كستها الزهور ؟ إنك تستطيع أن تنتحل وجوها كثيرة ، ولكنك لن تقنع بالوقوف عند واحد منها ، ولن تُقنع سواك بالتزام واحد . ذلك أن ركنى التشبيه

أحدهما مسموع وثانيهما مرئى ، والمقارنة بينهما عند من يسمع ويرى جميعا غيرها عند من يسمع ولا يرى . والتشبيه من بشار طريقة من طرق الدلالة بالقدر الذى تهيّأ له ، إذ الصورة عنده موهومة ، والحديث عنده مسموع . فهو تشبيه محسوس عنده بغير محسوس ، وهى عندك تشبيه محسوس بمحسوس ، ولكنهما متخالفان فى نوعهما ، بعيدان فى وجه تقاربهما . ومن هنا كان عليك أن تتوهم لتفهم » (٢) .

ثم يعلّل د. البهبيتى هذا الحرص من بشار على تشبيه المسموع بالمرئى بولعه بأن يسبق المبصرين (٣) . وهو تعليل صحيح فيما يبدو لى . غير أنى لا أوافق الأستاذ الدكتور على هذه الحملة على بشار ، فقد بَذَل الشاعر جهده واستلهم تجربته التى حصّلها من طريق السماع والتقاليد الشعرية والتخيل أيا كانت طبيعةُ هذا التخيل وقدرتُه . ثم إن العبرة بالإصابة فى التشبيه ، وهو ما تحقق لبشار ، فصُوَره التى من هذا النوع جميلة مثيرة موحية .

كذلك ينبغى التنبيه إلى أن ما فعله بشار وغيره فى هذا المضمار قد كان إرهاصًا بما جاء الرمزيون فى العصر الحديث وصنعوه مما عُرف بـ « تراسل الحواسّ » .

ويركز د. عبد الفتاح صالح نافع فى مناقشته رأى د. نجيب البهبيتى على مسألة الغموض الذى رمى به شعر بشار هذا ، مؤكدا أن الغموض ليس عيبًا فى الشعر وأن كثيرا من المبصرين قد آثروه على الوضوح (٤) ، وكأن هذا اللون من التشبيه عند بشار غامض فعلاً ، مع أنه يخلو من ذلك . إنه طريقة جديدة فى التشبيه ، ولكنها ليست غامضة .

على أية حال ، هذه هى الأبيات التى شبه فيها شاعرنا الأصوات المسموعة بأشياء مُبْصَرة أو مشمومة أو مذوقة :

وحديث كأنه قطع الرو   ض زهتْهُ الصفراءُ والحمراءُ (٥)

* * *

مصوَّرة يحار الطرف فيها   كأن حديثها سُكْرُ الشرابِ (٦)

* * *

بدلالٍ وحديثٍ   مثل تنوير النباتِ (٧)

* * *

لها منطقٌ فاخرٌ فاتنٌ   كحلى العرائس يُستَمْلَحُ (٨)

* * *

كأن لسانا ساحرا فى لسانها   أعينَ بصوتٍ كالفِرِنْدِ حديدِ

كأن رياضا فُرِّقت فى حديثها   على أنَّ بَدْوًا بعضُه كبُرُودِ (٩)

* * *

كالحَلْى حُسْنُ حديثها   ودلالها إحدى المصايدْ (١٠)

* * *

ولها مضحك كَغُرّ الأقاحى   وحديثٌ كالوشى وشى البُرُودِ (١١)

* * *

يساقطن للزير الموكَّل بالصبا   حديثا كوشى البُرْد يَعْرِين فى الوَرْدِ (١٢)

* * *

فبتَّ أبكى من حب جاريةٍ   لم تجزنى نائلا ولم تكدِ

إلا حديثا كالخمر لذته   تكون سكرا فى الروح والجسدِ (١٣)

* * *

أعُبَيْدُ ، هلا تذكرين فتًى   تيَّمتِه بحديثك السِّحْرِ (١٤)

* * *

وما قولُكِ لى : « أرضيك » إلا سُكَّرٌ مُسْكِرْ (١٥)

* * *

وكأن رجع حديثها   قطعُ الرياض كُسِينَ زَهْرا (١٦)

* * *

وكـأن تحـت لسانهـا | هـاروتَ ينفـثُ فيـه سحـرا (١٧)

* * *

كـأن كلامـه يـوم التقينـا | رُقَى يأخـذن فى طولٍ وعَـرْضِ (١٨)

* * *

جـرى اللؤلـؤ المكنـون فوق لسانهـا | لزوارهـا مـن مزهـرٍ ويـراع (١٩)

* * *

وإنـا ليجـرى بيننـا حين نلتقـى | حديـث لـه وشى كوشى المطارف (٢٠)

* * *

وبكـرٍ كنـوار الربيـع حديثُهـا | تـروق بوجـه واضـحٍ وقـوامِ (٢١)

* * *

ودعجـاء المحاجـر مـن مَعَـدٍّ | كـأن حديثهـا ثَمَـرُ الجِنـانِ (٢٢)

وبالنسبة لتشبيه بشار صوت المرأة بقطع الرياض يقول د. عبد الفتاح صالح نافع إنه « كـان أول من اتجـه إلى تصويـر حديث المرأة بقطع الرياض المتنوعة الأزهار والنوار » (٢٣) .

الهوامش

١- شخصية بشار / ٢٤٢ - ٢٤٤ .

٢- د . نجيب البهبيتى / تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / ٣٥٦ - ٣٥٧ .

٣- السابق / ٣٥٩ .

٤- انظر كتابه « الصورة فى شعر بشار بن برد » / ١٩٣ - ١٩٤ .

٥- ١ / ١١٩ .

٦- ١ / ٢٤٩ .

٧- ٢ / ٣٨ .

٨- ٢ / ١٠٨ .

٩- ٢ / ١٦٠ .

١٠- ١٢ / ٢٤٥ .

١١- ٢ / ٢٧٢ .

١٢- ٣ / ٩ .

١٣- ٣ / ٦٦ .

١٤- ٣ / ٢٢٥ .

١٥- ٣ / ٣٠٤ .

١٦- ٤ / ٥٥ .

١٧- ٤ / ٥٦ .

١٨- ٤ / ٩٤ .

١٩- ٤ / ٩٤ .

٢٠- ٤ / ١٠٧ .

٢١- ٤ / ١٨٣ .

٢٢- ٤ / ١٩٨ .

٢٣- د . عبد الفتاح صالح نافع / الصورة فى شعر بشار بن برد / ١٩١ .

تشبيه الحبيبة بالشمس والقمر

يكثر فى الشعر العربى القديم تشبيه الحبيبة فى جمالها وسطوع بهائها بالشمس والقمر . وهذا أمر من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى إيراد الشواهد عليه . ويكثر ذلك أيضا عند بشار ، الذى لا يمتاز فيه بشيء ، فصوره فاترة ليس فيها حيوية ولا تقدم جديدا . وإليك بعضا منها :

لا ، بل هى الشمس أُتيحت لنا   وسواس همّ زَعَمَ الناسبُ (١)

* * *

صورةُ الشمس فى قناع فتاة   عرضتْ لى فليس لُبّى بِلُبّ (٢)

* * *

أهو الحبيب بدا لعينك أم دنت   شمس النهار إليك فى جلبابِه ؟ (٣)

* * *

وصورةُ الشمس جلت عن وجهها   بعد عينى جؤذَرٍ فى المُنْتَقَبْ (٤)

* * *

كالبدر فى العين إذا عُطّلت   وفى المُحَلّى كالمحلّ القشيبْ (٥)

* * *

قمر الليل إذا ما انتقبت   وهى كالشمس إذا لم تنتقِبْ (٦)

* * *

فقلت لنفسى : الشمس جلّت لناظرٍ   أم البدر يُجْلَى فى قناع فتاةِ ؟ (٧)

* * *

وما صدقت رؤياى يَحْفُفْنَ مركبا   وفى المركب المحفوف بدرٌ متوّجُ (٨)

* * *

إلا تكن قمر السماء فإنها   مثل المَرِيعةِ تُعجب الروّادا (٩)

* * *

هى بـدر السماء ، لا بل هى الشمـ ... ـس تدلّتْ فى مُذْهَبٍ وجِسَادِ (١٠)

* * *

فـأدرك مجلودى جوى الحـبّ كاعـبٌ ... كشمس الضحى فى الفائقات الخرائدِ (١١)

* * *

فقلتُ : شمس الضحى فى مِرْط جاريـةٍ ... يا من رأى الشمس فى مِرْطٍ وأبرادِ ؟ (١٢)

* * *

مصـورة فيهـا علـى العيـن فلتـةٌ ... وكالشمس تمشى فى الوشاح وفى العِقْدِ (١٣)

* * *

خليفـةُ الشمـس ، تكفى الحىَّ غيبتَها ... كأنما صاغهـا الخـلاقُ من نُورِ (١٤)

* * *

وكأنهـن أهلّـةٌ ... تحـت الثيـاب رَفَقْنَ شمسا (١٥)

* * *

أتتنـى الشمـس زائـرةً ... ولم تـك تبـرح الفَلَكـا (١٦)

الهوامش

١- ١ / ٢٢٦ .

٢- ١ / ٢٦٧ .

٣- ١ / ٢٨٠ .

٤- ١ / ٢٥٠ .

٥- ١ / ٢٦١ .

٦- ١ / ٢٦٢ .

٧- ٢ / ٤٣ .

٨- ٢ / ٩٥ .

٩- ٢ / ١٦٨ .

١٠- ٢ / ١٧٩ .

١١- ٢ / ٢٦٢ .

١٢- ٢ / ٣١٩ .

١٣- ٣ / ٨ .

١٤- ٣ / ٢٢١ .

١٥- ٣ / ٨٣ .

١٦- ٤ / ١٢٢ .

إضاءة الحبيبة الظلام بنور جمالها

تكرر فى الشعر العربى وصف المرأة الجميلة بأنها تضىء الظلام ببهائها ورونقها ونور جمالها . ومن هذا قول امرىء القيس فى معلقته :

تضى الظلام بالعشاء كأنها ... منارةُ مُمْسَى راهبٍ متبتّلِ

وقول النابغة الجعدى فى ابتسامة صاحبته :

إذا تبسمت فى الليل والليلُ دونها ... أضاء دُجَى الليل البهيمِ ابتسامُها

وقول عمر بن أبى ربيعة :

خُودٌ تضىء ظلام البيت صورتُها ... كما يضىء ظلامَ الحندس القَمَرُ

وقول كثير عزة :

يقول العدا يا عزّ : قد حال دونكم ... شجاع على ظهر الطريق مصمّمُ

فقلت لها : والله لو كان دونكم ... جهنم ما راعت فؤادى جهنم

وكيف يروع القلبَ يا عزّ رائعٌ ... ووجهك فى الظماء للسَّفْر مَعْلَمٌ ؟

وقول الأحوص :

رام قلبى السلوّ عن أسماءِ ... وتعزّى ، وما به من عزاءِ

سُخْنَةٌ فى الشتاء ، باردة الصيـ ... ـيف ، سراج فى الليلة الظلماء

ويقول بشار :

خود إذا جنح الظلام فإنها ... تكفى المؤانسَ فقدةَ المصباحِ (١)

* * *

لست أنسى غداة قامت تهادى ... للمصلّى فطار قلبى وطاحا

فى نساء إذا أردن ضياءً ... لظلام جعلنها مصباحا

فأضاءت لهن داجية اللّيـ ... ـل ، وجلّتْ عما تَجِنّ الوِحاحا (٢)

* * *

تسرّ عينًا ، وتَلْقَى الشمس غيبتها ... كأنما خُلقت من ضوء مصباحِ (٣)

* * *

وكيف لا يصبو إلى غادة ... تكفيك فى الظلماء مصباحا ؟ (٤)

* * *

ذكّرك البدرُ وجهها فَتَلا : ... لله وجه الحبيب مصباحا ! (٥)

* * *

تزين بِخَلْقِ وَجْهَهَا ويزينُه ... أغرُّ كمصباح الظلام وَجِيدُ (٦)

* * *

الهوامش

١- ٢ / ١١٧ . وقد تكرر هذا البيت بنصه فى ٢ / ١٢٨ .

٢- ٢ / ١٢٨ .

٣- ٢ / ١٣٥ .

٤- ٢ / ١٥١ .

٥- ٢ / ١٥٤ .

٦- ٢ / ١٦٣ .

ترف حبيباته

يحرص كثير من الشعراء المحبين على إبراز الترف الذى تعيش فيه صواحبهن ، إذ المرأة المترفة أكثر جاذبية وأشد استثارة لشعور التحدّى ولذة الظفر عند المحبّ ، لأن الغنى والترف يمثلان عقبة كأداة فى سبيله ، فإذا انتصر عليها شعر بالفخر والعزّة يملآن كيانه . قال امرؤ القيس :

.... نـؤوم الضحـا جـادت بريّا القرنفُـلِ

وقال المرقش الأكبر :

نواعـم لا تعالـج بـؤس عيـش أوانـس لا تـروح ولا تـرودُ

وقال عدى بن زيد :

بنـاتِ كـرامٍ لـم يُربّـنَ بِضـرّةٍ دمًـى شرقـاتٍ بالعبيـر روادعـا

وقال المنخّل اليشكرى :

ولقـد دخلـت علـى الفتـا ة الخـدرَ فـى اليـوم المطيـرِ

الكاعـب الحسنـاء تَـر فُـلُ فـى الدِّمَقْـسِ وفـى الحريـر

وقال حميد بن ثور الهلالى :

من البيض ، عاشت بين أمّ عزيزة وبيـن أب بـرّ أطـاع وأكرمـا

منعمـة ، لـو يصبـح الذرّ ساريـا على جلدهـا بضّتْ مدارجـه دمـا

وقال عمر :

وأعجبهـا مـن عيشهـا ظـلُّ غرفـةٍ وريـانُ ملتـفُّ الحدائـق أخضـرُ

ووالٍ كفاهـا كـلَّ شـىء يهمهـا فليسـت لشىءٍ آخر الليـل تَسْهَـرُ

وقال أيضا :

ومَدَّ عليهـا السجـفَ يـوم لقيتُهـا علـى عجـل تُبّاعُهـا والخـوادمُ

فلـم أستطعهـا ، غيـر أن قد بدا لنا عشيـةَ راحـت كفُّهـا والمعاصـم

معاصم لم تضرب على البُهْمِ فى الضحا عصاهـا ، ووجـه لم تَلُحْهُ السمائمُ

وقال :

يا بنت خير الملوك مأثرةً   لينى لذى حاجة ومرتقب

وقال جميل :

يكاد فضيض الماء يخدش جلدها   إذا اغتسلت بالماء ، من رقة الجِلْدِ

وقال أيضا :

إذا حميت شمس النار اتقينها   بأكسية الديباجِ والخزّ ذى الخَمْلِ

وقد قيل عن بشار إن صواحبه كنّ من الجوارى والقيان اللائى لا يحفلن بشىء غير التهتك الجسدى والشهوة . ولكن شعره حريص على أن يبين لنا أنهن من النساء المترفات ممن يعشن فى القصور وتقوم على خدمتهن الوصائف ويخطرن فى الثياب الحريرية النفيسة . لا ، بل إنه قد ذكر إحدى حبيباته بوصفها من بنات الملوك . ما مدى صدق بشار فى ذلك ؟ الله أعلم . غير أننا هنا إنما نتحدث عما يقوله فى شعره . وهذا هو ما يقول :

من بنات الملوك لا ...   نماها إلى العلاءِ العلاءُ (١)

* * *

فى القصر ذى الشرفات البيض جاريةٌ   ريّا الترائب والأرداف والقُضُبِ (٢)

* * *

رحتُ فى حبها وراحت دُوارا   بين أترابها عليها الحجابُ

فى جنانٍ خضرٍ وقصرٍ مشيدٍ   قيصرىٌ حفّت به الأعنابُ (٣)

* * *

لها نَصَفَاتٌ حولها يستلمنها   كما استلم الركنَ النواسكُ بالراحِ (٤)

* * *

قالت لسعدى وأخرى من مناصفها :   ما هاج هذا وقد خُيّلتُه هجدا ؟ (٥)

* * *

أينَ ألوفٌ للحجا   لِ ، ودونه قَصْرٌ مشيدُ

من حوله حرّاسُهُ   وببابه أسدٌ مريدُ (٦)

* * *

قالت لحوراء من مناصفها   كالريم لم تكتمل من الرَّمَدِ : (٧)

* * *

سبّحْ خليلى ، وقل : يا حسن تصويرٍ !   راحت سُلَيْمى تهادىَ فى المقاصيرِ (٨)

* * *

وتَقَلَّبين وأنت لاهيةٌ   فى الخزِّ والقُوهىِّ والعِطْرِ (٩)

الهوامش

١- ١ / ١١٦ .
٢- ١ / ٢٦٣ .
٣- ١ / ٣٣٤ .
٤- ٢ / ١٢٠ . والنَّصَفات : الخدم .
٥- ٢ / ١٩٢ . والمناصِف : الخدم .
٦- ٢ / ٢١٤ .
٧- ٣ / ٦ .
٨- ٣ / ٢٢٠ .
٩- ٣ / ٢٢٥ .

تصوير الحبيبة بين صواحبها وخوادمها

من بين ما تكرر عند الشعراء الغزليين العرب القدامى ، فى مجال وصف الحبيبة ، تصويرها وهى بين صواحبها أو خوادمها . فالشاعر فى هذه الحالة لا يصوّر حبيبته مفردة ، بل يأخذ لها صورة جماعية هى واسطة العقد فيها ، وكأنه يريد أن يبرز جمالها وسط الأخريات اللاتى يزدنها بجمالهن جمالا فوق جمال . قال عدى بن الرقاع :

لولا الحياء وأن رأسى قد عثا ... فيه المشيب لزرتُ أمَّ القاسمِ
وكأنها وسط النساء أعارها ... عينيه أحورُ من جآذر جاسم

ومن شعر عمر بن أبى ربيعة :

صاد قلبى اليوم ظبىٌ ... مقبل من عرفاتِ
فى ظباء تتهادى ... عامداً للجمرات
إننى لست بناسٍ ... ذلك الظبىَ حياتى

* * *

فعاجت بأمثال الظباء نواعم ... إلى موقف بين الحجون إلى النَّخْلِ
فقالت لأتراب لها شَبَهِ الدمى : ... أطلن التمنى والوقوف على شغلى
وقالت لهن : ارجعن شيئا ، لعلنا ... نعاتب هذا أو يراجع فى وصل

* * *

أبْرَزُوها مثل المهاة تهادى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ

* * *

فقامت إليها حرتان عليهما ... كساءان من خزٍّ دمقسٍ وأخضَرِ

* * *

فتراءت حتى إذا جُنَّ قلبى ... سترتها ولائدٌ بالثيابِ

ويقول الوليد بن يزيد :

برزت كالهلال فى ليلة غاب نَحْسُها

بين خمسٍ كواعبٍ أكْرمُ الخمس جنسُها

* * *

قد كنتُ أحسب أننى جَلْدُ القُوَى حتى رأيت كواعبًا أتربا

يرفلن فى وشى البرود عشية مثل الظباء وقد مُلِئْنَ شبابا

قرَّبن حوراء المدامع طفلةً أربْيْنَ من عُجْبٍ بها إربابا

تلك التى لاشك حقا أنها خُلِقتْ لِحَيْنِكَ فتنةً وعذابا

ويقول العباس بن الأحنف :

كأنها حين تمشى فى وصائفها تخطو على البيض أو خُضْر القوارير

ويقول شاعرنا عازفا على نفس الوتر :

عشية قامت بالوصيد تعرّضا وقام نساء دونها وإماءُ (١)

* * *

تمشى الهوينى بين نسوتها مَشْىَ النزيف صَفَتْ مشاربُهُ (٢)

* * *

وما صدقت رؤياى يحففن مركبا وفى المركب المحفوف بدرٌ متوّجُ (٣)

* * *

لها نَصَفات حولها يستلمنها كما استلم الركنَ النواسكُ بالراحِ (٤)

* * *

قالت لسعدى وأخرى من مناصفها : ما هاج هذا وقد خُيِّلتُه هجدا ؟ (٥)

* * *

عقيلة أتراب يُقَوّمن حولها إذا رُحْنَ أمثال الغصون الموائدِ (٦)

* * *

لمَّا طلعن حففنها وأصخن ، ما يهمسن همسا (٧)

الهوامش

١- ١ / ١٢٦ .

٢- ١ / ٢١٩ .

٣- ٢ / ٩٥ .

٤- ٢ / ١٢٠ . والنَّصَفات : الخدم .

٥- ٢ / ١٩٢ . والمناصف : الخدم .

٦- ٢ / ٢١٠ .

٧- ٤ / ٨٣ .

لا هى إنسيه ولا هى جنية

ذكر بشار أكثر من مرة فى شعره أن صاحبته لا تنتمى إلى الإنس ولا إلى الجن . يقصد أنها خلق خاص نسيج وحده ، فهى لا يشبهها أحد فى جمالها وجاذبيتها :

ليست من الانس ، وإن قلتها : « جنيةٌ » قيل : الفتى كاذبُ (١)

* * *

جنّية الحسن ، لا بل فى مجاسدها ما لم تر العين بين الجن والبَشَرِ (٢)

* * *

جنيّة إنسيّةٌ أو بين ذاك أجلُّ أمرا (٣)

وقد ورد هذا المعنى أيضًا عند الشاعر فى البيت التالى ، وهو ليس من الشعر الغزلى ، بل فى وصف هاتف من الهواتف الذين كان العرب يعتقدون أنهم يسكنون الفلوات :

هو الخَنْفُ لا إنسٌ ولا نْجلُ جِنّةٍ يعيش ولا يغذوهُ أمّ ولا أبُ (٤)

وقد جاء هذا المعنى فى البيت التالى للعباس بن ألاحنف :

ليست من الإنس إلا فى مناسبة ولا من الجنّ إلا فى التصاويرِ

الهوامش

١- ١ / ٢٢٦ .

٢- ٣ / ٢٤٦ .

٣- ٤ / ٥٦ .

٤- ١ / ٢٩٩ . والمقصود بالخَنْف هاتف الفلاة التى كان الشاعر يقطعها .

تهييج الحمام لأشجانه

هذا معنى تعاوره الشعراء العرب . وهو من الشهرة بحيث إننا لسنا فى حاجةٍ إلى الاستشهاد عليه بأقوالهم . وقد كرره بشار فى أشعاره تكريرا ملحوظا . وهذه أمثلة على ذلك :

طرب الحمامُ فهاج لى طربا ... رُبما يكون تذكّرى نَصَبَا (١)

* * *

لولا الحمام وطيف جارية ... ما شفّنى حبّ ولا كَرَبا (٢)

* * *

لا غَرْوَ إلا حَمَامٌ فى مساكنهم ... يدعو هديلاً فيستفْرِى به الطَّرَبُ (٣)

* * *

وقد زادنى شوقا هديلُ حمامةٍ ... على إلفها تبكى له وتُطربُ (٤)

* * *

إذا شئتُ أبكانى الحمامُ بصوته ... وهاج علىّ الشوقَ طولَ سباتى (٥)

* * *

فلستُ بِسَالٍ ما تغنّت حمامةٌ ... وما شاق رهبانَ النصارى مسيحُها(٦)

* * *

فلست براجع ما حن إلفٌ ... وما هتف الحمامُ ببطن وادِ (٧)

* * *

وذكّرنى الحمامُ فراقَ إلفٍ ... على الروحاء ليس له مَعَادُ (٨)

الهوامش

١- ١ / ١٧٥ .
٢- ١ / ١٧٦ .
٣- ١ / ٢٣٠ .
٤- ١ / ٣٤١ .
٥- ٢ / ٤٤ .
٦- ٢ / ١٤٣ .
٧- ٣ / ٢٤ .
٨- ٣ / ٥١ .

هاروت وماروت

كررّ بشار هذين الاسمين فى شعره الغزلى مرتبطين بما هو معروف عنهما من السَحر :

لو قدرنا على رُقى سحر هارو ت طلبنا الوصال بالتحبيبِ (١)

* * *

كأنه هاروتُ يوم اغتدى يدير عينيه بتقليبِ (٢)

* * *

وإن أقبلت فالعينا ن هاروتٌ وماروتُ (٣)

* * *

فكأن ما سَمِعَتْ له بحديثها هاروتُ يسلب مقلتيه رُقادا (٤)

* * *

كأن قلبى إذا ذكراكمو عرضت من سحر هاروت أو ماروت فى عُقَدِ(٥)

* * *

وكأن تحت لسانها هاروتَ ينفث فيه سحرا (٦)

وفى كتاب « الصورة فى شعر بشار بن برد » للدكتور عبدالفتاح صالح نافع ، تعليقًا على البيت الأخير ، أن « هاروت يُضرب به المثل وينسب إليه السحر دون صاحبه ماروت » (٧) . لكنَّ هاهو ذا بشّار فى شاهدين على الأقلّ يذكر ماروت أيضا ولا يكتفى بهاروت وحده ، علاوة على أنهما قد ذُكرا فى القرآن معًا وفى سياق حديثه عن السحر والسحرة (٨) .

الهوامش

١- ١ / ٢٧١ .

٢- ١ / ٣٧٠ . والبيت فى وصف غلام اتهم به بشارٌ حمادا .

٣- ٢ / ٢١ .

٤- ٢ / ١٦٩ .

٥- ٢ / ٣١٦ .

٦- ٤ / ٥٦ .

٧- الصورة فى شعر بشار بن برد / ١٩٥ .

٨- البقرة / ١٠٢ .

الرسول بينه وبين صواحبه

يذكر صاحب « الأغانى » أن مصعبا عم الزبير بن بكار قد خلع على ابن أبى ربيعة الريادة فى وصف الرسل بينه وبين صواحبه (١) . والحقُّ أنه يكثر فى شعر عمر ذلك . لكنَّ سحيمًا عبد بنى الحسحاس قد ذكر الرسل فى شعره قبله (٢) . بل إن لعنترة أبياتًا قص فيها كيف أنه أرسل جاريته لتتحسس له من أخبار حبيبته ، وإن لم يذكر أنه بعثها برسالة منه إلى تلك الحبيبة . قال :

يا شاة ماقَنَصٍ لمن حلّت له   حَرُمتْ علىَّ ، وليتها لم تَحْرُمِ
فبعثْتُ جاريتى فقلت لها : اذهبى   فتحسسى أخبارها لى واعلمى
قالت : رأيتُ من الأعادى غرة   والشاة ممكنة لمن هو مُرْتَمِ

ولكثيِّر ، وهو معاصر لعمر بن أبى ربيعة وجميل ، الأبيات التالية فى رسالة بعثه بها جميل إلى صاحبته بثينة ، ولكنه تظاهر بأن الكلام موجه إلى عزة صاحبته هو :

فقلت لها : يا عزّ ، أرسل صاحبى   إليك رسولاً ، والموكَّل مرسلُ
بأن تجعلى بينى وبينك موعدا   وأن تأمرينى : ما الذى فيه أفعل ؟
وآخر عهدى منكِ يوم لقيتنِى   بأسفل وادى الدَّوْم والثوبُ يُغْسَلُ

وللفرزدق يذكر هو أيضا رسولاً :

فأبلغهن وحى القول عنى   وأدخل رأسه تحت القرامِ
...
فقلن له : نواعدك الثريَّا   وذاك إليه مجتمع الزحامِ
ثلاث واثنتان ، فهنَّ خَمْسٌ   وسادسة تميل إلى الشّمامِ

وقد ذكر بشار كذلك فى شعره الرسول فقال :

واهًا بأم محمد ورسولها   ورقاد قيِّمها وسُكْر الحاجبِ ! (٣)

* * *

إن الرسول الذى أرسلتِ غادرنى   بِغُلّة منكِ مثل حرّ النار مشبوب (٤)

* * *

أيها الناصح الرسول إليها ،   قل لها عن متيَّم القلب صبّ (٥)

* * *

ورسولاً بات يسرى   فى هواكم بالكتابِ (٦)

* * *

لقد أرسلتْ صفراءُ نحوى رسولها   لتجعلنى صفراءُ ممن أضلَّتِ (٧)

* * *

كيف لم تذكرى الرسول إلينا   وقعودى إليك أرعى الصباحا ؟ (٨)

* * *

لا عهد لى بالرسول يخبرنى   عنها ، فنفسى من ذاك تستَعِرُ (٩)

بشار إذن فى ذكر الرسول فى شعره يجرى على تقليد شعرى موجود على الأقل عند سحيم صاحب الشعر الشهوانى وابن أبى ربيعة اللاهى المعجب بنفسه ، وجميل بثينة المحبّ العذرى ، والفرزدق شاعر المدح والفخر . وليس صحيحًا من ثم أن شاعرنا فى هذا التقليد قد تأثر بالشعراء العذريين وحدهم كما يرى د. عبد الفتاح صالح نافع (١٠) .

الهوامش

١- انظر « الأغانى » / مؤسسة جمال للطباعة والنشر / بيروت / ١ / ١٢٠ .

٢- انظر ديوانه / ١٩ .

٣- ١ / ١٦٧ .

٤- ١ / ١٩٤ .

٥- ١ / ٢٦٧ .

٦- ١ / ٢٧٣ .

٧- ٢ / ١٠ .

٨- ٢ / ١٢٦ .

٩- ٣ / ٢٦٤ .

١٠- انظر كتابه « الصورة فى شعر بشار بن برد » / ٢٤٦ .

الرسالة الشعرية عند بشار

يفهم من كلام د. مصطفى الشكعة أن قيام الرسائل والكتب بدور بين العاشقين فى الشعر الغزلى هو ظاهرة جديدة فى العصر العباسى تابعة لإجادة المرأة القراءة والكتابة ، وأن العباس بن الأحنف هو الحصان المجلى فى ذلك (١) . كما ذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى مقدمة ديوان بشار أن بشارا هو أول من نظم الشعر على طريقة المراسلة ، وذلك فى رسالة شعرية بعث بها إلى عبدة ، ومطلعها :

من المشهور بالحبّ ... إلى قاسية القَلْبِ

سلام الله ذى العرش ... على وجهك يا حبّى

فأما بعد يا قرَّ ... ة عينى ومُنَى قلبى

... إلخ (٢) .

وقد أكد د. محمد النويهى ما قاله الشيخ ابن عاشور ، إذ جاء فى كتابه « شخصية بشار » عن الأبيات السالفة الموجهة إلى عبدة : « فى هذه المقطوعة يخترع (بشار) فنا تام الجدة ، هو فن المراسلة الشعرية » (٣) .

والحقيقة أنه لا أحد يستطيع أن يشاح فى أن بشارًا قد نظم الرسالة الشعرية متمثلة فى هذه الأبيات المطربة الجميلة ، بل نزيد على ذلك أن له أكثر من رسالة شعرية أخرى منه إلى حبيبته أو إلى قومها أو منها إليه . بيد أنّنا لا نستطيع مشاركة هؤلاء الأساتذة الكرام ، رغم احترامنا لهْم ، فى القول بأن بشارا أو العباس هو رائد هذا الفن الشعرى . لقد عرف ابن أبى ربيعة الرسالة الشعرية الغزلية قبل بشار بزمن طويل . ومن ذلك رسالة كان قد أرسلها مع أمةٍ له وأمرها بتوصيلها إلى كلثم بنت سعد المخزومية ، التى انتهى أمره معها بالزواج . وهذا مطلع الرسالة :

من عاشق صبّ يُسِرُّ الهوى ... قد شفَّه الوجدُ إلى كُلْثُمِ

رآتكِ عينى فدعانى الهوى ... إليك للحَيْن ولم أعلم

قتلْتِنا ، يا حبذا أنتمو ! ... فى غير ما جرم و لا مأثم

وفيها يقول :

وجالسيني مجلساً واحداً ... من غير عارٍ ولا محرمِ

ومن رسائله أيضا الرسالة الآتية ، وهى أطول من تلك كثيراً ، وتبدأ بقوله :

باسم الاله تحيةً لمتيَّم ... تُهْدَى إلى حسن القوام مكرّمِ

وصحيفة ضَمّنتُها بأمانة ... عند الرحيل ، إليك ، أمَّ الهيثم

فيها التحية والسلام ورحمة ... حف الدموعُ كِتَابَها بالمعجمِ

من عاشق كلف يبوء بذنبه ... ، صبّ الفؤاد معاقَبٍ لم يظلم

...

يشكو إليك بعبرة وبعَولة ... ويقول : أمّا إذ ملكتِ فأنعمى

... إلخ .

هذا من حيث الرسالة الشعرية الغزلية . وقد يكون هناك من سبق عمر إلى ذلك . أمّا بالنسبة إلى الرسالة الشعرية بوجه عام فقد عرفها الشعر الجاهلى . ولا أستشهد بأكثر من قصيدة لقيط بن يعمر الإيادى ، الذى كان كسرى ينوى غزو قومه فأرسل هو إليهم رسالة شعرية يحذرهم فيها من ذلك الغزو ، وينصحهم بالاستعداد للحرب . وفيها يقول :

سلامٌ فى الصحيفة من لقيطٍ ... إلى من بالجزيرة من إيادِ

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يَشْغَلْكمو سوقُ النِّقادِ

أتاكم منهمو ستون ألفا ... يزجّون الكتائب كالجراد

على حَنَقٍ أتينكُمُو ، فهذا ... أوانُ هلاككم كهلاك عادِ

والآن إلى رسائل بشار الشعرية :

١- رسالة مستقلة :

من المشهور بالحبّ ... إلى قاسية القلبِ

سلام الله ذى العرش ... على وجهك يا حِبّى

فأما بعد يا قمر ... : عينى ومنى قلبى

ويا نفسى التى تسكـ ... ـن بين الجنب والجنب

لقد أنكرتُ يا عبد ... جفاء منكِ فى الكُتْبِ

أمن ذنب ؟ ولا والله ... ما أحدثتُ من ذنب

ولا والله ما فى الشر ... ق من أنثى ولا الغرب

سواكِ اليوم أهواها ... على جِدّ ولا لِعْبِ (٤)

* * *

٢- رسالة مع رسول بعد أبيات تمهيدية :

أيها الناصح الرسول إليها ... قل لها عن متيّم القلب صبّ

حدثينى فأنت قرة عينى ... هل تحبيننى ؟ فهل نلتِ حبى ؟

أيهمتْ دونك الفجاجُ فلا آلـ ... ـقَى سبيلا إليك فى غير تُرب

ما على النوم لو تعرّضتِ فيه ... فبلوناك فى سخابٍ واتّب

أنا من حبّك الضعيف الذى لا ... أستطيع السلوّ عنك بطب

... إلخ القصيدة (٥) .

* * *

٣- ورسالة أخرى بعد أبيات تمهيدية أيضا :

ودسّت فى الكتاب إلىَّ : إنّى ، ... وقيتُك ، لو أرى خَلَلاً مضيتُ

على ما قد علمتَ جنون أمى ... وأعيُنَ إخوى منذ ارتديتُ

يقولون « انعمى » ويرون عارا ... خروجى إن ركبتُ وإن مشيتُ

ومن طربى إليك خشعتُ فيهم ... كما يتخشع الفرس السُّكَيْتُ

... إلخ (٦) .

* * *

٤- ورسالة إلى قبيلة الحبيبة :

من المفتون بشار بن برد ... إلى شيبان كهلهمو ومُرْدِ

فإن فتاتكم سلبت فؤادى   فنصفٌ عندها ، والنصف عندى (٧)

* * *

٥- ثم هذا البيت :

لمِ يكن بينها وبينى إلاَّ   كتب العاشقين والأحلامُ (٨)

الهوامش

١- انظر د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / ٣٧١ .

٢- انظر مقدمة ديوان بشار / ١ / ٣٩ - ٤٠ .

٣- شخصية بشار / ٢٧٩ .

٤- ديوان بشار / ١ / ٢٠٦ .

٥- ١ / ٢٦٧ - ٢٦٩ .

٦- ٢ / ٦ - ٧ .

٧- ٤ / ٣٨ .

٨- ٤ / ١٧٥ .

القصة العاطفية

القصة العاطفية موجودة فى الشعر العربى منذ القديم ، ففى معلقة امرىء القيس مثلاً يحكى لنا الشاعر أكثر من قصة من هذه القصص . وفى لاميته أيضا نراه يقول :

سموتُ إليها بعدما نام أهلها ... سموّ حباب الماء حالاً على حالِ
فقالت : سباك الله ! إنك فاضحى ... ألستَ ترى السُّمّارَ والناس أحوالى ؟
فقلتُ : يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفتُ لها بالله حلفة فاجر ... لَنَامُوا فما إن من حديث ولا صالِ
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرتُ بغصن ذى شماريخ ميّال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورُضْتُ فذلّت صعبةً أى إذلالِ
فأصبحتُ معشوقا وأصبح بعلها ... عليه القتامُ سيء الظن والبالِ
يغط غطيط البكر شُدّ خناقُه ... ليقتلنى ، والمرء ليس بقتّال
ليقتلنى أنى شغفت فؤادها ... كما شغف المهنوءةَ الرجلُ الطالى

وللأعشى أشياء فى ذلك الفنّ .

ولسُحَيْم عبد بنى الحسحاس قصيدة قصصية يائية طويلة ، يُرْجَعُ إليها فى ديوانه .

وجاء عمر بن أبى ربيعة فتوسَّع فى ذلك الضرب من القصص العاطفى حاذيًا فى بعض الأحيان حذو امرىء القيس (١) .

ومما للفرزدق فى ذلك السبيل ما حكاه لنا فى رائيته من مغامرة محفوفة بالمخاطر العنيفة انتهت بهذه الأبيات التى تصف كيف خرج من المأزق بعد أن دلته المرأتان ، على ما يقول ، بالحبال من ارتفاع ثمانين قامة :

فقلت : ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا ... وبادرتُ فى أعجاز
وأصبحتُ فى القوم الجلوس ، وأصبحتْ ... مغلّقةً دونى عليه

ولبشار مشاركة فى هذا الفنّ ، فإنك تجد له بعض القصص فى ثنايا قصائده (٢) ، إلى جانب الرائية المشهورة التى استوق والدارسين ، وأوّلها :

قد لامنى فى خليلتى عُمَرُ ... واللوم فى غير كنه

والتى يصف فيها ما دار بينه وبين صاحبته من غمز وعض وقرص عليه ، مع أنها أقلّ فى الفحش من شعرٍ كثيرٍ لغيره من الشعراء يقتضى أن نقول إنها مع ذلك توحى بجو شديد الإثم والفجور .

ومن هذا الشعر البشارى أيضا قوله :

وليلة خرطوم وصلتُ نعيمها ... بحوراء تستحيى إ
لُبَاخيّة الأرداف ، لم تَرْعَ ثَلَّةً ... بفىءٍ ولم تركب بع
وبيضاء يَنْدَى خدها وجبينها ... من المسك فوق المج
فباتت مزاج الكأس حتى تبينت ... تباشير منشق عن ال
فلما دنا وجه الوداع تفجّعتْ ... على ليلة طابت و
وقالت لتربيها : « ابكيا » ، وترقرقت ... مدامع عينيها تخ
فيا حسنها إذ نلتقى بمهايلٍ ... مجبّبْن فى بحر من
ليالى قالت : أنت غادٍ ضُحًا غَدٍ ... ونبقى على شوق إ
هناك التقينا تحت عَيْنٍ مطيرةٍ ... وريّانُ مُلْقًى كالحم
فبتّ ببدر يملأ العين نورُه ... هضيمِ الحشا فى ال
إذا أحرقتنى الكأس داويتُ حَرَّها ... بمثلوجة فى ظ

وفى قصة أخرى من هذا النوع نراه يدعى أنه ارتقى إ

...

ولم أدَعْ زينـــة حتـــى لبســـتُ لهـــا   مـن الجديـد لكـى ألْمِمْ بهـنّ غـــدا

...

حتـى ارتقيـتُ إليهـــا فـى مشيَّـــدة   دون السمـاء تناغـى ظلّهـا صَعَـــدا[2]

ورغم ذلك فإنه حريص على أن يؤكد أنه لم ينل منها شيئًا . إنما هو العتابُ والشكوى لا غير .

غاب القـذى فشربنـا صفـو ليلتنـا   حِيْنَنِ نلهـو ونخشـى الواحد الصمـدا

الهوامش

١- انظر فى ذلك د . محمد عبد العزيز الكفراوى / الشعر العربى بين الجمود والتطور / دار نهضة مصر / القاهرة / ط ٢ / ٥٧ - ٥٨ .

٢- انظر مثلاً الديوان / ١ / ٢٦٣ - ٢٦٤ ، و ٢ / ٨٠ وما بعدها ، و ٢ / ١٩٥ ، و٢ / ٣٢٩ حيث تبدأ القصة من رابع بيت فى القصيدة .

الحوار

ومن عناصر الفن القصصى الحوار . وهذه بعض أمثلة على هذا العنصر من شعر شاعرنا ، ومنها يتضح أن بشارًا لم يكن دائمًا بارعًا فى إدارة دفة الحوار فى قصصه :

فاذكرى حلفتى : أقارِبُ أخرى … يوم زكّى تلك اليمينَ البكاءُ

...

فتصدت بعد الصدود وقالت : … قتلتْنى أنفاسُك الصُّعداءُ

قلتُ : نفسى الفدا . على عادةٍ منّـ … ـى جرى ما جرى ، وقلبى براءُ

فاعذرينى ، يا شقة النفس ، إنى … تبتُ مما مضى وعندى وفاءُ (١)

* * *

وقائلةٍ : إن متَّ فى طلب الصبا … فلابدّ أن تُحْصَى عليك ذُنوبُ

فَرُمْ توبة قبل الممات ، فإننى … أخاف عليك الله حين تؤوب

...

فقلت لها : لم أجن فى الحب بيننا … أثاما على نفسٍ ، فممّ أتوب ؟ (٢)

* * *

وقائل إذ رأى شوقى وصفحكمو : … دعها ، فما لك منها غير تصيبِ

لا شىء أبعد مما لست نائله … إن البخيل بعيدٌ غير مقروب

فقلت : كلا ، سيجزى من له كرم … شوقا بشوق وتقريبا بتقريبِ (٣)

* * *

وتقول : اتقيتَ فينا أناسًا … لم أكن أتقيهمو فى الغُروبِ

لا ، ومن سبح الحجيج له ، ما … كان ظنى اتقاءَ عين الرقيب

غير أن الإمام أسكننى عنـ … ـك ، فقولى : فى ذنوبه لا ذنوبى (٤)

* * *

قلت لمّا برَحَتْ بى : … لم يكن هذا احتسابى

حيث أرجوكم فَسُمْتُمْ … زوركم سوطَ عذابِ

ليتنى قبل هواكم … كنتُ فى بطن التراب

فبكت هندٌ وقالت : … حِبٌّ ، لا تكثر خطابى (٥)

* * *

ولا أنسى غداةَ بكت وقالت : … أتغدو أم تروح من الرواح ؟

فقلت لها : الرواحُ بذاك أحجى … وأقرب بالمحب من الصباحِ (٦)

* * *

قالت لحوراء من مناصفها … كالريم لم تكتمل من الرَّمَدِ

روحى إلى مشرك بخُلّتنا … خُلّةَ أخرى ، وقد يرى كمدى

قولى : تقول التى أسأت لها … إن لم أنلها ما شيمتى بِرَدِ

قصرتُ طرفى إليك قانعة … وأنت ذو طُرّتين فى وَرَدِ

...

فقلت : لا تسرعى بمعتبة … فى غير ذنب جنيتُه بيدى

لا كنتُ إن لم أكن أحبكمو … جهدى . فما بعد حب مجتهد ؟

أى حديث دبّ الوشاة به … أبصرتُ غيّى ، فأبصرى رشدى

ما كان إلا حديث جارية … لم تلق روحى ووافقت جسدى

...

قد تبتُ مما كرهتِ ، فاحتسبى … غفران ما قد جنيتُ معتمدى (٧)

الهوامش

١- ١ / ١١٥ - ١١٦ .

٢- ١ / ١٨٠ .

٣- ١ / ١٩٦ .

٤- ١ / ١٩٨ .

٥- ١ / ٢٧٤ .

٦- ٢ / ١١٣ .

٧- ٣ / ٦ - ٧ .

الفحش والعفّة والخمر فى غزل بشار

الفحش الصريح فى غزل بشار قليل . وهذا ما وجدتُه له من ذلك :

ألا يـا طيّـبَ ، قـد طِبْـتِ   ومـا طيّبَـكِ الطيـبُ

ولكـن نَفَـسٌ منـكِ   إذا ضمّـك تقريـبُ

وثغـرٌ بـاردٌ عـذب   جـرى فيـه الأعاجيـبُ

...

وشـىء بيـن فخذيـن   كقعـب الشـربِ مكبـوبُ (١)

* * *

عَجِلُ الرّكوب إذا اعتراه نافض   فـإذا أفـاق فليس بالركّـابِ

وتـراه بعـد ثـلاث عشـرة قائمـا   مثـل المـؤذن شكّ يـوم سحابِ

يتنفس الصعداء عنـد مراسـلٍ   ويكـاد يخلـع جلـده لِكَعابِ (٢)

* * *

عجـزاء مـن سرب بنى مالـكٍ   لهـا حـرٌ مـن بطنهـا أرقَـعُ

زُيّـن أعـلاه بإشرافـه   وانضـمّ مـن أسفلـه المَشْـرَعُ (٣)

* * *

ويحهـا كاعبـا تُـدِلّ بجهـم   كَعْثَبِـىٍّ كأنـه حمّـامُ (٤)

وهو فى الحقيقة على قلته يدل على سخف كثير كان فى بشار . وعلى أية حال ، فالفحش فى الشعر العربى قديم . ومن أولئك الشعراء الذين اشتهروا به امرؤ القيس فى معلقته وغير معلقته ، والنابغة فى قصيدته فى المتجردة بأبياتها العارية تمامًا ، وسُحَيْم عبد بنى الحسحاس فى يائيته بالذات ، وابن قيس الرقيات فى منامه الذى ادعى أنه حلم فيه بإحدى نساء البيت الأموى وعبث بها ونال منها ما يريد ، والفرزدق ... وغيرهم كثير .

على أن الجانب المفحش فى شعر بشار ليس إلاّ وجهًا واحدًا . والوجه الآخر هو

وجه العفة ، التى يصرّ فى كثير من شعره على أنه هو وحبيبته كانا حريصين على التزامها فلم يأتيا ما يسىء ، مما يدل على أن الذين هاجموه واتهموه بالفحش والإسراف فيه والحرص على تصوير التفاصيل الفاجرة وادعوا أنه لم يكن يهتم فى المرأة بشىء إلا بالغريزة النوعية قد أسرفوا .

إلا أنه لابد من القول إن شعراء كثيرين فى الأدب العربى القديم قد أكدوا التزامهم هم وحبائبهم جانب العفة ، حتى ولو فى بعض شعرهم دون البعض الآخر . فبشّار إذن ليس أول من فعل ذلك . ونحن حين نقول إن كثيرًا من شعر بشار يتحدث عن عفته هو وصاحبته لا نقصد أنه يحكى الواقع فعلاً ، إذ ربما كان بشار لا يقول ما حدث . لا ، لا نقول هذا ، ولكننا نقصد أن نبين أن شعر بشار ليس كله فحشًا عاريا كما يقول عدد من الدارسين ، بل الفحش الصريح فيه قليل ، وسائره حديث عن العفة وعدم الانسياق مع الغرائز والشهوات . وهذه شواهد على ما نقول :

بيضاء صافية الأديم ترعرعتْ   فى جلد لؤلؤة وعفة راهبِ (٥)

* * *

يا سلم ، إنى امرؤ يوقّرنى   حلمى إذا القوم فى الخنا وثبوا (٦)

* * *

فلولا التّقى راحت ورُحتُ عشيةً   نعُدّ هناتٍ بيننا وهناتِ (٧)

* * *

كم ليلة قد شقّ إصباحُها   عنا نعيما كان زَحْزاحا
لم تنبسط فيه إلى مُحْرَمٍ   حتى رأينا الصبح وضاحا
إلا حديثا معجبا أُنْسُهُ   أكْبَرتُه غُنما وأرباحا (٨)

* * *

فما كان إلا الأُنس بينى وبينها   وشدوُ غناءٍ تارةً ونشيدُ (٩)

* * *

أُمْسِك النفسَ بالعفاف وأُمْسِى   ذاكرًا فى غدٍ حديث الأعادى
ذاك إذ لا تزال حُبَّى من البغـ   ـى خيالا يزورنى فى الرقادِ (١٠)

* * *

حتى التقينا ، فمن شكوى ومعتبةٍ   نكُرُّها لا نخاف العين والرَّصَدا
غاب القذى ، فشربنا صفو ليلتنا   حِبَّين نلهو ونخشى الواحد الصمدا (١١)

* * *

وقمت لم أقض منها إذ خلوتُ بها   إلا الحديث وإلا أن أمسّ يدا (١٢)

* * *

من الخَفِرات ، لم تَطّلعْ بفُحْشٍ   على جار ولا بَكَرَتْ تَرودُ (١٣)

* * *

الحب تعجبنى لذاذته   والفسق أقبح ما أتى أحَدُ (١٤)

* * *

بيضاء لبَّسها الحياءُ عفافةً   فَضْلَ القناع إذا خَلَتْ لم توصَدِ (١٥)

* * *

فأصبن من طُرَف الحديـ   ـث لذاذةً وخرجن مُلْسا (١٦)

* * *

لعوب بألباب الرجال ، وإن دنت   أطيعَ التُّقى ، والغىُّ غير مطاع (١٧)

* * *

لم يكن بينها وبينىَ إلاّ   كتب العاشقين والأحلامُ (١٨)

* * *

أُنسٌ غرائرُ ما هممن بريبةٍ   كظباء مكة صيدهن حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث زوانيا   ويصدهن عن الخنا الإسلامُ (١٩)

على أن هناك ملاحظة مهمة على غزل بشار ، إذ قد تكرّرت عنده الإشارة إلى أنه قد شرب هو وحبيبته الخمر فى لقاءاتهما العاطفية ، كما توضحه الأمثلة التالية :

كيف أرجو يوماً على الرَّ ... سِّ وأيامِنا بحقف الكثيبِ
إذ نسوق المنى ونغتبق الرا ... ح ويأتى الهوى على تغييب ؟ (٢٠)

* * *

أراجعٌ أنتَ لنا مجلسا ... بين مُدام وسماع مُنيبْ ؟
يا حبذا ذاك على نأيه ! ... وحبّذا ليلتُنا بالكثيبْ ! (٢١)

* * *

لما قضينا حديثنا من معاتبة ... وكاد يبرد هذا الشرّ أو بردا
جاءت بأزهر لم تُنْسَجْ عمامتُه ... إذا الزجاجة نادت كأسَه سجدا

...

نلهو إليه ونشكو بث أنفسنا ... فى سلوةٍ ، وزوال الليل قد أفدا (٢٢)

* * *

حبذا أنت يا حُبَا ... بة والعود والنَّدا
وحديث من الخلا ... ء من العين والعِدا
وعناق خلال ذا ... ك تداوى به الصدا
وشراب معتق ... يترك الشيخ مُقْعَدا
ذاكِ عيش لو دام لى ... عشتُ فيه مخلّدا (٢٣)

* * *

أما تذكرين الراح والعود والندى ... ومجلسنا بين الأُزيهر والصَّمْدِ ؟ (٢٤)

الهوامش

١- ١ / ٢٠٤ - ٢٠٥ .

٢- ١ / ٣٧٥ - ٣٧٦ . والأبيات فى وصف عضوه الجنسى ردّاً ، فيما ذكروا ، على امرأة أراد وصالها فاستهزأت به وبعماه وقبح وجهه . انظر ١ / ٣٧٥ (بالهامش) .

٣- ٤ / ١٠١ .

٤- ٤ / ١٧٥ . وكعثبىّ : شديد النتوء . ومعنى « كأنه حمام » : ساخن .

٥- ١ / ١٦٨ .

٦- ١ / ٢٤١ .

٧- ٢ / ٤٤ .

٨- ٢ / ١٥٣ .

٩- ٢ / ١٦٤ .

١٠- ٢ / ١٧٨ .

١١- ٢ / ١٩٧ .

١٢- ٢ / ٢٠٠ .

١٣- ٣ / ١٥ .

١٤- ٣ / ٦٣ .

١٥- ٣ / ١١٧ .

١٦- ٤ / ٨٢ .

١٧- ٤ / ٩٩ .

١٨- ٤ / ١٧٥ .

١٩- ٤ / ١٩٢ .

٢٠- ١ / ١٩٨ - ١٩٩ .

٢١- ١ / ٣٦١ .

٢٢- ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ . والأزهر : إبريق الخمر . وعمامته : غطاؤه .

٢٣- ٢ / ٢٠٢ .

٢٤- ٢ / ٢١٣ .

أسماء صواحبه

هذه قائمة بأسماء النساء اللائى تغزل فيهن بشار، ويلاحظ أنه أحيانا لما يناجى صاحبتها باسمها ، وأحيانها بكنيتها . وهو حين يناديها باسمها قد يناديها به كما هو ، وقد يرخّمه ، وقد يحوّره تدليلاً وتحبيبا والاسم الواحد قد يُحوّر أكثر من تحوير ، مثل « عَبْدة - عَبْد - عُبَيْد(ة) - عبادة » :

رويدكَ عن قصاف . عليك عينٌ ... وللمتكلف التالف المقلّعا (١)

* * * * *

حبيبا صاحبيَّ أم العلاءِ ... واحتفروا طرف عينها الحوراء (٢)

* * * * *

تحمّل والى أمّ بكر من اللّوى ... وفارق من تهوى وشتّ رجاله (٣)

* * * *

لا أتقى دون سُلَيْمَى خَطْبًا ... وما أبالى الذيفان المقشْبا
يا سَلْمَ ، يا سَلْم ، دعى لى لُبًّا ... أو ساعفينا قد لقينا حَسْبًا (٤)

* * * *

أتقرى بِسُعْدَى عندنا فى الكرى ... من ليلى بالنائى ولا المقصى (٥)

* * * *

لو بدا اليأس من عُبَيْـ ... ـدة قد قام نادبى
عَبْدَ ، بالله أطلقى ... من عذاب مواصبى (٦)

* * * *

تحنّ صبابةً فى كل يوم ... إلى حُبّى وقد كربتك كربا (٧)

* * *

غلبتْك أم محمد بدلالها ... والمقلتين للأغن العالب (٨)

* * *

ألا أيها القلبُ الذى أدبرتْ به   سعاد بنى بكر ، ألستَ تُنيبُ ؟

تؤمّل سُعْدى بعدما شعبت بها   نوًى بين أقران الخليط شَعُوبُ (٩)

* * *

يفنّدنى عبدالعزيز بأننى   صبوتُ إلى الذلفاء حين صبا تربى (١٠)

* * *

منع النوم طارقٌ من حبابة   وهموم تجول تحت الرَّهابة (١١)

* * *

يا طَيّبَ ، سيان عندى أنت والطيبُ   كلاكما طيّب الأنفاس محبوبُ

..

لله طَيّبَةُ ! لا تُبْقى على رَجُلٍ   بقلبه هاجسٌ كالنار مشبوبُ (١٢)

* * *

يتغنى ، إذا خلا باسمك الحقّ   ويَكْنيك فى العدا أمّ وَهْبِ (١٣)

* * *

أما حَسْبك يا أسما   ء أنى منكِ فى حَسْبِ ؟ (١٤)

* * *

فبكت هندٌ وقالت :   حَبّ ، لا تنكر خطابى (١٥)

* * *

أصفراءُ ، ما فى العيش بعدك مَرْغَبُ   ولا للصبا ملهى فألهو وألعبُ (١٦)

* * *

تلك عبّادةُ التى لم تَتْلُهُ   غير ما أصبحتْ لعينيه نَصْبا (١٧)

* * *

كيف يسلو عن الرباب فؤادى   وهواها ينوب عن كلّ نابِ ؟ (١٨)

* * *

يا بَان ، ضاق المذهبُ   وطريف أهلك أجْنَبُ (١٩)

* * *

على زينبٍ منى السلامُ ، ومثله   على شجنٍ بين الصَّبا وجَنُوبِ (٢٠)

* * *

فإذا ذكرتُك يا عُبَيْد تقطعت   نفسى عليك وعادنى حسراتُ (٢١)

* * *

حُبّ ، إن البخل شرٌّ   ليس من فعل السَّراة (٢٢)

* * *

أرى سَقَمى يزداد من أم مالكٍ   ولو بقيتْ حُبّى لنا لَبَقيتُ (٢٣)

* * *

خُشّابُ ، هل لمحبّ عندكم فَرَجُ   أوْ لا فإنى بحبل الموت معتلجُ (٢٤)

* * *

أمّ عَمْرو ، مازال حبّك يغتا   ل عزائى حتى افتضحتُ افتضاحا (٢٥)

* * *

أنجزى ، يا سلامةُ ، الموعودا   وتصابَىْ ولا تطيعى الحسودا (٢٦)

* * *

أهيم بكم يا حَمْد إن كنتُ خاليا   وأنتِ حديث النفس فى كل مشهد (٢٧)

* * *

وقد علمتْ حمّادة النفسِ أننى   إلى نائل لو نِلْتُ من وِرْدها صَدِ (٢٨)

* * *

دعانى إلى أم الوليد شبابها   وحُسْنٌ ، فإنى مثلَها غيرُ واجدِ

سأصرم وصلا من عُلَيّة ، إنها   صَرُومٌ كما أوهى كذوبُ المواعدِ

...

كأن الثريا يوم راحت عشيةً   على نحرها منظومة فى القلائد (٢٩)

* * *

أوحشت من دعد ونوى دعد بعد زمان ناعم ومرد (٣٠)

* * *

واهاً لأسماء ابنة الأشدّ ! قامت تراءى إذ رأتنى وحدى (٣١)

* * *

قرع الوشاةُ فأطرقوا وشُغِلت عنّا أمّ عابدْ (٣٢)

* * *

أفاطمُ ، إن النفس تُخْفى من الهوى جليلا ، وتُبدى مثله فى المشاهد (٣٣)

* * *

إذا أُنشدتْ بالشعر عندى قصيدةٌ طربتُ ولم تطرب لها أمُ خالدِ (٣٤)

* * *

يا ابنة المالكىّ ، قد وقع الأمـ ـر ، فأوفى لعاشقٍ بالعهود (٣٥)

* * *

أقوى وعُطّل من فُراطةَ الثمدُ فالربعُ منكِ ومن رباك فالسَّنَدُ (٣٦)

* * *

اسمعى يا خُلَيْدُ ، أنتِ الخلودُ. ما يقول المتيم المعمودُ (٣٧)

* * *

ريمةُ الريمةُ عينًا وحشًا بعد ردفٍ من رآه سجدا (٣٨)

* * *

قالت فُطَيْمَة : « صُمْ فينا » ، فقلت لها : إن شاء يعقوب صُمْنَا يا ابنة الجودِ (٣٩)

* * *

ألا طرقتْ موهنا مَهْدَدُ وقد غوّر الكوكبُ المُنْجِدُ (٤٠)

* * *

يا بنت صقر بن قعقاع ، على كبدى شوق إليك وفى روحى وفى جسدى (٤١)

* * *

يا رحمة الله ، حلّى فى منازلنا وجاورينا . فدتك النفس من جارِ (٤٢)

* * *

يا خاتم الملك ، يا سمعى ويا بصرى زورى ابن عمك أو طيبى له يَزُرِ (٤٣)

الهوامش

١- ١ / ١٠٦ .

٢- ١ / ١٠٧ .

٣- ١ / ١٢٦ .

٤- ١ / ١٣٥ .

٥- ١ / ١٤٧ .

٦- ١ / ١٦٤ .

٧- ١ / ١٦٥ .

٨- ١ / ١٦٧ .

٩- ١ / ١٨٦ .

١٠- ١ / ١٨٧ .

١١- ١ / ١٩٢ .

١٢- ١ / ١٩٣ .

١٣- ١ / ٢٦٩ .

١٤- ١ / ٢٥٨ .

١٥- ١ / ٢٧٤ .

١٦- ١ / ٣٤٠ .

١٧- ١ / ٣٥٢ .

١٨- ١ / ٣٥٤ .

١٩- ١ / ٣٥٧ .

٢٠- ١ / ٣٦٤ .

٢١- ٢ / ٣٦ .

٢٢- ٢ / ٣٧ . و « حُبة » تدليل « حُبَّى » .

٢٣- ٢ / ٣٩ .

٢٤- ٢ / ٧٤ .

٢٥- ٢ / ١٢٣ .

٢٦- ٢ / ١٨٥ .

٢٧- ٢ / ٢٠٦ .

٢٨- ٢ / ٢٠٩ .

٢٩- ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

٣٠- ٢ / ٢٢٠ .

٣١- ٢ / ٢٢٢ .

٣٢- ٢ / ٢٤٥ .

٣٣- ٢ / ٢٦٤ .

٣٤- ٢ / ٢٦٦ .

٣٥- ٢ / ٢٧٤ .

٣٦- ٢ / ٢٧٧ .

٣٧- ٣ / ٢٠ .

٣٨- ٣ / ١٤ .

٣٩- ٣ / ٥٩ .

٤٠- ٣ / ١٢٠ .

٤١- ٣ / ١٤١ .

٤٢- ٣ / ١٦١ .

٤٣- ٣ / ٢٤٢ .

الغراب

يذكر الشعراء العرب القدماء الغراب كثيرا فى قصائدهم : بوصفه نذير شؤوم ، أو مؤذنا بفرقة الأحباب ، أو تشبيها منهم الشعر الأسود به ... إلخ . وها هو ذا بشار أيضا يذكر الغراب فى بعض أبياته فى هذه المعانى السابقة :

نعــق الغـــرابُ فخنَقَتْنــى عَبْـــــرةٌ   وبكيـتُ مـن جـزع على الأحبـابِ (١)

* * *

يـــوم قالــــت تحـــذر العيــــــ   ــــن علـــى ذات الحجــــــاب :

كـــن غرابــا حيـــــن تأتـــــى   بيننــــــا أو كَغُـــــــــرابِ (٢)

* * *

يا صـــــاح ، بلانـــى طــلابُ الهـوى   وصـــرف إبريـــق عليــــه النقـــابْ

يومـــا نعيـم أخلقـــــا جِدتـــــى   ولمّـــةً مثـلَ جنـــاح الغــــرابْ (٣)

* * *

لكـــن جـــرت سُنُحٌ بينـــى وبينهمـــو   والأشأمـان : غـراب البين والصُّـرَدُ (٤)

* * *

نفـد الزمـان ومـــن حُمَيْـدةَ لوعــــةٌ   بيـــن الجوانـــح حَرُّهــــا لـــم يَنْفَـدِ

يُبْـدى الضميـــرَ إذا عرفـــتَ لـه بـه   لونـــا كخافيـــة الغـراب الأســـود (٥)

الهوامش

١- ١ / ٢١٥ .

٢- ١ / ٢٧٣ .

٣- ١ / ٢٧٦ .

٤- ٢ / ٢٧٨ .

٥- ٣ / ١١٧ .

بعض سمات المديح عند بشار

لقد مدح بشار مروان آخر خلفاء بنى أمية . كما مدح عقبة بن سلم وخالد بن جبلة الباهلى ، وكذلك الربيع الحاجب وابن برمك والوليد بن العباس وبعض رجال البيت العباسى ، وأيضا يعقوب بن داود ، الذى انقلب عليه الشاعر وهجاه . ولبشار كذلك عدة مدائح فى المهدى .

وهو فى مدحه للمهدى يدافع عن حقه وحق العباسيين بعامّةٍ فى الخلافة مؤكدا أنهم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ورثتم رسول الله بيت خلافة   وعزّاً على رغم العدوّ وسُودَدَا (١)

* * *

صفا لهم منحر الهدىّ فبيـ   ـتُ الله فالموقفان فالسُّوَرُ
فزمزمٌ فالجمارُ فالحوضُ فالـ   ـمسعى ، فذاك المقامُ مُحْتَظَرُ
ميراثُ من بوركت نبوته   فالدين فيهم ، فالأمر ما أمروا (٢)

* * *

وعندك عهد من وصاة محمد   فرعتَ بها الأملاك من ولد النَّضْرِ
...
وأحرزت ميراث النبى محمد   على رغم قوم ينظرون على دَعْرِ (٣)

ويشير إلى أنه سمىّ النبى عليه السلام :

دعينى فإنى مُعْصِمٌ بمحمد   سمىِ نبى الله والملكِ الحُرّ (٤)

كما يؤكد أنهم حماة الدين :

وأنتم حماة الدين ، لولا دفاعكم   لقد قذِيَتْ عيناه أو كان أرمدا (٥)

ويذكر انتصارهم على الأمويين وقتلهم مروان بن محمد آخر خلفائهم ، الذى كان قد مدحه من قبل أيام سلطانه :

وأنت ابن من رادى أميةَ بالقنا   جهارا وبالبصرىّ ضربًا مؤيدا (٦)

* * *

ومروان لمّا أن طغى وأتتكمو   زوائرُ منه بادئاتٍ وعُوَّدا
نصبتم له البيض اللوامع بالرَّدَى   وخَطّيّةً أخمدن ما كان أوردا
ففرقتمو أشياعه وهدمتمو   بملككم العادىّ مُلْكًا مولّدا
فأصبح مطلوبا وآب برأسه   كتائبُ أدركن الحمار المطرّدا (٧)

الهوامش

١- الديوان / ٣ / ٣٩ .

٢- ٣ / ٢٠٠ .

٣- ٣ / ٢٨٤ .

٤- ٣ / ٢٨٢ .

٥- ٣ / ٤٠ . والضمير فى « قذيت عيناه ... » يعود على الدين .

٦- ٣ / ٣٧ .

٧- ٣ / ٤٠ - ٤١ . والعادىّ : الضارب فى أعماق الزمن .

مدحه للمهدى بأنه ابن ساقى الحجيج الذى ثبت يوم حُنَيْن

ومن المعانى التى دافع بها بشار عن حق المهدى وآل بيته فى الخلافة أنهم من نسل العباس « ساقى الحجيج » ، الذى ثبت « يوم حنين » إلى جانب النبى مع قلة من الصحابة حينما ولى سائر المسلمين مدبرين من هول المفاجأة التى فاجأتهم بها هوازن :

ساقى الحجيج أبوه الخير ، قد علمتْ   عليا قريش ، له الغايات والقصَبُ

وافى حُنَيْنًا بأسياف ومُقْرَبة   شعث النواصى براها القَوْدُ والخَبَبُ (١)

* * *

إن ابن ساقى الحجيج يكفيك ما   حلّ مقيمًا وأيّةَ ذهبا (٢)

* * *

إن ابن ساقى الحجيج يكفيك ما   حلّ مقيما وأيةَ ركبا (٣)

* * *

وأنتم سُقاةُ الحجّ ، لولا حياضكم   وأدلُوكم لم تحمد الناس موردا (٤)

* * *

لكم نجدة العباس فى كل موطن   ويوم حنين إذ أشاع وأشهدا (٥)

* * *

آباؤك الصيد من قريشٍ إذا   زعزع رَبْطَ المنيّة الذُّعُرُ

منهم سُقاةُ الحجيج قد عُلِموا   وقاتلُ المَحْلِ ماله جَزَرُ

...

خير قريش منهم وسيفهمو   يوم حنينٍ والبأس مُنْتَحِرُ (٦)

* * *

وأبقى لك العباسُ يومًا مشهرًا   إذا سِرتَه فى الذكر جلّ عن الذِّكْرِ

مجالدةٌ دون النبى بسيفه   بوادى حنين غيْرَ وانٍ ولا غُمْرِ (٧)

الهوامش

١- ١ / ٢٣٦ .

٢- ١ / ٢٥٧ .

٣- ١ / ٣٣١ .

٤- ٣ / ٣٩ .

٥- ٣ / ٤٠ .

٦- ٣ / ٢٠٠ - ٢٠١ .

٧- ٣ / ٢٨٥ .

السجود للممدوح

وكما هو الحال فى شعر بشار الغزلى حيث يصوّر الحبيبة معبودة يُسْجَد لها أو يطاف بها ... إلخ نرى هذا المعنى قد تكرر فى مديحه (وإن كان بدرجة أقل) ، فممدوحه ملك تسجد له الملوك ، وهو صنم يطوف حوله العبّاد ، وجيشه تَهْوِى له الجن العفاريت سجّدا :

وملكٍ تسجد الملوكُ له ... موفٍ على الناس يرزق العَرَبا

راعٍ لأحسابنا وذمتنا ... يُمْسى دُوارًا ويغتدى نَصَبا (١)

* * *

إذا رأوكم ، وإن كانوا على عَجَلٍ ، ... خرّوا سجودا ، وما كانوا بسُجّادِ (٢)

* * *

إذا حاربوا قومًا رأيت لواءهم ... يقود المنايا بارقاتٍ ورُعّدا

بأرعن تُمسى الأرض منه مريضةً ... وتَلْقَى له الجنَّ العفاريت سجّدا (٣)

* * *

إذا شهدوا فأنت لهم دُوارٌ ... وإن غابوا فليس بك افتقادُ (٤)

فَتيقُ بنى العباس ، يدعو إلى الندى ... ويُمْسى دُوارا فى المُقام وفى السَّفْرِ (٥)

وينبغى ألا ننسى السمة التى تناولناها فى مكان آخر من هذه الدراسة والتى نحسب أن بشارا ينفرد بها ، ألا وهى أنه ، فى الأبيات الغزلية التى يمهد بها لمديح المهدى بعد نهيه إياه عن التشبيب بالنساء ، يأخذ فى الكلام عن ذلك النهى معلنًا أنه لا يستطيع له خلافًا ، ثم يمضى مع ذلك فيذكر محاسن الحبيبة ويطيل القول فيها ، ثم يدخل بعد هذا فى مدح الخليفة .

كذلك فلعل بشارا هو أول من استبدل بوصف الرحلة إلى الممدوح على ظهر الناقة خلال الصحراء، وصف الرحلة بالسفينة . وهو على أية حال قد سبق مسلم بن

الوليد إلى هذا . وقد صنع ذلك أكثر من مرّة (٦) .

الهوامش

١- ١ / ٣٢٦ .

٢- ٢ / ٣٠٠ .

٣- ٣ / ٤١ .

٤- ٣ / ٥٦ . الدُّوَّار : الصنم المعبود . وليس بك افتقاد : لأنهم دائمًا يذكرونك بالمدح والثناء ، فكأنك حاضر معهم .

٥- ٣ / ٢٨٢ .

٦- انظر الديوان / ١ / ١٤٧ - ١٤٩ ، و ٣ / ٢٨٠ - ٢٨١ مثلا .

وعد الحرّ دين عليه

من المعانى التى كان بشار يرددها أحيانا فى المديح قوله ما معناه أن وعد الحرّ دين عليه :

إن وعـد الكريـم ديـنٌ عليـه   فاقـض واظفـر به على الغُرمـاء (١)

* * *

أنجـزَ حـرٌ وأيَـهُ طائعًـا   والعبـد مكـدودٌ ومضـروبُ (٢)

* * *

والوعـد مـن ديْـنِ الكـرامِ   فمـا تـرى فيمـا وَعَدتَـا ؟ (٣)

* * *

أَرْعَى مـن العهـد والميثـاق حقَّهمـا   لا يُصْلِحُ الحُرَّ إلا حِفْظُ ما وعدا (٤)

الهوامش

١- ١ / ١٠٩ .

٢- ١ / ٣٠٤ . والوأى : الوعد .

٣- ٢ / ٥٠ .

٤- ٢ / ١٩٣ .

الأحرار وبنو الأحرار

من المعانى التى كررها بشار فى شعره أنه أو ممدوحه من الأحرار . وقد يستخدم هذا المعنى فى هجائه أيضا ، إذ ينفى عن خصمه الحرية :

لبستُ الغنى طورا وأحْوَجْتُ مرةً   ومن ذا من الأحرار لا يتحوّجُ ؟ (١)

* * *

إنّا سراةُ بنى الأحرار وقَرّنا   ركضُ الجياد وهزُّ المُنْصُلِ البادى (٢)

* * *

دع الفخر للأحرار ، إنك تاركٌ   لأفعالهم . كل امرىء رهنُ ما مَهَدْ (٣)

* * *

تُفاخِرُ يا ابن راعيةٍ وراعٍ   بنى الأحرار ؟ حَسْبُكَ من خَسَارِ (٤)

* * *

ولا يضبطُ العشراءَ إلا ابن حُرَّةٍ   سبوقٌ بحدّ السيف مطّلع العُذْرِ (٥)

* * *

دعينى ، فإنى مُعْصِمٌ بمحمد   سمىّ نبى الله والملكِ الحُرّ (٦)

* * *

ما يسرّ الحَبْشَ أن تمدحه   خشية المعروف . ما الحَبْشُ بِحُرّ (٧)

الهوامش

١- ٢ / ٨٤ .

٢- ٢ / ٣٠٣ .

٣- ٣ / ١١٤ .

٤- ٣ / ٢٣١ .

٥- ٣ / ٢٧٩ . والعشراء : العشرة .

٦- ٣ / ٢٨٢ .

٧- ٣ / ٢٩٣ .

افتخار بشار بشعره

يفتخر بشار بشعره كثيرا ، سواء كان يمدح أو يهجو أو يتغزل . وقد ذكر مرة لأحد ممدوحيه أن كل شىء سيفنى ما عدا مدائحه فيه . كما أنه قد تكرر قوله فى هجائه إنه يسم مهجويه فوق أعينهم أو على أدبارهم . وقد شبه شعره الهجائى بحمات الأفاعى ، والمدحى باللؤلؤ ونور الروض وضوء السراج والعروس المجلوة لخُطّابها ، والغزلىّ بالحبرات الموشاة . كذلك جعل الناس يسجدون لهذا الشعر ويصلّون له ... إلخ :

أحين طُلْتَ على من قال قافية … وطال شعرى بحيٍّ بعد أحياءِ
ألزمت عينك من بغضائنا حَوَلاً … لو قد وسمتُك عادت غير حولاءِ
اطلبْ رضاى ، ولا تطلب مشاغبتى … لا يحمل الضَّرِعُ المُقْوَرُّ أعبائى (١)

* * *

تنزلّ القوافى عن لسانى كأنها … حمات الأفاعى ريقهن قضاءُ (٢)

* * *

لله ما راح فى جوانحه … من لؤلؤ لا يُنَامُ عن طَلَبِهْ
يخرجن من فيه للندىّ كما … يخرج ضوء السراج من لهبه
زَوْر ملوك عليه أبهة … تُعْرَف من شعره ومن خُطَبِهْ (٣)

* * *

جلّيت عن عينه بالشعر أنشده … حتى استجاب بها والصبح مقتربُ (٤)

* * *

قالت : أكلّ فتاة أنت خادعها … بشعرك الساحر الخلاب للعُرُبِ ؟ (٥)

* * *

تسرقتَ شعرى فاكتسبت به الغنى … وما كان لقّاطُ النوى بكسوبِ (٦)

* * *

وجارية فى مقلتيها لناظر … دواءٌ وداءٌ غير أمّ عدات

دسستُ إليها منطقى ، وكسوتُها … مناسب مثل الوشى بالحبرات (٧)

* * *

فلقد أصفيتُك الشعْ … ر برغم الحاسدات (٨)

* * *

أنا الشاعر المشهور فى كل موطن … أحُلّ بمثل السيف غيرَ مُلجلج (٩)
ولئن عَمرْتَ لتعرفَنّ قصيدةً … تجب الصلاةُ لها عليك فتسْجدُ (١٠)

* * *

أبلغ سَراة بنى الحُصَيْن بأننى … قلدتُهم مدحى وكنتُ ودودا
حمَلتُ قَرْمَهُم الفنيقَ قصائدى … حُذْاً يلذّ بها الرواة نشيدا (١١)

* * *

كسوتُك حُلّةً مما أُسدّى … بُروداً لا يفارقها بُرودُ
ملابس لا ترثّ على الليالى … ولا تبلى وإن بليت جلودُ
جلست أحوكها والليل داجٍ … محبّرةً تُبيد ولا تَبيد
يورّثها بنوك بنى بنيهم … إذا هلكوا ، ومنشرها جديدُ
كذاك الدهر يُبْلى كل شىء … ولا يَفْنى على الدهر القصيدُ (١٢)

* * *

وجارية من الغُرّ الغوالى … تُزَفّ إلى الملوك ولا تُقادُ
تسرك باللقاء ولا تراها … ويعطى ماله فيها الجوادُ (١٣)

* * *

أجدّهُمُو لم يشعروا بقصائدى … تحنّ حنين الحارسات غوادى (١٤)

* * *

ومعترضٍ سكّنتُه بغريبة … لها مذهب فى كل حىّ ومُنْتَقَدْ
إذا أُخرجت منى لقوم حدا بها … من القوم حادٍ خلفها أيّدُ غردْ
يصلّى لها أذن الهمام ومن أتت … على سمعه من شوقة خرّ أو سجدْ (١٥)

* * *

وسمتُهم بالقوافي فوق أعينهم   وَسْمَ المُعَيْدِيَ أعناق المقاحيد

...

تفحّ دوني القوافي كل شارقة   فحّ الأفاعي لكلب الحيّ والسّيدِ (١٦)

* * *

إني امرؤ عندي لكم تحبيرُ

أنت ابن أملاكٍ لهم نكيرُ (١٧)

* * *

غُرّ القصائد أُسديها وأُلحِمها   كأن رأسك منها في أعاصيرِ (١٨)

* * *

وأنا المطلّ على ابن نِهْيَا غاديا   بالجِدّ يقصد تارةً ويجورُ

ضعضعت حبّة جلده بقصيدةٍ   وردت قريشٌ دونها يَعْبُورُ

ولقد أفأت على سهيلٍ مثلَها   حمراءَ ليس لحرّها تقتيرُ

ولدى العتيرة قد نظمتُ قلائدا   منها عليه غضاضةٌ وقتيرُ (١٩)

* * *

تزلّ القوافي عن لساني كأنها   حُمَاتُ الأفاعي ريقُهن تَصَبُّبُ (٢٠)

* * *

فأبلغ بني زيد وقل لسراتهمْ ،   وإن لم يكن فيهم سراةُ تُوَقّرُ :

لأمكم الويلاتُ . إن قصائدي   صواعقُ منها مُنْجِدٌ ومغورُ (٢١)

* * *

بعثتُ بذكرها شعري   وقدّمتُ الهوى شَرَكا

فلما شاقها قولي   وشبّ الحبّ فاحتنكا

أتتني الشمس زائرة   ولم تك تبرح الفلكا (٢٢)

* * *

وشعر كنور الروض لاءمتْ بينه   بقول إذا ما أحزن الشعرُ أسهلا (٢٣)

* * *

وقد ملأت البلاد ما بين عَبُّو   ر إلى القيروان فاليمن

شعرا تصلّى له العواتق والثيـ   ـبُ صلاةَ الغُواةِ للوثنِ (٢٤)

* * *

وحَمْدٍ كَعَصْب البُرْد حمّلْتُ صاحبي   إلى مَلِكٍ للصالحات قرينِ (٢٥)

الهوامش

١- ١ / ١٢٢ .

٢- ١ / ١٢٩ .

٣- ١ / ١٥٩ .

٤- ١ / ٢٣٢ .

٥- ١ / ٢٦٤ .

٦- ١ / ٣٦٨ .

٧- ٢ / ٤١ .

٨- ٢ / ٥٦ .

٩- ٢ / ٧٨ .

١٠- ٢ / ٣٢٢ .

١١- ٢ / ٣٣٢ .

١٢- ٣ / ١٨ .

١٣- ٣ / ٥٣ .

١٤- ٣ / ٨٧ . والحارسات : سباع الصيد وكلابه .

١٥- ٣ / ١١٤ - ١١٥ . والغريبة : القصيدة البديعة .

١٦- ٣ / ١٥٦ - ١٥٧ . والمقاحيد : النوق العظام الأسنمة .

١٧- ٣ / ١٨٩ .

١٨- ٣ / ٢٦٣ .

١٩- ٣ / ٢٩٩ .

٢٠- ٤ / ١٦ .

٢١- ٤ / ٧١ .

٢٢- ٤ / ١٢٢ .

٢٣- ٤ / ١٣٧ .

٢٤- ٤ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

٢٥- ٤ / ٢١٨ .

رَبْطُه نَفْسَه بالملوك

يلفت الباحث فى شعر بشار أنه كثيرا ما يربط نفسه بالملوك : ملوك حقيقيين أو على التشبيه ، بصفته واحدًا منهم أو زائرًا لهم أو حبيبًا لبناتهم أو متحديا إياهم . وقد سبق أن ناقشنا قضية نسبه الملوكى فى هذه الدراسة . وقد تكون هذه السمة فى شعره معضدة لما قيل عن هذا النسب :

وجوارٍ إذا تحلّين لم تَدْ ... رِ : أشاءٌ فى حَلْيها أم نساء ؟

يوم سلوان إذ ينادينني : أقـ ... ـبل إلينا ، فعندنا ما تشاءُ

...

من بنات الملوك لا ... نماها إلى العلاء العَلاءُ (١)

* * *

ومن القوم إذا ناسمتهم ... ملكٌ فى الأخذ عبد فى العطا (٢)

* * *

رُحْنا مع الليل ملوكا غُلْبا ... من ذا ومن ذاك أصبنا نَهْبا (٣)

* * *

وملك يَجْبِى القرى لا يُجْبَى ... نزوره غِبًّا ونُؤْتَى رَهْبا (٤)

* * *

زَوْرُ ملوكٍ ، عليه أبهةٌ ... تَعْرِفُ من شعره ومن خُطَبِهْ (٥)

* * *

فى كل يوم له همّ يطالبه ... عند الملوك فلا يُزْرى به الطَّلَبُ (٦)

* * *

وملوكٍ إن تعرّضْتُ لهم ... عرَضوا دينى وشيكًا للعَطَبْ (٧)

* * *

إذا الملكُ الجبار صعّر خدّهُ ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبُهْ (٨)

* * *

بعثنا لهم موت الفجاءة ، إننا ... بنو المُلْك خفاقٌ علينا سبائبُهْ (٩)

* * *

إنا ملوكٌ لم نزل ... فى سالفات الحقَب (١٠)

* * *

ورُبّ ذى تاج كريم المَجْدِ

كآل كسرى أو كآل بُرْدِ (١١)

* * *

خدمُ الملوك إذا قعدنا فى الحُبا ... قاموا ، وإن نفزع لروعٍ يقعدوا (١٢)

* * *

وأملاك وهبتُ لهم ثنائى ... وليس كزاخر النيل الثِّمادُ

وجدت لبعضهم جودا ، وبعضٌ ... كماء البحر أكدرُ لا يُرادُ

...

وجاريةٍ من الغُرّ الغوالى ... تُزَفّ إلى الملوك ولا تُقادُ

تَسُرك باللقاء ولا تراها ... ويعطى ماله فيها الجوادُ (١٣)

* * *

أنا ابن ملوك الأعجميين تقطّعت ... علىّ ، ولى فى العامرين عِمادُ (١٤)

* * *

أبى نجل أملاك وزَوْرُ خليفةٍ ... يلين له باب الهمام إذا وَفَدْ (١٥)

* * *

قد أسلبُ الملكَ الجبارَ حِلْيتَهُ ... فى مأقِطٍ مثل خطّ السيف مشهودِ (١٦)

* * *

كأنما عاينوا بى ليث ملحمةٍ ... غضبانَ أو مَلِكًا بالتاج معقودِ (١٧)

* * *

قد زُرتُ أملاك بنى هاشم   وزارنى البيض المعاصيرُ (١٨)

* * *

إنّ فى ندوة الملوك لشُغْلاً   عن ربابٍ وزينبٍ وقذورِ (١٩)

* * *

أنا النُّصُبُ المحجوج كلَّ عشية   أميرٌ ، وما أعطيتُ عَهْدَ أميرِ (٢٠)

* * *

تثاقلتُ إلا عن يد أستفيدها   وزورةِ أملاكِ أشدُّ لها أزْرى (٢١)

* * *

نُبِّئْتُ آكل خُرْنه يغتابنى   عند الأمير . وهل علىّ أميرُ ؟ (٢٢)

* * *

وأهين مالى للمحامد ، إنها   حُلَلُ الملوكِ على الملوك تُنِيرُ (٢٣)

* * *

وأملاك صدق ألبستنى طرازَهم   قصائدُ مالى غيرهن شفيعُ (٢٤)

* * *

وإنّا لقومٌ ما تزال جيادُنا   تُساور مَلْكًا أو تناهب مغنما (٢٥)

ولم يكن ربط بشار نفسه بالملوك والأمراء وقفا على الشعر ، بل حُكِىَ عنه أن ابنته سألته يومًا : « يا أبت ، مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم ؟ » ، فكان جوابه : « كذلك الأمير يا بنية » (٢٦) . وينبغى أيضا ألا ننسى ما قيل عن نسبه الملوكى ، وهو ما أشرنا إليه من قبل .

الهوامش

١- ١ / ١١٦ .

٢- ١ / ١٣٢ .

٣- ١ / ١٣٧ .

٤- ١ / ١٣٨ .

٥- ١ / ١٥٩ . وزَوْر ملوك : يزورهم .

٦- ١ / ٢٣١ . وهو هنا يصف نفسه .

٧- ١ / ٣٠٤ .

٨- ١ / ٣١٧ .

٩- ١ / ٣١٩ .

١٠- ١ / ٣٧٨ .

١١- ٢ / ٢٣٩ .

١٢- ٢ / ٢٢٥ . خدم الملوك : مبتدأ ، وخبره جملة الشرط .

١٣- ٣ / ٥٢ ، ٥٣ . والمقصود بالجارية قصيدته المدحية .

١٤- ٣ / ١٠٥ .

١٥- ٣ / ١٥٢ . والكلام على لسان ابنته .

١٦- ٣ / ١٥٤ . والمأقط : المأزق .

١٧- ٣ / ١٥٧ .

١٨- ٣ / ١٩٤ . والمعاصير : الشوابّ .

١٩- ٣ / ٢٠٥ .

٢٠- ٣ / ٢٦٧ .

٢١- ٣ / ٢٧٥ .

٢٢- ٣ / ٢٩٦ .

٢٣- ٣ / ٢٩٧ .

٢٤- ٤ / ١٠٣ .

٢٥- ٤ / ١٦٣ .

٢٦- الأغانى / ٣ / ٢١٢ .

المرعَّث

تكرر فى شعر بشار تلقيبه نفسه بـ « المرعَّث » على سـ
سواء كان هو المسمّى نفسه أو كانت النسوة اللاتى يقعن فى غرا
كذلك :

أنـــا المرعّــث لا أخفـى على أحــد   ذرّت بـى الشمس للـ

* * *

بَلَــغَ المرعَّـــثَ فـــى الرحيـــــــــل خرائـــــدٌ مـ

* * *

حتـــى يقـــول النـــاس بينهمـــو :   شَغَــفُ المرعّــثِ د

* * *

فُتِــن المرعّــثُ بعــد طــول تَصَــاحِ   وصبَــا ومــلّ مقالـ

* * *

قــال : أذرى المرعَّــثُ الدمــع فانهـــــلّ نظامــا ، وكــان عـ

* * *

لّمــا رأتْ لمحــةً منـــى مرعّثـــــةً   خُضْــرا وحُمْــرا وصـ
قالـت لِتِـرْبٍ لهــا كـــانت مُوَطّنـةً :   جـاء المرعَّث فاتى

* * *

يا رب قائلـــــة يومًــا لجارتهــــا :   إن المرعّـث همّى غـ

* * *

ومقـــالَ عاذلتــى وقـــد عاينتهـــا :   إن المرعـــــث رائـ

* * *

أنــا المرعّـثُ يخشـــى الجنُّ بادرتـــى   ولا ينام الأعـادى

عُبَيْـــدةُ ، مالـــك مسلوبـــة   وكنـــتِ مقرطقـــةً حاليـــهْ ؟

فقالـت علـى رقبـــةٍ : إننـى   رَهنــتُ المرعَّــثَ خلخاليــه (١٠)

وقد ذكر شاعرنا اسمه الحقيقى « بشار » ثلاث مرات (وليس مرتين فقط كما ذكر الشيخ الطاهر بن عاشور) (١١) : مرتين « بشار » فقط ، ومرة « بشار بن برد » . وهذه المرة الأخيرة هى التى فات الشيخ ابن عاشور ذكرها . وهذه هى المرات الثلاث :

أُقْعُـدْ ، فقـد قـــال رواة الأشعـارْ

ليس ابن نهيـا من رِجـال بشـار (١٢)

* * *

إذا أنشــــد حمــــادٌ   فقـــل : أحســـن بشـــارُ (١٣)

* * *

مِـنَ المفتـون بشـارِ بـن بـردِ   إلـى شيبـان : كهلهمـو ومُـرْدِ (١٤)

ولم يحدث فى الشعر الذى وصلنا أن استخدم كنيته .

وقد كان عمر بن أبى ربيعة يكثر من ذكر اسمه فى شعره لقبًا : « المغيرىّ » ، واسمًا : « عمر » ، وكنيةً : « أبو الخطاب » : على لسانه أو على لسان حبائبه . وذلك معروف عنه فلا يحتاج إلى شواهد .

الهوامش

١- ١ / ١٢٣ . وقد تكرر هذا البيت بنصه فى ٤ / ٢١٥ .

٢- ١ / ١٦٩ .

٣- ١ / ٢١٣ .

٤- ٢ / ١٢٧ .

٥- ٢ / ١٨٨ .

٦- ٢ / ١٩٦ .

٧- ٢ / ١٩٨ .

٨- ٣ / ٦٤ .

٩- ٣ / ٢٢٣ .

١٠- ٤ / ٢٢٦ .

١١- انظر مقدمته للديوان / ١ / ٦ .

١٢- ٣ / ٢٤١ .

١٣- ٤ / ٧٣ .

١٤- ٤ / ٣٨ .

بعض ملامح الهجاء عند بشار

تتكرر فى هجاء بشاره ألفاظ « الكلب » و « الخنزير » و « الحمار » و « الثعلب » و « الفهد » :

أبوك يهودى ، وأمك علجةٌ   وأشبهتَ خنزير السّواد المسيّبا (١)

* * *

وسيّد تيم اللات تحت غذائه   هِزَبْرٌ ، وأما فى اللقاء فثعلبُ (٢)

* * *

عتبتُ على خنزير كلب ، وإننى   بذاك على الكلب التميمى أعْتَبُ (٣)

* * *

على الكلب أهوال إذا ما رأيتَه   وخنزير كلب بالمخازى مدرَّبُ (٤)

* * *

لا تحمدن أبا حرب بأُسرته   قد يثبتُ الليثُ والخنزيرُ فى الغابِ (٥)

* * *

كثر الحمير ، وقد أرى فى صحبتى   منهن أقمر مُنْعِجًا بالراكب

...

ولقد مشيتُ عن الحمار تكرّما   والمشى أكرم من ركوب الصاحبِ (٦)

* * *

وابن سلمان ساقط   كالحمار المودَّج (٧)

* * *

هناك التقينا تحت عينٍ مطيرةٍ   وريّانُ مُلْقًى كالحمار المودَّجِ (٨)

* * *

فهديّين طورًا وفهّاديْن آونةً   ما كان قبلهما فهدٌ بفهّاد (٩)

* * *

لا غرو إلاّ لحمادِ أبى عُمَر   يظلّ فهدا ويسرى الليل فهّادا (١٠)

* * *

فجئت كبغل السوء بين عرينة   وبين حمار حطّ عنه مزادُ (١١)

* * *

فما نفع الخنزير ما قال كاذبا   ولا سرّنى ضغنُ الضغائن والحسَدْ (١٢)

* * *

فتًى يبارى كأسُه كفَّه   جودا ، وبعض القوم خنزيرُ (١٣)

* * *

للمُلْك عباسٌ وأبناؤه   قدْمًا ، وللحشّ الخنازيرُ (١٤)

* * *

إنى يشيّعنى قلبى بقافية   راحت تحرّق فى كلبٍ وخنزيرِ (١٥)

* * *

أصبحت منّى من أذًى وإصغار   مثل الحمار فى حمار البَيْطارْ (١٦)

* * *

قتلنا السكسكىّ بلا قتيلٍ   وهل من مقتل الكلب اعتذارُ ؟ (١٧)

* * *

خُلقْنا سادةً ، وخُلقْتَ كلبًا   ككلب السُّوء يلحق بالقطارِ (١٨)

بيد أن هجاء بشار لا يرعوى عند ألفاظ الكلب والخنزير والفهد والحمار والثعلب ، بل يمضى فى الغالب مقتحما لجة من البذاء موّارة ، فتصدم آذاننا وأذواقنا عندئذ ألفاظ السوءات والفحش عارية لا تعرف التورية ولا الكناية ، وتطالعنا « الأيور والأستاه والعجان والفِقاح والفيشة والدبر والزبّ والبظور والهن والكمار والوجعاء والأحراح والخُصَى والجردان والنيك والسفاد والفساء والضراط وأولاد الزنا » على نحو مغثّ بل مقيِّء . ويعجب الإنسان لشاعر غير صغير ولا مغمور كبشار : كيف يرضى لنفسه أن يتدهدى فى هذا الوحل والنتن ؟ ولكنْ لله فى خلقه شؤون . والناس ليسوا كلهم من معدن واحد . وينبغى كذلك ألا يغيب عن بالنا أن الذين كان بشار يشتبك معهم فى

هذا الضرب من الهجاء لم يكونوا أقلّ منه بذاءة وضراوة فى الفحش والتصريح بألفاظ السوءات ، من مثل حماد عجرد وأبى هشام الباهلى .

ويستطيع من يريد أن يطلع على هذا الجانب المقذى من شعر الشاعر أن يرجع إلى ديوانه ويبحث عن أهجياته .

ومن الألفاظ التى وردت فى مجال الهجاء أيضا كلمة « الحشّ » (الكنيف)، وقد تكررت عدة مرات :

لحا اللـــه أبنـاء الخُلَيْقِ ، فإنهـم ... خنازيـرُ حـشّ سُخّـرت لِسُرُوبِ (١٩)

* * *

مـــا أنـت بالزانـــى ، ولكنمـــا ... ورثـــتَ عـــن حـــشّ وولاّدِ (٢٠)

* * *

داودُ محمـــودٌ وأنـــتُ مذَمَّـــمٌ ... عجبـــا لـــذاك وأنتمـــا مـــن عـود !

ولـرُبَّ عـود قـد يُشَـقّ لمسجـد ... نصفـا ، وسائـره لحـــشّ يهـــودِى

والحـش أنـت لـه ، وذاك لمسجـــدِ ... كم بين موضع مسْلَحٍ وسجود ! (٢١)

* * *

للملـــــك عبـــاس وأبنـــاؤه ... قِدْمًـــا ، وللحـش الخنازيـــرُ (٢٢)

* * *

لـم تُهدنـــا نعـــلا ولا خاتمًـــا ... من أين أقبلتَ ؟ من الحـشّ ؟ (٢٣)

على أن لبشار هجاءً آخر يخلو من هذا الإقذاع فى بعض من كان مَدَحَهم فلم يُرْضُوه بما كان يتوقعه . وليس فى هذا الهجاء شىء خصوصىّ فى أسلوبه أو فى طريقته الفنية . ولذلك لم نقف عنده .

الهوامش

١- ١ / ٢٤٧ .

٢- ١ / ٢٥٣ .

٣- ١ / ٢٤٣ .

٤- ١ / ٢٤٣ .

٥- ١ / ٢٧٣ .

٦- ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

٧- ٢ / ٧٤ .

٨- ٢ / ٨٢ .

٩- ٣ / ٢ .

١٠- ٣ / ١٠٠ .

١١- ٣ / ١٠٩ . ويلاحظ كيف كرّر بشار « بين » مع اسمين ظاهرين . وقد أوردت فى كتابى « ذخائر من المكتبة العربية » (١٧١ - ١٧٥) خمسة عشرين شاهدا شعريا من عصور الاحتجاج (وبخاصة من العصر الجاهلى) على صحة هذا الاستعمال الذى لا يوافق عليه عدد من اللغويين .

١٢- ٣ / ١١٤ .

١٣- ٣ / ١٩٤ .

١٤- ٣ / ١٩٧ .

١٥- ٣ / ٢٢٣ .

١٦- ٣ / ٢٤١ . والمعنى : « مثل الحمار بين حمير البيطار » .

١٧- ٣ / ٢٥٥ .

١٨- ٣ / ٢٧٠ .

١٩- ١ / ٣٦٩ .

٢٠- ٣ / ٩٦ .

٢١- ٣ / ١١١ .

٢٢- ٣ / ١٩٧ .

٢٣- ٤ / ٨٧ .

وصف الخمر عند بشار

وصف بشار الخمر فذكر سطوع ضوئها واحتباسها فى الدنّ أعوامًا طوالاً ، وأشار إلى ما أصابه هو ونداماه من سُكْرٍ عقل ألسنتهم ، متطرقًا من ذلك إلى هجاء من اسمه أحمد بن هشام ، وهو من الإدماج ، أى التطرق من غرض إلى غرض :

وصافيةٍ تُعشى العيون رقيقةً ... رهينة عام فى الدنان وعامِ

أدرنا بها الكأس الرويّةَ بيننا ... من الليل حتى انجاب كل ظلام

فما ذرّ قرن الشمس حتى كأننا ... من العىّ نحكى أحمد بن هشام (١)

وفى الأبيات التالية يتوسع فى وصفها وتصوير رائحتها التى تشقّ الزكام بقوتها ، ويتتبع دبيبها فى اللسان خدرًا حتى كأن شاربها شجٍ فى لسانه برسام (أى إنسان قد غلبه الحزن على عقله فصار يهذى ولا يدرى ماذا يقول ولا يُحْكمه) وكذلك ما تفعله بالعين والمفاصل من انكسار واسترخاء يصل إلى ما يشبه الشلل بل الموت ، وما تحدثه فى النفس من نشوة وطربٍ وإحساس طاغ بالأهمية يهيج شاربَها إلى الإسراف فى شرابها فالإفلاس :

رب كأس كالسلسبيل تعلّلـ ... ـتُ بها والأنام عنى نيامُ

حُبِسَتْ للشُّراة فى بيت رأسٍ ... عُتّقت عانسًا عليها الخِتامُ

نفحت نفحةً فهزت نديمى ... بنسيم وانشقّ عنها الزكام

وكأن المعلول منها إذا را ... ح شجٍ فى لسانه برسام

صدمته الشمول حتى بعينيـ ... ـه انكسارٌ وفى المفاصل خامُ

وهو باقى الأطراف حيّتْ به الكأ ... س وماتت أوصاله والكلامُ

وفتى يشرب المدامة بالما ... ل ويمشى يروم مالا يُرامُ

أنفدتْ كأسُه الدنانيرَ حتى ... ذهب العَيْنُ واستمر السُّوامُ

تركته الصهباء يرنو بعين ... نام إنسانها وليست تنام

حنّ من شربة تُعَلُّ بأخرى ... وبكى حين سار فيه المُدام (٢)

كما صوّر إبريقها وشبهه بالغزال ، ووصفه بالشَّمم ، ووصف عمامته المتخذة من لحاء النخل ، وشبّه صوت الخمر وهى تقرقر خارجة من خرطومه بزجل المطر أو دوىّ الرعد ، وقال إنها تخلط لينها بجماح ، أى إنها على رقتها تنهك شاربها وتفعل به الأفاعيل :

وزجاجة للشَّرب فيها مقنعٌ ... قُرنت بأزهر كالغزال مُباحِ
فإذا النديم شكا الصَّدَى من هامةٍ ... عندى شفيتُ صداءه بالراح
مما تضمّنه أشمَّ معمَّمٌ ... بلحاء باسقة من الأدواحِ
فإذا أكبّ حكى لسمعك ضاحكا ... تحت الغمامة أو دوىّ نباح
بخروج لينة المذاق رقيقةٍ ... كالدمع تخلط لينها بجِماح (٣)

ويقول :

ومالت كف ساقينا ... بإبريق إلى طاسِ
له قهقهةٌ فيه ... على حبة أنفاس (٤)

وإذا كان قد وصف فى الأبيات السابقة صوت الخمر وهى خارجة من فم الإبريق ، فإنه فى البيتين التاليين يصوّر وضع الإبريق نفسه فى هذه الحالة فيقول إنه يسجد للكأس حين يُصَبُّ :

يسجد للكأس إذا ما صُبَّا ... كقارىء السجدة حين انكبَّا (٥)

وهو ما يصفه به أيضا فى البيتين التاليين كما يصفه فيهما بأنه « مجّاج المدامة » ، وكذلك بأنه « نبَّاح » ، وهو تقريبا نفس ما جاء فى البيت قبل الأخير فى النص السابق ، إذ قال إنه يحكى « دوىّ نُباح » :

ونَدْمان صدق قد وصلتُ حديثه ... بأزهر مجّاج المُدامة نبَّاحِ
إذا فرغت كأس امرىء خرّ ساجدًا ... وصبّ لنا صفراء فى طيب تفاح (٦)

ويعود بشار إلى تصوير الإبريق ساجدًا ، وكذلك الكؤوس ، وذلك فى قوله :

بيديه مثل المصلّى من الليـ ... ـل سجودا حينًا وحينًا ركودا

لا تبيت الكئاس منه إذا ما ... قابلته الكئاسُ إلا سجودا (٧)

ومرة أخرى نراه يقول مكررا نفس الصورة :

جاءت بأزهر لم تُنْسَج عمامته ... إذا الزجاجة كادت رأسه سجدا
ريان ، كالريم خداه ومذبحه ... إن لم يُرَعْ بسجود سامرا ركدا (٨)

وهو يشرب الخمر نشدانا للسلوة . يقول عقب البيتين السابقين مباشرة :

نلهو إليه ونشكو بث أنفسنا ... فى سلوة ، وزوالُ الليل قد أفدا

ويقول أيضا :

اسقنى يا ابن أسْعَدا ... قبل أن ينزل الرَّدَى
شربةً تذهب الهمو ... م وتشفى المصرَّدا (٩)

ويقول :

فاشرب على حدثان الدهر مرتفقا ... لا يصحب الهمُّ قرعَ السنّ بالكاسِ (١٠)

ويقول الشيخ ابن عاشور إن بشارا « هو فيما رأيت أول شاعر ذكر شرب الخمر على ذكر الأحبة فى الحزن وضده » . وقد استشهد على ذلك بثلاثة أبيات منها البيت المارّ لتوه . أما البيتان الآخران فهما :

فاشرب على موت إخوان رُزِئتُهمو ... باب المنية عنى غير مسدودِ

وقوله :

فاشرب على أبنة الزمان ، فما ... تلقى زمانا صفا من الأُبَنِ (١١)

وقد تكررت منه الإشارة إلى أنه كان يشرب مع حبيبته الخمر ، وقد يستمعان أثناء ذلك إلى الغناء . ومن ذلك قوله :

لما قضينا حديثًا من معاتبةٍ ... وكاد يبرد هذا الشرّ أو بردا
جاءت بأزهر لم تنسج عمامته ... إذا الزجاجة كادت كأسه سجدا
ريان ، كالريم خداه ومذبحه ... إن لم يُرَعْ بسجودٍ سامرا ركدا
نلهو إليه ونشكو بث أنفسنا ... فى سلوة ، وزوال الليل قد أفدا

حتى إذا طارق شارت عداوته　　　بأول الصبح كانت صالحا فسدا

قامت تهادى إلى أهل تراقبهم　　　مشى البهير ترى فى مشيه أودا

والعين تُحدر دمعا جدَّ واكفةً　　　على مساقط دمع كان قد جمدا

كأنه لؤلؤ رثّت معاقده　　　فانساب أوله فى السلك فاطردا

وقمتُ لم أقض منها إذ خلوتُ بها　　　إلا الحديث وإلا أن أمسّ يدا (١٢)

ويقول أيضا :

واذكرى ليلة السما　　　ءِ بذى التاج مقعدا

بين راح ومزهر　　　وغناءٍ شفا الصدا

إذ تقولين جهرة :　　　ليت ذا دام سرمدا (١٣)

ويقول :

أما تذكرين الراح والعود والندى　　　ومجلسنا بين الأُزَيْهر والصَّمْدِ ؟

...

ليالى ندنو فى الجوار ونلتقى　　　على زاهر يلقى الغزالة بالسَّجْدِ (١٤)

وثمة صورة بديعة عند بشار للإبريق وقد علقت بفمه قطرة من الخمر :

كأن إبريقنا والقطر فى فمه　　　طير تناول ياقوتا بمنقارِ (١٥)

هذا ، ولم تقابلنى لبشار خمريات مستقلة . إنما هى أبيات تأتى فى تضاعيف قصائد الغزل عادةً . أما أبياته الميمية التى تبدأ بقوله : « ورب كأس كالسلسبيل ... » فقد جاءت تمهيدًا لرثاء نفر من أصدقائه ، وهو غريب : أن يصف الخمر فى قصيدة رثائية ! ويزيد الأمر غرابة أن شرب الخمر فى تلك الأبيات يهيج الطرب والأريحية ويملأ الشارب إحساسًا بأهميته وخطره فيظن أنه مستطيعٌ أن يأتى من الأمور مستحيلاتها . ومثل ذلك البيت التالى ، فقد جاء هو أيضا فى سياقِ تذكُّر من مضى من الأصدقاء والحزن عليهم :

فاشرب على تلف الأحبة . إننا　　　جَزَرُ المنية ظاعنين وخُفَّضا

كما جاءت له أبيات خمرية فى خلال قصيدة مدح بها داود بن سليمان بن على . وهذه هى الأبيات . وبالمناسبة ، فهى الأبيات الوحيدة التى وصف فيها بشار مجلس خمر وصفًا كاملا :

حتى إذا اليوم مضى كلّه　　　وباح بالمكتوم سُرْسُورُ

وراعنا فى ميمه كافرٌ　　　خليفة الشمس وتستيرُ

...

دعا لنا الحُور عليها الحيا　　　يا حبذا الحُورُ المعاطيرُ !

بتنا نعاطيها رهاويّةً　　　وهْى عِكافٌ بيننا صُورُ

تزيّن الشَّرْبَ ، وقد زانها　　　فى الدرّ شبّته التصاويرُ

جُوفٌ مصيخات ، وإن قُبّلتْ　　　حنّت كما حنّ المشاويرُ

يشدون أصواتًا مدينية　　　وضَرْبَ مكّىّ له صورُ

تبكى المزامير لها تارة　　　شجوا ، وتحكيها المزاهير

وأنا محبور بتغريدها　　　إمّا تداعى البَمّ والزيرُ (١٦)

الهوامش

١- الديوان / ٤ / ١٨١ - ١٨٢ .

٢- ٤ / ١٧٦ - ١٧٧ .

٣- ٢ / ١٣١ - ١٣٢ .

٤- ٤ / ٨٦ .

٥- ١ / ١٣٧ .

٦- ٢ / ١١٩ .

٧- ٢ / ١٩١ .

٨- ٢ / ١٩٩ . هـذا ، ولابـد من الإشارة إلى أن بشارا يكثر فى شعره من ذكر السجود : السجود فى الصلاة ، والسجود أمام جمال الحبيبة ، وسجود الآخرين لشعره ، وسجود الأعداء أمام ممدوحه . ثم هنا سجود الإبريق والكأس .

٩- ٢ / ٢٠٠ .

١٠- ٤ / ٨٦ .

١١- مقدمة الديوان / ١ / ٣٩ .

١٢- الديوان / ٢ / ١٩٨ - ٢٠٠ .

١٣- ٢ / ٢١٣ .

١٤- ٢ / ٣١٣ - ٣١٤ .

١٥- ٤ / ٦١ .

١٦- ٣ / ١٩٦ . والبَمّ والزِّير : وتران من أوتار العود .

من شعر الحكمة عند بشار

اشتهر بشار بجريان الحكمة على لسانه . ولسنا نقصد أنه فى سلوكه كان حكيما، فهذا شىء ، وذاك شىء . وهناك عدد من الأبيات الحكمية البشارية مصوغة صياغة جيدة تضمن لها السيرورة والذيوع . ومن هذه الأبيات قوله :

عتاب الفتى فى كل يوم بليّةٌ   وتقويم أضغان النساء عَنَاءُ (١)

* * *

فدع الدنيا وعش فى ظلّها   طلب الدنيا من الداء العَيا (٢)

* * *

تأتى المقيمَ ، وما سعى ، حاجاتُه   عددَ الحصى ، ويخيب سعيُ الخائب (٣)

* * *

ودهر المرء منقلبٌ عليه   فنونا ، والنعيم إلى انقلابِ

وكل أخ سيذهب عن أخيه   وباقى ما تحبّ إلى ذهاب (٤)

* * *

كلّ شىءٍ إلى انقطاع مداهُ   وصروف الأيام تُبْلى الجديدا (٥)

* * *

فاحمل النفس على مكروهها   إن حلو العيش محفوفٌ بمُرّ

وإذا الأمر التوى من بابه   فارض ما أُعطيتَ منه واستقرّ (٦)

* * *

فلا ، وأبيك ، ما فى العيش خير   ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ (٧)

* * *

إذا لم تخش عاقبة الليالى   ولم تَسْتَحْيِ فاصنع ما تشاءُ (٨)

* * *

ولَلْمَوتُ خير من حياة على أذى   يضيمك فيها صاحبٌ وتُراقبُهُ (٩)

* * *

وليس أخى من ودنى رَدْ عينه ولكنْ أخى من ودّنى فى المصائب (١٠)

* * *

وما كلّ ذى رأى بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نُصْحَه بلبيبِ (١١)

* * *

فمن عاتب الجهّال أتعب نفسه ومن لام من لايعرف اللومَ أفسدا (١٢)

* * *

ولابد من شكوى إلى ذى حفيظة إذا جَعَلَتْ أسرارُ نفسى تَطَلَّعُ (١٣)

* * *

وما ضاع مالٌ أورث الحمدَ أهْلَهُ ولكنّ أموال البخيل تَضِيعُ (١٤)

* * *

وما خاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سُوقُ
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيقُ (١٥)

* * *

إذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً مكانُ الخوافى قوةٌ للقوادمِ (١٦)

* * *

وحارب إذا لم تُعْطَ إلا ظُلامةً شبا الحرب خيرٌ من قبول المظالمِ (١٧)

الهوامش

١- ١ / ١٢٨ .

٢- ١ / ١٣٣ .

٣- ١ / ١٦٧ .

٤- ١ / ٢٤٨ .

٥- ٢ / ١٨٩ .

٦- ٣ / ٢٩١ .

٧- ٤ / ٧ .

٨- ٤ / ٧ .

٩- ٤ / ١١ .

١٠- ٤ / ٢١ .

١١- ٤ / ٢٣ .

١٢- ٤ / ٤١ .

١٣- ٤ / ١٠٠ .

١٤- ٤ / ١٠٤ .

١٥- ٤ / ١١٤ .

١٦- ٤ / ١٧٢ - ١٧٣ . والخوافى : الريش الذى فى باطن الجناح . والقوادم : الريش الذى فى ظاهر الجناح .

١٧- ٤ / ١٧٣ .

الأمثال

وكما اشتهر بشار بشعر الحكمة نجد فى قصائده عددًا لا بأس به من الأمثال : إمَّا أمثال قديمة ضمَّنها شعره ، أو أمثال له هو يمكنها أن تأخذ مكانها مع تلك الأمثال القديمة . وهذه شواهد ما نقول :

يسقط الطير حيث ينتشر الحبُّ   وتُغْشَى منازل الكرماءِ (١)

* * *

ليس منّا من لا يعاب ، فأغْضِى   رُبَّ زارٍ بسادٍ عليه الزَّرَاءُ (٢)

* * *

رضيتُ ميعادك يا سيدى   إن لم يكن ميعاد عرقوب (٣)

* * *

وكنتُ كالباحث عن مدية   وإنما يشقى بها الباحثُ (٤)

* * *

كلّ من ودّ أحمدا   ودّ أشياع أحمدا (٥)

* * *

الحرّ يُوصَى ، والعصا للعبدِ   وليس للملحفِ مثلُ الردّ (٦)

* * *

رُحْتُ فى النُّوكِ كمن قيل له :   أنت مبتاعٌ بعيرًا فَحَدًا (٧)

* * *

تفشُو إلىَّ بأشعار ملصقةٍ   مَهْدًا أبا عمرو . ما أنت فى العِير (٨)

* * *

قد زُرتِنا فى الدهر واحدةً   عودى ولا تجعليها بيضة الديك (٩)

* * *

فصرتُ كالعَيْر غدا طالبا   قَرنًا فلم يرجع بأذُنَيْن (١٠)

الهوامش

١- ١ / ١١١ .

٢- ١ / ١١٥ .

٣- ١ / ٣٧١ .

٤- ٢ / ٦٥ .

٥- ٢ / ٢١١ .

٦- ٢ / ٢٢٤ .

٧- ٣ / ١١ .

٨- ٣ / ٢٦٣ .

٩- ٤ / ١٢٤ .

١٠- ٤ / ٢٠١ .

كل شيء إلى زوال

تكررت فى شعر بشار الإشارة إلى فناء الدنيا وزوال كل شيء . وهذه أمثلة على ذلك :

إن الليالىَ والأيام فاجعةٌ — والمرءُ يَفْنَى ولا يَبْقَى له الأبَدُ (١)

* * *

فقد رأيتُ بنات الدهر عاملةً — فى الغُبَّرِينَ . وما حىٌّ بخلاَّدِ (٢)

* * *

فأصبح عيشنا فيها تولى — وهل للعيش فى الدنيا خلودُ ؟ (٣)

* * *

ثم بَدَلتُ صفحتى للغوانى — كلُّ شىء إلى بِلَى مردودُ (٤)

* * *

حتى انقضى فى الصبح ملعبنا — وكذاك يهلك ما له أمَدُ (٥)

* * *

وذلك دهر مضى صفوُهُ — وعيش امرىء لم يكن خالدا (٦)

* * *

وكذاك الجديد يبلى على الدهرِ — ولابدَّ لامرىء من عشيرِ (٧)

* * *

وأبْدَى البِلَى فيها سطورا مبينةً — عباراتُها أنْ كلُّ بيت سَيَدْثُرُ (٨)

* * *

فالحمد لله ، لا شريك له — ليس بباقٍ شىءٌ على الزَّمَنِ (٩)

* * *

ثم فارقتُ ذاك غير ذميمِ — كل عيش الدنيا ، وإن طال ، فانِ (١٠)

شيء واحد (من المخلوقات طبعًا) هو الوحيد ، فيما يبدو ، الذى استثناه

بشار من ذلك ، وهو الأشعار التى كان يصوغها فى ممدوحيه ، وذلك ليبين لهم أنه إذا كان يأخذ منهم مالاً زائلاً فإنه يعطيهم فى مقابله شيئا باقيا على الزمن لا يفنى ، فهم من ثمّ غير مغبونين بل هم الكاسبون ، وأى كسب ! :

كذاك الدهر يُبْلِى كل شىء — ولا يَفْنَى على الدهر القصيدُ (١١)

الهوامش

١- ٢ / ٢٩٦ .

٢- ٢ / ٢١٧ .

٣- ٣ / ١٦ .

٤- ٣ / ٢٢ .

٥- ٣ / ٦٤ .

٦- ٣ / ١٥١ .

٧- ٣ / ٢٠٦ .

٨- ٤ / ٧٨ .

٩- ٤ / ٢١١ .

١٠- ٤ / ٢١٣ .

١١- ٣ / ١١ .

سمات متفرقة فى شعر بشار

الرَّيْحَان

كررَّ بشار فى قصائده كلمة « الريحان » على نحو يلفت الانتباه : سواء فى خمرياته أو مدائحه أو غزله أو رثائه :

مــه ، لا أبا لـك . إنتــى ريحانــة   فاشمـم بأنفـك ، واسقهــا بذنـابِ (١)

* * *

أمـن ريحانـــة حسُنـتْ وطابــت   تبيـت مروَّعــا وتظــل صبًا ؟ (٢)

* * *

بـل كيـف أُسْقَـى على الريحان متكئـا   وقد تعلّقـتُ من أسماءَ أسبابا ؟ (٣)

* * *

فقــد هيّــج شوقــى   ريــحُ ريحــانِ وطيــبِ (٤)

* * *

وكـان كريحـان العـروس بقـاؤه   ذوى بعـد إشـراق الغصـون وطيبِ (٥)

* * *

للشمـس يسجـد طائعـا ريحانُـهُ   ويبيـت يـأرق ضيفُهُ بذبابِـهِ (٦)

* * *

وإذا مــا داوُد حــلّ بــأرض   طـاب ريحانُهــا وطـاب التـرابُ (٧)

* * *

كــأن الــروح والريحــا   ن فيــه المســك مفتــوتُ

جــرى فــى مــاء خدّيــكِ   وفــى الأنيــاب تبيــتُ (٨)

* * *

قـد عشـتُ بين الريحان والراح والـ   ـمزهر فـى ظـلّ مجلس حَسَـن (٩)

* * *

ريحانةُ القلب لو كانت تساعدني … إذن رضيتُ بها من كلّ ريحان (١٠)

أجِدّك :

وهذه الكلمة هي أيضا من الكلمات التي لاحظت تكررها في شعر بشار . وهي من الكلمات التي انقرضت تقريبا من الأسلوب العربي . ولا أذكر أني قابلتها في أسلوب أحد من المعاصرين ممن قرأت لهم إلا عند الدكتور طه حسين مرة أو مرتين :

أجِدّكَ من ريحانةٍ طاب ريحُها … ظللْتَ تُبكّي خُلّةً وتنوحُها (١١)

* * *

أجِدّكِ لا أنتِ تدنينني … ولا الصيد متبعٌ صائدا (١٢)

* * *

أجِدّكَ لا تنسى بمقصودة اللّوى … عشيةَ إذ راحت تجرّ المُعَضَّدا (١٣)

* * *

أجِدّهمو لم يشعروا بقصائدي … تحنّ حنين الحارسات غوادي (١٤)

* * *

أجِدّكِ لا أنتِ تشفينني … ولا الصيد متبعٌ صائدا (١٥)

* * *

أجِدّهُمو لا يتقون دنية … ولا يؤثرون الخير ، والخيرُ يُؤْثَرُ (١٦)

الحسد

يشيع في الشعر العربي ذكر الحسد وتلذذ المحسود به والاستزادة منه في كثير من الأحيان ، لأنه انعكاس لألم الحاسد ، فالمحسود يتلذذ من ثمّ بآلام عدوّه الذي يحسده ويريد له أن يزداد منه حتى تزداد غصصه وأوجاعه . إن الحسد مغروس في الطبيعة البشرية ، لأن كل إنسان يحب أن يتفرد بالتفوق وأن يكون أعلى من الناس

جميعا . لكن يبدو لي أن شعرنا يفيض بهذا المعنى على نحو جدّ ملحوظ بحيث إنني لأخجل من هذه الظاهرة خوفًا من أن يقال إننا ، دون غيرنا ، أمة من الحاسدين . إن الحسد موجود في كل أمة ، ما في ذلك شكّ . ولكن هل يشيع التعبير عنه في آداب الأمم الأخرى وأشعارها بخاصة كما يشيع في أدبنا ؟

على أية حال ، هذه بعض شواهد على هذا المعنى من الشعر العربي القديم .

قال عمر بن أبي ربيعة :

ولقد قالت لجاراتٍ لها … وتعرّتْ ذات يوم تبترد

أكما ينعتني تُبْصِرنني … عَمْرَكُنّ الله أم لا يقتصد ؟

فتضاحكن وقد قُلْنَ لها : … حَسَنٌ في كل عينٍ من تَوَد

حسدًا حُمّلْنه من أجلها … وقديما كان في الناس الحسد

وقال الكُمَيتْ بن زيد :

إن يحسدوني فإني لا ألومهمو … قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسِدوا

فَدَامَ بي وبهم ما لي وما لهمو … ومات أكثرنا غيظا بما يجد

أنا الذي يجدوني في حلوقهمو … لا أرتقي صَدَرًا منها ولا أردُ

لا يُنْقِص الله حسّادي ، فإنهم … أَسَرُّ عندي من اللائي له الوَدَدُ

وقال عروة بن أذينة :

إني حُسِدْتُ ، فزاد الله في حسدي … لا عاش من عاش يومًا غير محسودِ

ما يُحْسَدُ المرءُ إلا من فضائله … بالعلم والظرف أو بالبأس والجودِ

وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ … أتاح لها لسانَ حسودِ

لولا اشتعال النار فيما جاورت … ما كان يُعْرَفُ طيبُ عَرْفِ العودِ

وقال البحتري :

محسّد بخلال فيه فاضلة … وليس تفترق النعماء والحسدُ

ثم يأتى بشار . وهذه بعض أبياته التى ذكر فيها الحسد . والحسد فى شعر بشار إمَّا موجَّه إليه أو إلى حبيبته أو إلى ممدوحه ، بل إنه هو نفسه ليحسد ملابس الحبيبة غيرةً منها لأنها تلامس جسدها وهو لا . وكذلك يحسد عينها لأنها ترى جمالها وهو محروم منه . كما أن الياقوت والدر يحسدان هذه الحبيبة لتفوقها عليهما فى الجمال والنفاسة . وهو يتلذذ بحسد من يحسدونه ويدعو الله أن يديمه عليهم ولا يحرمهم منه حتى يظلوا فى أتم وعناء :

حسدتَنى حين أصبتُ الغنى … ما كنتَ إلا كابن حواءِ
لاقى أخاه مسلمًا مُحْرِمًا … بطعنة فى الصبح نجلاء (١٧)

* * *

متحاسدين على لقاء مُسَوَّدٍ … رحب الفناء جَدٍ على أصحابِه (١٨)

* * *

ولمّا رأى الحسادُ رَوْحَ بن حاتم … أميرًا عليه بيتُ مُلْكٍ مُطَنَّبُ
أصاخوا كأن الطير فوق رؤوسهم … يشيمون موتًا فوقهم يتقلّبُ (١٩)

* * *

وإن سُرّ حسّادى فسيبك واسـ … ـعٌ على الناس لا يسطيعه المُتَفَجْفِجُ (٢٠)

* * *

حسدتُ عليها كلّ شىء يمسّها … وما كنتُ لولا حبُّها بِحَسُودِ (٢١)

* * *

تحسدها الجاراتُ من حسنها … ومثلُ عبَّادةَ فَلْيُحْسَدِ
يحسدن منها قصبًا مالتّا … للقلب والخلخال والمعْضَدِ
والدرّ والياقوت يحسدنها … مناطةً فى الأوضح الأجْيَدِ (٢٢)

* * *

يحسُدْنَ فضل جمالها … لا تعدمى حَسَدَ الحواسدْ (٢٣)

* * *

ولقد حسدتُ على عُبَيْدةَ عَيْنَها … عجبا خُلِقَتْ لما أُحِبُّ حسودا (٢٤)

* * *

أرى الإزار على حُبَّى فأحسده … إن الإزار على ما ضمّ محسودُ (٢٥)

* * *

كلوا الخلافة واحشوا عين حاسدكم … قيحا يفقّئُه العُوّارُ والرَّمَدُ
كم حاسد لكمو يرجو خلافتكم … قد كاد يفقأ منه المقلةَ الحسدُ (٢٦)

* * *

أنصفتمونا فعابوا حكمكم حسدا … والله يعصمكم من غِلّ حُسَّادِ (٢٧)

* * *

لعنةُ الله على جاريةٍ … صرفتْ قلبَك عنّى حسدا (٢٨)

* * *

فَعَالك محمود ، وأنت مُحَسَّدٌ … وهل تجد المحمودَ إلا محسَّدا (٢٩)

* * *

وحاسد قبةٍ بُنِيَتْ لروْحٍ … أطال عمادَها سلفٌ وآدوا
فقلتُ له : أراكَ حسدتَ رَوْحًا … كذاك المَلْكُ يحسده العبادُ
تشدّدْ ، لا تمت حسدًا وغمًّا … لروْحٍ مُلْكُه ، ولك الكيادُ (٣٠)

* * *

وزيرُ أمين المؤمنين وسيفه … إذا نفخ الشيطان فى أنف حاسد (٣١)

* * *

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم … قبلى من الناس أهل الفضل قد حُسِدُوا (٣٢)

* * *

أيام يحسدها ودّى ويحسدنى … ما لا أنالُ نساءٌ كُنّ حُسَّادا (٣٣)

* * *

أيام يحسدها التنا جاراتُها … وسط النساء . ومثلُها فَلْيُحْسَدِ (٣٤)

* * *

لا تكثرى غلّ حساد غممتهمو … لا يبتنى المجد إلا كلُّ محسود (٣٥)

* * *

وما أحْسُدكِ الحُسْن … ولكن أحسد المنْزَرْ (٣٦)

* * *

لا ينقص الله حسّادى ، فإنهمو … أحبّ عندى من اللائى له الوُدُّ (٣٧)

* * *

لاعشتُ خلوا من الحساد ، إنهمو … أعزّ فَقْدًا من اللاتى أحبونى

أبقى لى الله حسّادا وغمهمو … حتى يموتوا بداءٍ غير مكنونِ (٣٨)

الصادر والوارد

تتكرر فى شعر بشار عدة ثنائيات لفظية منها « الصادر والوارد » :

كثُرتْ مواهبه الكبا … رُ لصادر منّا ووارِدْ (٣٩)

* * *

ولا يزال وإن شابت لهازمه … مذبذبا بين إصدارٍ وإيرادِ (٤٠)

* * *

أدرّ كالزقّ مربوطا برمّته … قد بدّهُ الطعنُ إصدارا وإيرادا (٤١)

* * *

فأصبح العبد الذميم ذاعرا

لا يحمد الورْدَ ولا المصادرا (٤٢)

* * *

ومازلتَ حتى أوردتْكَ منيّةٌ … على أختها . ما بالمنية مَصْدَرُ (٤٣)

* * *

يُوردُ الهمّ ولا يُمْرِضُه … حازم فى الورْد محمود الصَّدَرْ (٤٤)

الرغب والرهب

ومن هذه الثنائيات « الرغب والرهب » ، اللذان يستعملهما فى الغالب مسكّنى العين :

أتظهر رهْبة وتُسرّ رَغْبًا … لقد عذبتنى رغْبا ورهْبَا (٤٥)

* * *

فدعوتُ ربّى دعوةً جمعت … رغْب المحب وشدة الرَّهْبِ (٤٦)

* * *

رهينًا بالذى لاقَيْـ … ـتُ بين الرغْبِ والرَّهْبِ

فرهْبى منك فى شغفى … ومن موت الهوى رَغْبى (٤٧)

* * *

من راغبٍ يَعِدُ العيالَ نوالَه … بعد الرجوع وراهبٍ لعقابِهِ (٤٨)

* * *

حدثتنى العيون عنها فحالفـ … ـت المصلّى أدعو إلهى مكبّا

كدعاء المكروب فى لجة البحـ … ـر ينادى الرحمنَ رغبًا ورهْبا (٤٩)

* * *

فتأبّيتُ على مستأذنٍ … مشرف المنبر فضفاض الأُزُرْ

رهبةً أو رغبةً فى ودّه … إنه إن شاء أحْلَى وأمَرّ (٥٠)

* * *

يا عَبْدَ ، إنى قد ظُلِمْتُ ، وإننى … مُبْدٍ مقالة راغبٍ أو راهبِ (٥١)

الطارف والتليد

ومن الثنائيات التى تكثر فى شعر بشار لفظتا « الطارف والتليد (أو التلاد) » :

فبتُّ لما زوّدتِني وكأنني … من الأهل والمال التّلاد حريبُ (٥٢)

* * *

طبيبي ، داوني وتأنَّ سُقْمي … لك اليومَ التلادُ على النجاحِ (٥٣)

* * *

رجل سيبذل للطبيب تلاده … إن كان ذا ثقةٍ له بنجاحِ (٥٤)

* * *

قلتُ للنطاسيّ : أعطيـ … ـكَ تلادي وطارفي بالنجاحِ (٥٥)

* * *

فتاةٌ لها عندي دخيل كرامةٍ … وساعفُ حُبّ من طريف وتالدِ (٥٦)

* * *

فتلك التي نصحي لها ومودتي … ونصري ومالي طارفٌ بعد تالدِ (٥٧)

* * *

مطرتْ سحائبُه عليـ … ـكَ من الطرائف والتلائدْ (٥٨)

* * *

وطارفُ حبّ أصاب الفؤا … دَ وجدتُ تباريحه زائدا (٥٩)

* * *

فدًى لبني العباس نفسي وأسرتي … وما ملكتْ نفسي طريفًا ومُتْلَدا (٦٠)

* * *

لا تصرميه يا عبيدة واقصدي … نفسي فِداك وطارفي وتلادي (٦١)

* * *

فتلك التي نُصحي لها ومودتي … وقَبْضيَ مالي طارفي بعد تالدي (٦٢)

* * *

إنني لأنجز ما وعد … تُ على الطريف وفي التِلادِ (٦٣)

* * *

إذا طارف الحبّ انجلى عنك همُّهُ … تناه من الحب الدخيل تلادُ (٦٤)

* * *

دعي ما تصنعين . فدتك نفسي ، … عُبَيْد ، وطارفي بعد التلاد (٦٥)

* * *

كأنك لم تعلمي أنني … مَلِلْتُ الوسادة والعائدا

لطارف حبّ أصاب الفؤا … د ، وقد يمنع الطارفُ التالدا (٦٦)

النفس (أو الروح) والجسد :

ومن هذه الثنائيات أيضا « النفس (أو الروح) والجسد » . وهذه شواهد عليهما :

قل للرباب : ارجعي روحي إلى جسدي … أو علّليني بوجه منك وضاح (٦٧)

* * *

يا قوم ، نفسي لها معلّقةٌ … ما بعد نفسي بصالحِ جسدي (٦٨)

* * *

أنتِ الأميرةُ في روحي وفي جسدي … فابري وريشي . بكفيكِ الأقاليدُ (٦٩)

* * *

شريك روحك يأوي منك في جسدٍ … ما دام يُرْزَقُ منه الروحُ والجسَدُ (٧٠)

* * *

نحُشّ نيران حرب غير خامدةٍ … تحت العجاج بأرواح وأجساد (٧١)

* * *

إن كنتِ تخشَيْنَ شِركًا في مودتكم … فقد تثبّتّ بين الروح والجسد (٧٢)

* * *

ما كان إلا حديثَ جاريةٍ … لم تَلْقَ روحي ووافقت جسدي (٧٣)

* * *

أبقيــتِ مــن قلبـــى حشاشتَـــــه   وحَلَلْـتِ بيــن الـروح والجسَـــدِ (٧٤)

* * *

سلبتِ فوادَك يـوم رُحْـتُ ، وغـادرت   جسـدا أجـاوره بغيـر فـؤادِ (٧٥)

* * *

فبـتَ أبكـى مـن حـب جاريـة   لـم تجزنـى نائـلاً ولـم تكـد

إلا حديثـا كالخمـر ، لذتـه   تكـون سُكْرًا فى الروح والجسدِ (٧٦)

الحلْب والمَرْى

ومما تكرر فى شعر بشار تكررا لافتًا ألفاظُ المَرْى والحَلْب ، سواء فى مدائحه أو غزلياته . وإليك شواهد ذلك :

وَحَلَبَـتْ كفّـى لقـومٍ حلبـا   فلم أرشّح لعشيرِ ضَبَـا (٧٧)

* * *

لـو حَلَـبَ الأرضَ بأخلافهـا   درّت له الحربُ دمًا ، فاحْلُبِ (٧٨)

* * *

عنـدى مـن الشبهـة البيـانُ ، ومـا   تَطْلُـبُ إلا البيـانَ مـن حَلَبِـةْ (٧٩)

* * *

تُعْطـى الغريزةُ دَرّهـا ، فـإذا أبـت   كانـت ملامتُهـا علـى الحَـلاّبِ (٨٠)

* * *

وإذا جفـوتَ قطعتُ عنـك منافعـى   والـدّرّ بقطعـة جفـاءُ الحالـبِ (٨١)

* * *

فـإذا امتريـتَ لَبُـونَ أم محمـد   رجعـت يمينك بالحِلاب الخائـبِ (٨٢)

* * *

فارضـىْ بأشبـاهِ ما عَمِلْت بنـا   لكـل نفس مـن كفهـا حَلَـبُ (٨٣)

* * *

فاحلـب لبونـك إبساسـا وتمريـة   لا يقطـع الـدرّ إلا عـىٌّ مُحتلـب (٨٤)

* * *

قالـت سليمـى : أعندنـا شُغُـلٌ   عنـك ؟ ولكن لا تُحْسِنُ الحَلَبَا (٨٥)

* * *

ومـا ولـدوا إلا أغـرّ متوّجـا   له راحةٌ تنكى وأخرى تُحَلَّـبُ (٨٦)

* * *

حلمـى أصـمّ ، وراحتـى   للطالبيـن تحلّـبُ (٨٧)

* * *

أخـاف انقطـاع الـدرّ بعـد ابتـزازه   وتبليغ من يَسْدِى الحديثَ وينسجُ (٨٨)

* * *

حلبـتُ بشِعْـرى راحتيـه وقد رنـا   سماحًا. كما درّ السحابُ على الرَّعْدِ (٨٩)

* * *

تـدرّ لـه أخـلاف درٌّ غزيـرةٌ   ودرّت لنـا كفـاه من نائل تجرى (٩٠)

اللُّحمة والسَّدى ، والنسيج والنِّير :

تكررت هذه الألفاظ المتعلقة بالملابس ونَسْجِها فى شعر بشار :

أخـاف انقطـاع الـدّرّ بعـد ابتزازه   وتبليغ من يَسْدِى الحديث وينسجُ (٩١)

* * *

وليكـن مـا وعدتنـى   نَسْجَ نيـرٍ علـى سَـدًا (٩٢)

* * *

تُلْحِـمُ أمـرا وأمـورا تُسْـدِى   وابـنُ حكيـم إذ أتـاك يَـرْدِى (٩٣)

* * *

كسوتُـكَ حُلّـةً ممـا أُسْـدّى   بُـرُودا لا يفارقهـا بُـرُودُ (٩٤)

* * *

فما برحوا يَسْدُون حتى رماهمو   بملمومةٍ لم تُبْقِ نيرًا ولا سَدًا (٩٥)

* * *

غُرّ القصائد أسديها وأُلحمها   كأن رأسك منها فى أعاصيرِ (٩٦)

* * *

ومن العجائب أن أفْرحَ صالحٍ   يَسْدِى علىّ كبيرهم ويُنِيرُ (٩٧)

* * *

فَشِنْ نَفْسَك أو زِنْها   فإن البُرْدَ بالنيرِ (٩٨)

تشبيه الشعر بالعنب

كرّر بشار تشبيه الشَّعر بالعنب فى غزارته واسوداده . كما شبهه بقصبٍ ديجورٍ مرة واحدة على الأقل :

ولها وارد الغدائر كالكر   م سوادًا قد حان منه انتهاءُ (٩٩)

* * *

رأسى كأنه عنبُ ؟ (١٠٠)

* * *

مبتلّ الخَلْق هضيم الحشا   ذو شَعَرٍ كالكَرْم غربيبِ (١٠١)

* * *

وزارنى من لم يكن يزورُ

من دونه الحِجَابُ والسُّتورُ

...

أيام رأسى قصبٌ ديجورُ (١٠٢)

* * *

ووارد كعريش الكَرْم تجفله   بواضح يَجْفُلُ العينين فى حَوَرِ (١٠٣)

الكمّون

من التشبيهات التى لفتتنى فى شعر بشار ، على رغم قلتها ، تشبيهه المواعيد الخادعة التى لا تنجلى عن شىء (سواء فى العطاء أو فى الحب) بسَقْى الكمّون ، الذى يزعم الناس أنه يُرْوَى بالأمانى فيُكْتَفَى فى سقيه بأن يقال له : « غدا نسقيك ، وبعد غد يكفيك » . وقد ذكر ابن عاشور مثلاً عاميا يقول : « عيش بالمنايا كمّون » (١٠٤) . قال بشار :

يعقوبُ ، قد ورد العفاةُ عشيةً   متعرضين لسيبك المنتاب

فسقيتَهم وحسبتنى كمونةً   نبتت لزراعها بغير شراب

مه ، لا أبالك . إننى ريحانة   فاشمم بأنفك ، واسقها بذِناب (١٠٥)

* * *

ليس المحبّ ككَمّون بمزرعةٍ   إن فاته الماءُ أغنتهُ المواعيدُ (١٠٦)

* * *

وعدتَ فلم تصدق ، وقلت : « غدًا غدا »   كما وُعِد الكمون شُربًا مؤخّرا (١٠٧)

* * *

إذا جئتَه يومًا أحال على غدٍ   كما وُعِد الكمّونُ ما ليس يَصْدُقُ (١٠٨)

صيغة « أملاك »

لاحظنا من قبل كثرة ذكر « الملوك » فى شعر بشار . وهنا نشير إلى تكرر استخدامه لصيغة « أملاك » الأقل شيوعًا تكررا ملحوظا ، إلى جانب صيغة « ملوك » ، وهى الصيغة الأشيع والأكثر انتشارا :

نهانى مالك الأملاك عنها   فثاب الحِلْمُ وانقطع العَنَاءُ (١٠٩)

* * *

أبناء أملاك من صلى لقبلتنا   فكلّهمو مَلْكٌ بالتاج مُعْتَصِبُ (١١٠)

* * *

وأملاكٍ وهبتُ لهم ثنائى   وليس كزاخر النيل الثِّمادُ (١١١)

* * *

أبى نجلُ أملاك وزَوْرُ خليفة   يلين له باب الهمام إذا وَفَدْ (١١٢)

* * *

أنت ابن أملاكٍ لهم نكيرُ (١١٣)

* * *

قد زرتُ أملاك بنى هاشم   وزارنى البيض المعاصيرُ (١١٤)

* * *

تثاقلتُ إلا عن يد أستفيدها   وزورة أملاكٍ أشدّ لها أزرى (١١٥)

* * *

وعندك عهْدٌ من وصاة محمد   فَرَعْتَ بها الأملاكَ من ولدِ النَّضرِ (١١٦)

* * *

كأنى من الأملاكِ أملاك هاشم   بأبوابهم من مجتدين ومن مُثْرِ (١١٧)

* * *

وأملاك صدق ألبستنى طرازَهم   قصائدُ مالى غيرهن شفيعُ (١١٨)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن المتنبى قد استخدم هو أيضا هذه الصيغة عددًا من المرات يكاد يساوى هذا العدد ، إذ أحصيتها فى شعره مرات تسعًا على الأقل (١١٩) .

أُمّات

ومن الصيغ الجمعية التى قلما تُستَخْدَم صيغة « أُمَّات » (جمع « أُمّ ») ، التى استعملها بشار عدة مرات بدلاً من « أمهات » الشائعة :

ألا إن اللئيم أبا قديمًا   وأمّات إذا ذُكر النساء:

نتيجٌ بين خنزير وكلب   يرى أن الكمار له شفاءُ (١٢٠)

* * *

قلّ من طاب له آباؤه   وعلى أُمّاته حسن الثَّنا (١٢١)

* * *

مُوَلَّينا على الأُمّات جَلْدٌ   على وَجَلٍ ، فدرهمه قَيُودُ (١٢٢)

* * *

يعيشون فى أُمّاتهم وبناتهم   يَعُقّونها عن رائدٍ ومَرادِ (١٢٣)

* * *

إذا صهلت أُمّاته حسنٌ ...   لهُنّ فكانت مَحْجَةٌ وسِفَادُ (١٢٤)

وقد أشار الشيخ ابن عاشور إلى أن هذه الصيغة ، وإن كانت قياسية ، هى صيغة نادرة (١٢٥) . كما أورد استعمال المتنبى لها فى بيت للأمهات البشريات كما هو الحال فى الأبيات التى سقناها هنا من شعر بشار (١٢٦) . وقد أشرت أنا أيضا فى كتابى « لغة المتنبى - دراسة تحليلية » إلى بيت آخر استعملها فيه المتنبى للأمهات غير العاقلات (١٢٧) .

يا صاح / يا خليليّ

من التقاليد الشعرية العربية اتجاه الشاعر بالنداء لصاحبه أو خليليه أو أصحابه (١٢٨) . وهذا التقليد من التقاليد الشعرية القديمة ، لأننا نجده فى أقدم شعر عربى وصلنا . ومن ذلك معلقة امرىء القيس . وها هو ذا بشار ينادى بدوره صاحبه وصاحبيه :

يا صاح ، بلانى طِلابُ الهوى   وصرف إبريق عليه النِّقابْ (١٢٩)

* * *

خليليّ ، لا تستنكرا لوعة الهوى   ولا سلوةَ المحزون شطت حبائبُهْ (١٣٠)

* * *

يا صاحبيَّ ، العشيّةَ احتسِبا　　جَدَّ الهوى بالفتى وما لعِبا (١٣١)

* * *

يا خليليّ ، ألمّا بي بها　　نظرةً ثم سلاني عن وَصَبْ (١٣٢)

* * *

يا صاح ، قل في حاجتي :　　أذكرتَها فيما ذكرتا ؟ (١٣٣)

* * *

صاحِ ، أوصيك إليها　　ثقةً ، فاحفظ وصاتي (١٣٤)

* * *

خليليّ ، ما بال الدجى لا تَزَحْزَحُ ؟　　وما بال ضوء الصبح لا يتوضَّحُ ؟ (١٣٥)

* * *

خليليّ ، اتئادكما بعذرٍ　　ولومُكما أخًا غيرُ اتئادِ (١٣٦)

* * *

يا صاح ، بيّنْ حاجتي　　إن البيانَ مع السَّدادِ (١٣٧)

* * *

يا صاح ، لا تَلْوِ العدا　　تِ ، فإنها ديْنُ الهوادي (١٣٨)

* * *

بكّرا صاحبيَّ قبل الهجيرِ　　إن ذاك النجاح في التبكيرِ (١٣٩)

* * *

يا خليليَّ ، أصيبا أو ذرا　　ليس كل البرق يُهْدِي المطرا (١٤٠)

* * *

فيا صاح ، خبّرني الذي أنت صانع　　بقاتلتي ظلما وما طَلَبَتْ ذَحْلاَ (١٤١)

يا عجبا !

يتكرر عند بشار كثيرًا استخدامه هذه الصيغة التعجبية : « يا عجبا ، يا كبدا ، يا حسنها ، يا عِبرا ، يا مجلسا ... إلخ » ، وذلك فى مواقف التأوه والتعجب والإعجاب :

فيا كبدا فيها من الشوق قرحة　　وليس لها مما تحب شفاءُ (١٤٢)

* * *

يا حسنها حين تراءت لنا　　مكسورة العين بإغفاءِ ! (١٤٣)

* * *

فيا عجبا من الحب المُوَتّى !　　وحسبُك بالغيورِ من القحابِ (١٤٤)

* * *

ولو ان الهوى تزحزح عنّى　　شيّعَتْني ، فيا فدا كلّ حَنْبِ ! (١٤٥)

* * *

على النأى محزونٌ ، وفى القُرْب مُغْرَمٌ　　فيا كبدا ! أىَّ الطريقين أركبُ ؟ (١٤٦)

* * *

فيا عجبا من باهليٍّ يسبنى !　　مطيّةِ كِنْديرٍ قَرَى وأريبِ (١٤٧)

* * *

فيا عجبا ! زيّنْتُ نفسى بحبّها　　وزانت بهجرى نَفْسَها وتحلّتِ (١٤٨)

* * *

يا حسن سلمى حين يحدو بها　　لا عَجِلُ السَّوْق ولا رائثُ ! (١٤٩)

* * *

يا حسنها إذ تقول مازحة　　ونحن فوق السرير نعتفجُ ! (١٥٠)

* * *

فيا عِبَرًا من بيْنها قبل نَيْلها　　ومن سَقَطٍ فيه القوارير تُخْرَجُ

...

ويا كبدًا قد أنضج الشوقُ نصفها ... ونصفٌ على نار الصبابة يُنْضَجُ (١٥١)

* * *

فواعجبا ! صفوتُ لغير صافٍ ... وأعطيتُ الكريمةَ من يشِحُّ (١٥٢)

* * *

فيا مجلسًا لم نقض فيه لبانةً ... ويا ليلة قد كنتُ عنها بمقعد (١٥٣)

* * *

فيا حزنا ! فى الصدر منكِ حرارةٌ ... وفى النفس حاجات تشوقُ ولا تُجْدِى (١٥٤)

* * *

فيا عجبًا من بُعْد سُعْدَى قريبةً ... ومن قربها فى البعد ! وَيْلى على البُعْدِ !

فيا سقما فقدُ الحبيب إذا نأى ... ورؤيته فى النوم أودى من الفَقْدِ (١٥٥)

* * *

فيا كبدا من الطّرِب المُعَنّى ... إليها ! إن أهونه شديدُ (١٥٦)

* * *

أمالت صفاءَ الوُدّ مَنْ حِيل دونها ... فيا حَزَنى ! لا نلتقى آخر الأبَدْ (١٥٧)

* * *

فيا حسنها لولا العيون ! فإنها ... إذا أرْسَلَتْ يومًا أحالت على الغَدِ (١٥٨)

* * *

فيا حزنًا بعد جنيّةٍ ... عليها القلائدُ والمِجْسَدُ !

ويا كبدا ! ليس منها لى ... نوال ، ولا عندها لى يَدُ (١٥٩)

* * *

يا عجبا للخلاف ! يا عجبا ! ... بِفِى الذى لام فى الهوى الحَجَرُ (١٦٠)

* * *

فيا حَرَبا ! بان الشباب ، وحاجتى ... إليهن بين العين والقلب تَسْجُرُ (١٦١)

* * *

فيا عجبا من العبد المذكّى ... أيظلمنى وليس بذى سوارِ ؟ (١٦٢)

لله درك

هذه من العبارات التى لفتتنى بتكررها فى شعر بشار ، وإن لم تكن كثيرة التكرار . وهذه شواهدها :

لله درُّكَ ! لَمْ تَسْمُو بقادمة ... أو يُنْصف الدهرُ من يلوى فيعتقبُ (١٦٣)

* * *

لله درى ! لا أرى عاشقا ... إلا جرى دمعى وطال انتحابْ (١٦٤)

* * *

وكَفَيْتَ رهطَك واحدا ... لله درُّك ، أىَّ واحدْ ! (١٦٥)

* * *

لله درّكمو من أهل مملكة ... ما إنْ لها عنكمو فى الأرض مُلْتَحَدُ ! (١٦٦)

* * *

لله درهمو جندا إذا حَمِسُوا ... وشبّت الحربُ نارًا بعد إخماد ! (١٦٧)

* * *

فلله درّ المالكية إذ صَبَتْ ... إلى اللهو أو كانت تدل على رُشْدِ (١٦٨)

* * *

لله درّك يا مهدىّ من مَلِكٍ ... لولا اصطناعك يعقوبَ بن داودِ ! (١٦٩)

كل امرىء ...

لاحظت تكرر هذه العبارة فى شعر بشار :

لا تَخْشَ غدرى ولا مخالفتى ... كل امرىء راجعٌ إلى حَسَبِهْ (١٧٠)

* * *

كل امرى نَصَبٌ لحاجته ... وعليه يَحْمِلُ أوْ له نَصَبُهْ (١٧١)

* * *

دعهنّ للمسهب الضلّيل موردةً   يا قلبُ، كلُّ امرىءٍ رهنٌ بما اكتسبا (١٧٢)

* * *

وكل امرىء ساعٍ ، وللنفس غايةٌ   وما الداءُ إلا الداءُ غَيْرَ وَدُودِ (١٧٣)

* * *

كلُّ امرىء رهنٌ بما يؤدى   وربّ ذى تاجٍ كريم المجدِ (١٧٤)

* * *

عوّدْتَ نفسك أن تُضامَ ، فخلّها   كل امرىءٍ رهنٌ بما يتعودُ (١٧٥)

* * *

كُونَا كمن قال : لا نعاتبه   كلّ امرى مُنْهٍ إلى أمَدِ (١٧٦)

* * *

تعوّد أخذ الحمد منّا بماله   وكلّ امرىء جارٍ على ما تعوّدا (١٧٧)

* * *

دع الفخر للأحرار ، إنك تارك   لأفعالهم. كلّ امرىء رَهْنُ ما مَهَدْ (١٧٨)

* * *

أما البخيل فلست أعذله   كل امرىء يعطى على قَدرهِ (١٧٩)

لحى الله ...

تكررت هذه العبارة أيضا عند بشار عددا من المرات . وإليك الشواهد :

لَحَى اللهُ فِرْزًا . ما أضلّ مكانه   وأعجبه ! قد فاق كلَّ عجيبِ (١٨٠)

* * *

لَحَى الله أبناءَ الخُلَيْق ، فإنهم   خنازير حشٌ سُخّرت لِسُرُوبِ (١٨١)

* * *

لَحَى اللهُ حمادَ بن نهيا ، فإنه   ذميم إذا ما قام، عِلْجٌ إذا قَعَدْ (١٨٢)

* * *

تيح ، لحاك الله ، لست من العدد   وليس أبوك الوغلُ بالسيد السَّنَد (١٨٣)

* * *

لحى اللهُ قوما عيرونى بحبّها   وقد سبق المقدارُ فى القلْب والخلد (١٨٤)

* * *

لحى اللهُ قوما رأسوكَ عليهمو   ومازلت مرؤوسا خبيث المطاعم (١٨٥)

ويح فلان

ومثل عبارة « لحى الله فلانا » يتكرر عنده أيضا تعبير « (يا) ويح فلان » دلالةً على الإعجاب أو التعجب أو التألم وإظهار الهم :

وبنان يا ويحه من بنان   كنبات سقاه جَمٌّ رَواءُ ! (١٨٦)

* * *

ملأتُ فؤاده غيظا وغمّا   فيا ويح المحبّ من الطّلاب ! (١٨٧)

* * *

يا ويح حماد ! أمن نظرةٍ   راح أسيرًا غير مَجْنوبِ ؟ (١٨٨)

* * *

يا أرض ، ويحك ! أكرميه ، فإنه   لم يبق للعَتكىّ فيك ضريبُ (١٨٩)

* * *

يا ويح فاطمة ، التى فُجِعَتْ به   وتشققت منها عليه جيوبُ ! (١٩٠)

* * *

ويح نفسى ! أكلما دب واشٍ   بحديث وَثَبْتِ للهجر وَثْبا ؟ (١٩١)

* * *

يا ويح نفسى ! أما لنا أبدا   من حبها سلوةٌ ولا فَرَجُ (١٩٢)

* * *

يا ويحها طفلةً خلوتُ بها !   ليست ذنونى فيها من العَدَد (١٩٣)

* * *

ويح نفسى ! أمن دلال فتاةٍ   راح همّى وخفّ عنىّ الهجود ؟ (١٩٤)

* * *

يا ويحها خُلّةً كانت مواعدُها   كالليل غرّت به الأحلامُ رقّادا ! (١٩٥)

* * *

يا ويح نفسى ! أراها كلما انبعثت   ألقى عليها صُباباتِ الكرى القدَرُ (١٩٦)

* * *

ويحها كاعبا تدلّ بجَهْم   كعثبىّ كأنه حمّامُ ! (١٩٧)

عليه سلام الله

ومن العبارات التى تلفت النظر بتكررها فى شعر بشار أيضا قوله : « عليه (عليك) سلام الله » بهذا الترتيب أو بمقلوبه : « سلام الله على ... » أو نحو ذلك :

على الغَزَلى سلامُ الله منى   وإنْ صَنَع الخليفةُ ما يشاءُ (١٩٨)

* * *

فعلى عقبةَ السلامُ مقيما   وإذا سار تحت ظل اللواءِ (١٩٩)

* * *

فعليكَ السلامُ . خيّمتَ فى المُلْـ   ـكِ وغُودِرْت كالمصاب الغريبِ (٢٠٠)

* * *

سلامُ الله ذى العرش   على وجهك يا حُبّى (٢٠١)

* * *

فعليك ، يا عمروُ ، السلام ، فإننا   باكوك ما هبّت صَبًا وجَنُوبُ (٢٠٢)

* * *

دعاها الهوى والحب نحوى فأرسلت :   عليكَ سلامُ الله فى البركات (٢٠٣)

* * *

إذا رَكبتْ منّا بليل فقل لها :   عليك سلامٌ ! مات من يتزوّجُ (٢٠٤)

* * *

على عينها منّى السلام وإن غدت   مفارقةً تَخْدى إلى غير مقْعَد (٢٠٥)

* * *

على الغَزَلى منى السلام ، وربما   خلوتُ بها من عاربٍ فى خَلاً نَدِ (٢٠٦)

* * *

روحى ، عليك سلامُ الله ، وادعةً   لا يقطع الإلفَ شىءٌ غيرُ مقدورِ (٢٠٧)

* * *

على الغَزَلى مِنّى السلام ، فربما   لهوتُ بها فى ظلّ مرؤومةٍ زُهْرِ (٢٠٨)

* * *

كان لى صاحبًا فأودى به الدهـ   ـر وفارقته . عليه السلامُ (٢٠٩)

* * *

عَبْدَ ، يا همتى ، عليكِ السلامُ   فيم يُجْفَى حبيبُكِ المستهَامُ ؟ (٢١٠)

* * *

لا نائلٌ مِنْكَ ولا موعدٌ   ولا رسولٌ ، فعليك السلامْ (٢١١)

جزى الله فلانا ...

ومثل الدعاء بـ « سلام الله على فلان » نرى هذا الدعاء : « جزى الله فلانا ... » قد تكرر أيضا عنده :

فجزى الله عن أخيك ابنَ سَلْمٍ   حين قلّ المعروفُ خير الجزاءِ (٢١٢)

* * *

جزى الله عن قومى سفيحًا كرامةً   وعن رجلٍ يُهْدِى له الحمدَ والوُدّا (٢١٣)

* * *

إن الأميـــر ، جـزاه اللـه صالحـةً ،   فـى كـل صالحـةٍ أمسى له أثَرُ (٢١٤)

* * *

جـزى اللـهُ مَهْـدِىَّ الصـلاة كرامـةً   لقد فلَّ عن دينى وخفّف من ظهرى (٢١٥)

* * *

قـل للأميـــر : جــزاك اللـه صالحـةً   لا يُجْمَعُ الدهرَ بين السّخْل والذّيبِ (٢١٦)

* * *

فقلتُ : أحسنتِ يا سؤلى ويا أملى   فأسمعينى ، جـزاكِ الله إحسانا (٢١٧)

* * *

أما علمتَ ، جـزاكَ اللـــه صالحـةً   عنـى وزادك خيـرا يا ابـن يَقْطيـــنِ

أنـــى أريـــدك للدنيـــا وزينتهـــا   ولا أريدك يوم الديـن للديـن ؟ (٢١٨)

لیت شعری

هذه العبارة من العبارات التى يكثر بشار من استعمالها ، وهذه شواهدها :

ألا ليـت شعـــرى هـــل أزوُركِ مـــرة   وليس علينـا يا عُبَيْـدُ رقيبُ ؟ (٢١٩)

* * *

ليـت شعـرى تبكيـن إن متّ من حبـــ   ـك أو تضحكين يا خُشَابَـةْ ؟ (٢٢٠)

* * *

ليـت شعـــرى جَـدَدْتِ يـوم التقينــا   أم تصدّين مــن لَقِيتِ بلِعْـبِ ؟ (٢٢١)

* * *

ليـت شعـرى عـن الربـاب وقـد شطّـ   ـت بها الدارُ هل لها إصقابُ ؟ (٢٢٢)

* * *

كـــلَّ يـــــوم تعتّــبَ الــودُّ منــــه   ليت شعرى أيُحْسَبُ الودُّ عتبـا ؟ (٢٢٣)

* * *

فليـت شعـــرى علـى قيـل الوشاة لنـا   إذا أزمع الحىّ وانصاعوا لتصعيد (٢٢٤)

* * *

يا ليـت شعـرى ومـرُّ القيـظ مختلـفٌ   علـى شريجيـــن ملفـوظٌ ومُـزْدَرَدْ

مـــا بـال موسـى ومـن يُدْعـى لبَيْعتـه   كأنـه قفـصٌ فـى ثوبـه ضَرَدْ ؟ (٢٢٥)

* * *

بـل ليت شعرى هل يدنو بكم سببٌ ؟   وهل تعـوَدنَ أيامـى بأجيـاد ؟ (٢٢٦)

* * *

يا ليـت شعـــرى ، والقصد من خُلُقى   والنـــاس مــــن جائــــر ومقتصــدِ

مـــا زادنـــى ذا الجـــوى بذكرهمـو   إلا هجوعًـا ؟ والهـمّ كالوتـدِ (٢٢٧)

* * *

ليــــت شعـــرىَ أكُلُّهـــنْ بخيــــلٌ   مثلَ ما قد يكون أم هُنّ جُودُ ؟ (٢٢٨)

* * *

ليت شعـرى عن ذلك الشخص إذا شطـ   ـت بـــه نيـةٌ إلـــى أجيــــادِ

هـــل دعـــا شوقُـــه الوســادَ ؟ فإنـى   لم أنـل بعـده اشتيـاقَ وسـادى (٢٢٩)

* * *

ألا يا ليــت شعـــرى يـــوم تبــدو   بهـــا صبــــرٌ وصبـــرى غيـــرُ بـــادِ

أدلّــت بالصـــدود أم استـــزادت   فتًـى فى الحب ليس بمستزادِ ؟ (٢٣٠)

* * *

ألا ليـــت شعـــرى علـى هجرهـــا   أتعتــلّ أن لهـــا ذائـــدا ؟ (٢٣١)

* * *

يـــا ليــت شعـــرى ماتــت فأندبهـــا   أم أحدثـت صاحبًـا فأنتحـرُ ؟ (٢٣٢)

* * *

يا ليـت شعـــرى فيـم كـان صـــدودُهُ   أأسأتُ أم رَعَدَ السحابُ وأومضا ؟ (٢٣٣)

* * *

ليـت شعـــرى غـداةَ حُلّيـتَ فـى الجيـ   ـد حنيفًا حُلّيتَ أم زنديقـا ؟ (٢٣٤)

لَعَمْرُ ...

يكثر القسم عمومًا فى شعر بشار ، وبالذات بـ « لعمر ... » . وقد لاحظتُ أن جملة القسم بعدها هى فى الغالب جملة مثبتة مبدوءة بفعل ماضٍ مسبوق بـ « لقد » :

لعمر أبيها ما جزَتنا بنائلٍ   وما كان منها بالوفاءِ وفاءُ (٢٣٥)

* * *

وربما قلتُ : « لعَمْرى » نَسْيًا   العَضْبُ أشْهَى ، فأذقنى العضبا (٢٣٦)

* * *

لعمرى لقد دافعتُ موتَ محمد   لو ان المنايا ترعوى لطبيب (٢٣٧)

* * *

لعمرى لقد أعْطَيْتَ عِرْسًا مريبةً   وقد يقطع الهمَّ الفتى بِمُريب (٢٣٨)

* * *

لعمرى لقد أشمتَ بى عين نائمٍ   فنام ، وهمّى ساهرٌ يتوهّجُ (٢٣٩)

* * *

لعمرى لقد أزرى سهيلٌ بصهره   وولاّهمو فى شِرْكِهِ غير صالحِ (٢٤٠)

* * *

أنت لعمر الله أوجَدْتَها   علىَّ حتى كدّرتْ موردى (٢٤١)

* * *

لعمركَ ما ترك الصلاة بمنكرٍ   ولا الصومِ إن زارتك أمُّ محمدِ (٢٤٢)

* * *

لعمرى لقد أخطأتَ رأيك فيهمو   وما كلّ من تَهْوَى أصاب مُرادُ (٢٤٣)

* * *

فلا تلم النهرىَ إن قلّ جَرْيُهُ   لعمرُ أبيك الوالقىّ لقد جَهَدْ (٢٤٤)

* * *

لعمرى لقد أجدى علىَّ ابن برمكٍ   وما كل من كان الغنى عنده يُجْدى (٢٤٥)

* * *

لعمر أبى لقد بُدِّلتَ عيشا   بعيشك . والأمور إلى مجارى (٢٤٦)

* * *

لعمرى لقد صاهَرْتَ موسى بن صالحٍ   فما يُحْسِنُ الدجّالُ إن كان قد شَعَرْ (٢٤٧)

* * *

لعمرى لقد أوقرتُ نفسى خطيئةً   فما أنا بالمزداد وِقْرًا على وِقْرِ (٢٤٨)

* * *

لعمرى لقد هذَّبْتُ قولى ولم أدَعْ   مقالاً لمغتابٍ ودعوى لمن لَحَا (٢٤٩)

* * *

لعمرى ، لئن أصبحتَ فوق مشذَّبٍ   طويلٍ تعفّيك الرياحُ مع القَطْرِ
لقد عشتَ مبسوط اليدين مبرّزا   وعوفيتَ عند الموت من ضغطة القَبْرِ (٢٥٠)

* * *

وعَدتَ ولم تُكْرِهْ ، وأخلفت طائعا   لعمرى لقد بالغْتَ فى البُخْلِ والجَهْلِ (٢٥١)

إضافة المصدر أو المشتق المحلى بـ « أل » إلى معموله :

من التركيبات التى تبرز فى شعر بشار إضافته المصدر أو المشتق (اسم الفاعل غالبًا) المحلى بـ « أل » إلى معموله . وهاهى ذى الشواهد :

أيها السائلي عن الحزم والنجـ   ـدة والبأس والندى والوفاءِ (٢٥٢)

* * *

فلقد أُسوّى للضغائن مِثْلَها   وأصِى البغيضَ ، ولستُ بالهيّابِهْ (٢٥٣)

* * *

لقد عُنِّيتُ عما أقاسى بذكرها   وعما يقول الشاهدى حين أطربُ (٢٥٤)

* * *

من المستهلات الهموم على الفتى — خفا بَرقُها من عُصْفُرٍ وعُقُودِ (٢٥٥)

* * *

وافق حظًا من سعى بجدّ — قل للزبير السائلي عن وُلْدى (٢٥٦)

* * *

أيها اللائمي ، ولم آت بأسا ، — يشهد الله والثلاث الشهودُ (٢٥٧)

* * *

قل للغواة الطالبي شأوهم : — لا يدركُ الريحَ المجاميرُ (٢٥٨)

* * *

أبا عُمَرٍ ، ما في طلابيك حاجةٌ — ولا في الذى منيتَنا ثم أضجرا (٢٥٩)

* * *

ولولا استيحائيكَ خضّبتُها — وعلّقتُ في جيدها جُلْجُلاً (٢٦٠)

* * *

ألا أيها السائلي جاهدا — ليعرفني ، أنا أنفُ الكَرَمْ (٢٦١)

وقائلة : ... / وقائل : ...

هذا التركيب قد تكرر وروده عند بشار ، إذ تراه يقطع فجأة ما كان بسبيله من فكرة ثم يبدأ معنى جديدًا يفتتحه بقوله : « وقائل : ... » أو « وقائلة : ... » موردا بعده القول المقول ثم يعقب عليه . وهذه بعض أمثلة :

وقائلةٍ : إن متّ في طلب الصبا — فلابد أن تُحصَى عليك ذنوب (٢٦٢)

* * *

وقائلٍ إذ رأى شوقي وصفْحكمو : — دعها ، فما لَكَ منها غيرُ تصبيبِ (٢٦٣)

* * *

وقائلٍ : نام عن أسماء شاكيةً — لا نوّمَتْ عينُه إن كان كذّابا (٢٦٤)

* * *

وقائلةٍ : مالي رأيتُك خاشعا — وقد كنتَ مما أن تلذّ وتطربا (٢٦٥)

* * *

وقائلةٍ حين استُحقّ رحيلنا — وأجفان عينيها تجود وتسكبُ :

أغادٍ إلى حرّان في غير شيعةٍ — وذلك شأوٌ عن هوانا مغرّبُ ؟ (٢٦٦)

* * *

وقائلٍ صحّ من دائي تجنّبُهُ — لم يلق عَجْبًا وإن حدّثتُه عَجَبا :

مالي رأيتُك لا تصبو إلى لعبٍ ؟ — فقلت : من قرّ عينا بالهوى لعبا (٢٦٧)

* * *

وقائلٍ : سرّه دهر وساء بنا — سريعُه في أخٍ برٍّ ومولودِ (٢٦٨)

* * *

وقائلةٍ : إن العيال معوّلٌ — عليك ، فلا تقعُدْ وأنتَ مُضيعُ (٢٦٩)

* * *

وقائلٍ : « هات شوقنا » ، فقلت له : — أنائمٌ أنتَ يا عمرُو بنَ سَمّانِ ؟ (٢٧٠)

اسم نكرة + حرف جر (أو عطف) + نفس الاسم منكرا :

من التراكيب البشّارية أنه كثيرا ما يورد اسمًا نكرة مشفوعًا بحرف جرّ أو عطف أو ظرف بعده نفس الاسم منكّرًا مرة ثانية . وإليك هذه الأمثلة على ما نقول :

ألقى إليه عُمَرٌ شيمةً — كانت مواريث أبٍ عن أبٍ (٢٧١)

* * *

وتُمْسِي والمساء عليك مُرٌّ — يقلّبك الهوى جنبا فجنبا (٢٧٢)

* * *

ظلَمْتِني والهوى مقارضةٌ — كيلاً بكيلٍ ، فكيف نصطحب ؟ (٢٧٣)

* * *

إذا قدحتْ منها الصبابةُ نتّجتْ — عقاربَ فيها عقْربا ثم عقْربا (٢٧٤)

* * *

ورث الأبوةَ كابرًا عن كابرٍ   تَلِدُ الضَّراءَ فهنّ من أكسابِه (٢٧٥)

* * *

وقد نزلوا يوما بأوضاحِ كاملٍ   ولأيًا بلأيٍ من أُضاحَ استقلّتِ (٢٧٦)

* * *

لولا الخليفة أنّا لا نخالفه   لقد دلفنا لأرواد بأرواد (٢٧٧)

* * *

ومن حبّها أبكى إليها صبابةً   وألقى بها الأحزان وَفْدًا على وَفْدِ (٢٧٨)

* * *

وناعمة التأويب عدّيتُ ليلها   بتكليفناها فدفدا ثم فدفدا (٢٧٩)

* * *

مضى شأوه قبل الجياد ، وقُرْوُه   طِراءُ الأعادى مشهدًا بعد مشهدِ (٢٨٠)

* * *

أخّرت رُشْدك فى غدٍ فغدٍ   بل كيف تأمن ما يسوق غدٌ ؟ (٢٨١)

* * *

ولكنّ عقلى مجلسًا بعد مجلسٍ   لنفسك مما لا تنالُ فسادُ (٢٨٢)

* * *

من الصّيد ولاّغُ الدماء إذا غدا   ومستمطر المعروف وقْرًا على وقْرِ (٢٨٣)

* * *

وقالت : هويتَ فَمُتْ راشدا   كما مات عروةُ غمًّا بِغمّ (٢٨٤)

لا واللّه

تكرر عند بشار القسم (باللّه فى كل الأحوال تقريبا) مسبوقًا بـ « لا » أو « ولا » أو « فلا » . وإليك شواهد هذا التركيب :

لقد أنكرتُ يا عبدَ   جفاءً منك فى الكُتْبِ

أعن ذنبٍ ؟ ولا واللـ   ـه ما أحدثتُ من ذنبِ

ولا والله ما فى الشر   ق من أنثى ولا الغرب

سواكِ اليوم أهواها   على جِدّ ولا لعبِ (٢٨٥)

* * *

أحبّى ليس لى صبر   وإن رخّصتَ لى جيتُ

ولا والله ما يصبـ   ـر فى البرية الحُوتُ (٢٨٦)

* * *

وقالوا : لو صفحت عن النصارى !   ولا والله ما بأخيكَ صَفْحُ (٢٨٧)

* * *

ما الليثُ مفترشا فى الغيل كَلْكَلَهُ   على مناكبه من فوقه لِبَدُ

يومًا بأجرأ ، لا والله ، منكَ إذا   أبناء حربٍ على نيرانها اخترَدوا (٢٨٨)

* * *

إذا فارقتُها صبّتْ   علىّ الهمَّ والفِكْرا

وإن لاقيتُها كانت   لنا كالسُّكْرِ أو سُكْرا

ولا والله لا أدرى   أروم الوصل أم هَجْرا (٢٨٩)

* * *

فلا وأبيكِ ما فى العيش خيرٌ   ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ (٢٩٠)

تكرر الاسم المفرد بعد إضافته :

استطعت أن ألاحظ أيضا فى شعر بشار هذا التركيب الذى يقوم على تكرير الاسم المفرد مضافًا ، وإن لم أجد له أمثلة كثيرة :

وبخدٍّ خدٌّ شمس   طالعتْ من مُزْنات (٢٩١)

* * *

وَيَوْمَ الجِنْوِ جِنْوِ بنى زيادٍ   قفا نبأً وأعينهم شهودُ (٢٩٢)

* * *

كأنّ فؤاده يَنْزَى جذارًا   حذارَ البين لو نفع الحِذارُ (٢٩٣)

* * *

لنعم السربُ ربُّ ابْنَىْ دُخَانٍ   إذا نفض الشتاءُ على القُتارِ (٢٩٤)

* * *

كأنى من الأملاكِ أملاكِ هاشمٍ   بأبوابهم من مجتدين ومن مُثْرِ (٢٩٥)

حذف « لا » من الفعل المضارع بعد القسم

تكرر عند بشار حذف « لا » الداخلة على الفعل المضارع بعد القسم . وهذه هى الشواهد :

فاذكرى حَلْفَتِى : أُقارِفُ أخرى   يوم زكّى تلك اليمين البُكاءُ (٢٩٦)

* * *

والله أنساك يا أسماءُ ما طرفتْ   عينى وما قرقر القُمرىّ إطرابا (٢٩٧)

* * *

آليتُ أرضى بالذى سُمْتِنى   أو يبعثَ الموتى لنا باعثُ (٢٩٨)

* * *

خفّضْ جَشَاك على نأى الدنوّ بها   آليتُ أُدنِى نصيحا ما وَحَى واحِ (٢٩٩)

* * *

كأنما أقسمت عينى تُسالمه   حتى ترى أحور العينين فى الجادى (٣٠٠)

* * *

علىّ اليّةٌ وعلىّ نَذْرٌ   أمسّك طائعًا إلا بعُودِ (٣٠١)

وقد جاء فى كتاب « الشعراء السّود وخصائصهم فى الشعر العربى » للدكتور عبده بدوى فى الفصل الخاص بسحيم عبد بنى الحسجاس ما يفيد أن بعضهم يخطّىء

هذا التركيب ، إذ قال ما نصُّه : « وهناك من يأخذ عليه (أى على سحيم) قوله :

وقد أقسمت بالله يجمع بيننا   هوًى أبدًا حتى تحوّل أمردا

لأن المقصود : أقسمت بالله لا يجمع بيننا » (٣٠٢) . وقد أحال المؤلف فى الهامش إلى صفحة ٤٠ فى الديوان ، وإلى صفحة ٢١٦ من المجلد الأول من « الخصائص » . وقد رجعت إلى هذين الموضعين من الكتابين المذكورين فلم أجد فيهما شيئًا يفهم منه أن هناك من ينكر على سحيم حذف « لا » فى البيت بعد القسم . ويبدو أن فى الأمر سهوا . على أية حال فقد جاء فى « همع الهوامع » للسيوطى أنه « يجوز بلا شذوذ حذف (لا) النافية مع مضارع لم يؤكد بالنون ، نحو (تالله تفتأ) ، أى لا تفتأ ، للعلم بأن الإثبات غير مراد ، لأنه لو كان مرادا لجىء باللام والنون ، بخلاف المؤكد بها لأنه يلتبس حينئذ بالمثبت » (٣٠٣) . وفى « النحو القرآنى - قواعد وشواهد » تعليقا على قوله تعالى : « قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضا أو تكون من الهالكين » يقول د. جميل أحمد ظفر : « أى (لا تفتأ) . فحرف النفى فى الآية مقدر . ولا ينقاس حذف حرف النفى إلا إذا كان الفعل مضارعًا واقعًا فى جواب القسم ، وحرف النفى (لا) كما فى الآية الكريمة » (٣٠٤) .

إذن فبشار حين حذف فى الشواهد المارّة « لا » من جواب القسم عند دخولها على الفعل المضارع غير المؤكد باللام كان يجرى على سنن صحيح بل فصيح .

إضافة اسم يدل على الزمان إلى جملة

ومما يكثر عند بشار إضافة اسم يدل على الزمان (مثل « ليالىَ ... » و « أيام ... » و « عشيةَ ... » و « أوانَ ... ») إلى جملة هى فى الغالب فعلية فعلها ماضٍ ، وأحيانا اسمية . وذلك غالبا فى سياقِ تذكُّر اللقاءات العاطفية السابقة بينه وبين صاحبته :

تذكّرُ من أحببتَ إذ أنت يافعٌ   غلامٌ فمغناه إليك حبيبُ

ليالـيَ تشتاق الجـوارَ غريبـةً   إلى قَوْدِ أسرارٍ وهـنّ غُيوبُ (٣٠٥)

* * *

يا سلمَ ، هـل تذكريـن مجلسنـا   أيـام رأسـى كأنـه عِنَـبُ (٣٠٦)

* * *

ويومَ صفحتُ الركبَ بعد لجاجة   وقفتُ بها قَصْرًا وهنّ خَرابُ (٣٠٧)

* * *

سقى اللـه القبـاب بتـل عَبْدَى   وبالشرقَيْن أيـام القبـابِ

...

ليالـيَ لا أعوج على المنادى   ولا العذّال من صَمَمِ الشبابِ (٣٠٨)

* * *

اذكرى ليلـةً نلهـو   فـى رعـود وسحـاب (٣٠٩)

* * *

يا حبذا الكأسُ وحُورُ الدُّمَى   أزمانَ ألهو والهوى لا يعابْ (٣١٠)

* * *

وقـد قامت وليدتُها تغنّى   عشيـةَ جاءها أنى اشتكيتُ (٣١١)

* * *

أيامَ معروفٌ علىَّ الضنا   منها ، ولولا حبّها ما ضنيتُ (٣١٢)

* * *

فهـذا أوانُ انقضتْ شرّتى   وشرَعتُ فى الدّين لا أطلُحُ (٣١٣)

* * *

ليالـيَ أغدو بينهـن مُرَفَّـلا   أُحَبُّ وأُعطَى حاجتى غَيْرَ ملحاحِ (٣١٤)

* * *

عشيّةَ زادتنى الزيارةُ فتنةً   فأقبلتُ محرومًا بهـا لم أُزَوَّدِ (٣١٥)

* * *

أيـامَ عبـدةُ وسطهـ   ـن كأنهـا أم القلائد (٣١٦)

* * *

ليالـيَ ندنو فـى الجوار ونلتقى   على زاهرٍ يَلْقَى الغزالةَ بالسُّجْدِ (٣١٧)

* * *

أيامَ لا أُعْتِبُ العذّال من صَمَمٍ   ولا أكلّف زيدا غير إسعادِ (٣١٨)

* * *

ذكرتُ القاطعات على بلادٍ   فللعينين من سَبَلٍ فريدُ

غداة يروقه كَفَلٌ نبيلُ   وعَينٌ فى النقاب لها صيودُ (٣١٩)

* * *

وزارنـى مـن لم يكـن يـزورُ

مـن دونـه الحجابُ والستـورُ

...

أيـام رأسى قصبٌ ديجورُ (٣٢٠)

* * *

غـداةَ تصبَّرتْ كلبٌ علينـا

وليس لها على الموت اصطبارُ (٣٢١)

* * *

وعروس يشرب فى المجاسد والحِبَا   أيامَ فَضْلُ جمالها مذكورُ (٣٢٢)

* * *

فهذا أوانُ استحييت النفس ، وارعوى   لداتى ، وراجعتُ الذى كان أقوما (٣٢٣)

وإنى ، وإن كنتُ / لم أكن ، ...

تكرر فى شعر بشار استخدام جملة اعتراضية مكونة من « الواو + إنْ + فعل ماضٍ مثبت أو مضارع منفى يدل على المضىّ (فى كل الأحوال تقريبا هو فعل

الكينونة) » :

إنـى ، وإن كنـتُ حمالاً أجـاوره ، صـرّام حبـل التمنى بالأكاذيب (٣٢٤)

* * *

إنـى ، وإن كـان حلمى واسعًا لهمو ، لا أستهـلّ على جـار بشؤبـوبِ (٣٢٥)

* * *

إنّـا ، وإن لم تكـن منّـا مساعَفَـةٌ بما هويـتَ وكنّـا عنـك فـى أشَبِ ،
نهـوى الحديـث ونستبقـى مناصبنـا إن الصحيحة لا تبقى مع الجَربِ (٣٢٦)

* * *

ليـس النعيـم ، وإن كنّـا نُـزَنّ بـه ، إلا نعيـم سُهَيْـلٍ ثـم حمّـادِ (٣٢٧)

* * *

إنـى ، وإن كان جمـع المال يعجبنى ، ما يعدل المالُ عندى صحةَ الجَسَدِ (٣٢٨)

* * *

إنـى ، وإن قصُرت خطـاى ، لَنَـازحٌ مـن هجـر بيتك ، غَيْرُهُ المهجورُ (٣٢٩)

* * *

فأبلـغ بنـى زيـد وقـل لسراتهـم ، وإن لـم يكـن فيهـم سـراةٌ تَوَقَّـرُ :
لأمكـم الويـــلاتُ . إن قصائـدى صواعـقُ منهـا مُنْجِـدٌ ومُغَـوّرٌ (٣٣٠)

قلة القوافى الداخلية

يقلّ فى شعر بشارٍ القوافى الداخلية ، على عكس ما نجده عند كثير غيره من الشعراء . حتى المتنبى الذى اتُّهم من بعض الدارسين بقلة الموسيقى فى شعره وجدتُ له من هذا الضرب من الموسيقى شيئا كثيرًا مع التنويع والتفنن فيه (٣٣١) . أما فى شعر بشار فإنى لم أتنبه إلا لهذه الأمثلة ، وهى كما ترى جدّ قليلة بحيث لا تُذكر :

فَخْمَـــةٌ فَعْمَـــةٌ بَـرُودُ الثنايـــا صعلـةُ الجيـد غـادةٌ غيـداءُ (٣٣٢)

* * *

فاتْـــكِ العِـــدَى ، وردِ الـــرَّدَى وابـــذُلْ فمـــا شـــىءٌ بخالِـــدْ (٣٣٣)

* * *

سِـرْ غيـر وانٍ ولا ثـانٍ على شجـنٍ إن الإمام لمـن صلّـى بمرصـادِ (٣٣٤)

الهوامش

١- ١ / ١٦٢ .

٢- ١ / ١٦٥ .

٣- ١ / ٢٠٨ .

٤- ١ / ٢٢٣ .

٥- ١ / ٢٥٦ .

٦- ١ / ٢٨٥ .

٧- ١ / ٣٣٩ .

٨- ٢ / ٢٠ .

٩- ٤ / ٢٠٩ .

١٠- ٤ / ٢٢٠ .

١١- ٢ / ١٤٢ .

١٢- ٣ / ٣ .

١٣- ٣ / ٣٠ .

١٤- ٣ / ٨٣ . والحارسات : سباع الصيد وكلابه .

١٥- ٣ / ١٤٧ .

١٦- ٤ / ٧٢ .

١٧- ١ / ١٣٠ .

١٨- ٢ / ٢٨٨ .

١٩- ١ / ٣٤٨ .

٢٠- ٢ / ٨٩ .

٢١- ٢ / ١٥٨ .

٢٢- ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ .

٢٣- ٢ / ٢٤٤ .

٢٤- ٢ / ٢٦٠ .

٢٥- ٢ / ٢٧٠ .

٢٦- ٢ / ٢٩٣ .

٢٧- ٢ / ٣٠١ .

٢٨- ٣ / ١١ .

٢٩- ٣ / ٣٩ .

٣٠- ٣ / ٥٤ .

٣١- ٣ / ٨٢ .

٣٢- ٣ / ٩٧ .

٣٣- ٣ / ٩٩ .

٣٤- ٣ / ١١٦ .

٣٥- ٣ / ١٥٤ .

٣٦- ٣ / ٣٠٥ .

٣٧- ٤ / ٣٥ . وقد سبق هذا البيت بنصه تقريبا عند الكميت كما رأينا قبل صفحات .

٣٨- ٤ / ٢١٧ .

٣٩- ٢ / ٢٤٨ .

٤٠- ٢ / ٣٠٠ .

٤١- ٣ / ١٠٠ .

٤٢- ٣ / ٢٣٩ .

٤٣- ٣ / ٢٦١ .

٤٤- ٣ / ٢٩٤ .

٤٥- ١ / ١٦٦ .

٤٦- ١ / ٢١٤ .

٤٧- ١ / ٢٥٨ .

٤٨- ١ / ٢٩١ .

٤٩- ١ / ٣٨١ .

٥٠- ٣ / ٢٩٣ .

٥١- ٤ / ١٨ .

٥٢- ١ / ١٨٠ .

٥٣- ٢ / ١١٤ .

٥٤- ٢ / ١٢٩ .

٥٥- ٢ / ١٤١ .

٥٦- ٢ / ٢٠٦ .

٥٧- ٢ / ٢١٠ .

٥٨- ٢ / ٢٥١ .

٥٩- ٣ / ٣ .

٦٠- ٣ / ٤١ .

٦١- ٣ / ٦٥ .

٦٢- ٣ / ٧٧ .

٦٣- ٣ / ١١٩ .

٦٤- ٣ / ١٣٧ .

٦٥- ٣ / ١٤٠ .

٦٦- ٣ / ١٤٧ .

٦٧- ٢ / ١٣٦ .

٦٨- ٢ / ١٨٢ .

٦٩- ٢ / ٢٦٧ .

٧٠- ٢ / ٢٦٥ .

٧١- ٢ / ٣٠٢ .

٧٢- ٢ / ٣١٧ .

٧٣- ٣ / ٧ .

٧٤- ٣ / ٢٦ .

٧٥- ٣ / ٦٥ .

٧٦- ٣ / ٦٦ .

٧٧- ١ / ١٣٧ . والضب : الحقد .

٧٨- ١ / ١٥٥ .

٧٩- ١ / ١٥٧ .

٨٠- ١ / ١٦٣ .

٨١- ١ / ١٦٧ .

٨٢- ١ / ١٦٩ .

٨٣- ١ / ١٩٢ .

٨٤- ١ / ٢٦٥ .

٨٥- ١ / ٣٢٤ .

٨٦- ١ / ٣٤٦ .

٨٧- ١ / ٣٥٨ .

٨٨- ٢ / ٨٨ .

٨٩- ٣ / ١٢٥ .

٩٠- ٣ / ٢٩٨ .

٩١- ٢ / ٨٨ .

٩٢- ٢ / ٢١٣ .

٩٣- ٢ / ٢٣٧ .

٩٤- ٣ / ١٨ .

٩٥- ٣ / ٣٨ .

٩٦- ٣ / ٢٦٣ .

٩٧- ٣ / ٣٠١ . وأفْرُخ صالح : أبناء صالح بن على بن عبد الله بن عباس .

٩٨- ٣ / ٣٠٨ .

٩٩- ١ / ١١٩ .

١٠٠- ١ / ١٩١ .

١٠١- ١ / ٣٧٠ .

١٠٢- ٣ / ١٨٢ .

١٠٣- ٣ / ٢٤٥ . ويَجْفُل : يزيّن .

١٠٤- انظر الديوان / ١ / ١٦٢ / هامش ٣ .

١٠٥- ١ / ١٦٢ .

١٠٦- ٢ / ٢٧٠ .

١٠٧- ٤ / ٥٨ .

١٠٨- ٤ / ١١٩ .

١٠٩- ١ / ١٠٤ .

١١٠- ١ / ٢٣٧ .

١١١- ٣ / ٥٢ .

١١٢- ٣ / ١٥٢ .

١١٣- ٣ / ١٨٩ .

١١٤- ٣ / ١٩٤ . والمعاصير : الشوابّ .

١١٥- ٣ / ٢٧٥ .

١١٦- ٣ / ٢٨٤ .

١١٧- ٣ / ٢٧٧ .

١١٨- ٤ / ١٠٣ .

١١٩- انظر كتابى « لغة المتنبى - دراسة تحليلية » / مطبعة الشباب الحر ومكتبتها / ١٩٨٧ م / ٤٥ .

١٢٠- ١ / ١٢١ .

١٢١- ١ / ١٣٣ .

١٢٢- ٣ / ١٩ .

١٢٣- ٣ / ٨٧ .

١٢٤- ٣ / ١١٠ . والمحذوف كلمةٌ بذيئة .

١٢٥- انظر الديوان / ١ / ١٣٣ / هـ ١ .

١٢٦- نفس المرجع والصفحة والهامش .

١٢٧- انظر كتابى المذكور / ٤٦ .

١٢٨- تكلم البروفسور بيستون أيضا عن هذه السمة من سمات الشعر العربى القديم ، إلا أنه ظن أن النداء لا يكون إلا لصاحبين اثنين لا غير . وهذا غير دقيق ، والصواب أن الشاعر قد يتجه إلى واحد ، أو إلى اثنين ، أو إلى جماعة من أصدقاء حقيقيين أو متخيلين (انظر كتابه : Selections from the Poetry of Bâŝŝar , p. 8) ومع ذلك فإن بعض القدماء من علماء العرب قد قال شيئا قريبا من هذا . ومنهم ابن سيده ، الذى يقول إنه يكثر فى شعر العرب مخاطبة صاحبين وخليلين دون أقل أو أكثر لأن أقل عدد فى المسافرين يكون ثلاثة (انظر كتابه « شرح مشكل أبيات المتنبى » / تحقيق محمد حسن آل ياسين / دار الطليعة / بيروت / ط ١ / ص ١٩٠) . والصواب ، فيما نرى ، هو ما قلناه .

١٢٩- ١ / ٢٧٦ .

١٣٠- ١ / ٣٠٧ .

١٣١- ١ / ٣٢٣ .

١٣٢- ١ / ٣٤٨ .

١٣٣- ٢ / ٥٠ .

١٣٤- ٢ / ٥٥ .

١٣٥- ٢ / ١٠٤ .

١٣٦- ٣ / ٢٤ .

١٣٧- ٣ / ١١٨ .

١٣٨- ٣ / ١١٩ .

١٣٩- ٣ / ٢٠٣ .

١٤٠- ٤ / ٦٨ .

١٤١- ٤ / ١٣٠ .

١٤٢- ١ / ١٢٧ .

١٤٣- ١ / ١٢٩ .

١٤٤- ١ / ٢٠١ .

١٤٥- ١ / ٢٦٧ .

١٤٦- ١ / ٢٩٣ .

١٤٧- ١ / ٣٦٨ .

١٤٨- ٢ / ٩ .

١٤٩- ٢ / ٦٢ .

١٥٠- ٢ / ٧١ .

١٥١- ٢ / ٩٣ ، ٩٥ .

١٥٢- ٢ / ١٤٦ .

١٥٣- ٢ / ٢٠٦ .

١٥٤- ٢ / ٣١٢ .

١٥٥- ٣ / ١٠ .

١٥٦- ٣ / ١٧ .

١٥٧- ٣ / ٧٠ .

١٥٩- ٣ / ١٢١ .

١٦٠- ٣ / ١٧٠ .

١٦١- ٣ / ٢٦٠ .

١٦٢- ٣ / ٢٦٩ .

١٦٣- ١ / ٢٣٣ .

١٦٤- ١ / ٢٧٥ .

١٦٥- ٢ / ٢٥٣ .

١٦٦- ٢ / ٢٩٢ .

١٦٧- ٢ / ٣٠٣ .

١٦٨- ٣ / ٨ .

١٦٩- ٣ / ١٠٤ .

١٧٠- ١ / ١٥٧ .

١٧١- ١ / ٢٥٢ .

١٧٢- ١ / ٣٥٦ .

١٧٣- ٢ / ١٥٧ .

١٧٤- ٢ / ٢٣٩ .

١٧٥- ٢ / ٣٢٣ .

١٧٦- ٣ / ٤ .

١٧٧- ٣ / ٣٦ .

١٧٨- ٣ / ١١٤ .

١٧٩- ٤ / ٦١ .

١٨٠- ١ / ٣٦٦ .

١٨١- ١ / ٣٦٩ .

١٨٢- ٣ / ١١٣ .

١٨٤- ٣ / ١٣٠ .

١٨٥- ٤ / ١٧١ .

١٨٦- ١ / ١١٨ .

١٨٧- ١ / ٢٠١ .

١٨٨- ١ / ٣٦٩ .

١٨٩- ١ / ٣٧٢ .

١٩٠- ١ / ٣٧٢ .

١٩١- ١ / ٣٨١ .

١٩٢- ٢ / ٧١ .

١٩٣- ٢ / ١٨٤ .

١٩٤- ٣ / ٢١ .

١٩٥- ٣ / ٩٩ .

١٩٦- ٣ / ١٥٨ .

١٩٧- ٤ / ١٧٥ .

١٩٨- ١ / ١٠٥ . والغَزَلَى : الغَزَل .

١٩٩- ١ / ١١٣ .

٢٠٠- ١ / ١٩٩ .

٢٠١- ١ / ٢٠٦ .

٢٠٢- ١ / ٣٧٢ .

٢٠٣- ٢ / ٥٨ .

٢٠٤- ٢ / ٩٥ .

٢٠٥- ٣ / ٧٢ .

٢٠٦- ٣ / ٧٢ . والغَزَلَى : الغَزَل . والعارب : المتحببة إلى الرجل .

٢٠٧- ٣ / ٢٢٣ .

٢٠٨- ٣ / ٢٧٧ .

٢٠٩- ٤ / ١٧٨ .

٢١٠- ٤ / ١٨٠ .

٢١١- ٤ / ١٨٥ .

٢١٢- ١ / ١١٢ .

٢١٣- ٣ / ١٣٢ .

٢١٤- ٣ / ١٧٦ .

٢١٥- ٣ / ٢٨٧ .

٢١٦- ٤ / ٢٧ .

٢١٧- ٤ / ١٩٤ .

٢١٨- ٤ / ٢١٢ .

٢١٩- ١ / ١٨٠ .

٢٢٠- ١ / ١٩٣ .

٢٢١- ١ / ٢٦٨ .

٢٢٢- ١ / ٣٣٤ . والإصقاب : الجِوار .

٢٢٣- ١ / ٣٥٢ .

٢٢٤- ٢ / ٢٠٣ .

٢٢٥- ٢ / ٢٩١ .

٢٢٦- ٢ / ٣١٨ .

٢٢٧- ٣ / ٥ .

٢٢٨- ٣ / ٢١ .

٢٢٩- ٣ / ٩١ .

٢٣٠- ٣ / ١٤٠ .

٢٣١- ٣ / ١٥١ .

٢٣٢- ٣ / ٢٦٤ .

٢٣٣- ٤ / ٩٣ .

٢٣٤- ٤ / ١١١ .

٢٣٥- ١ / ١٢٧ .

٢٣٦- ١ / ١٢٨ .

٢٣٧- ١ / ٢٥٥ .

٢٣٨- ١ / ٣٦٨ .

٢٣٩- ٢ / ٨٨ .

٢٤٠- ٢ / ١٤٤ .

٢٤١- ٢ / ١٧٠ .

٢٤٢- ٢ / ٢٠٦ .

٢٤٣- ٣ / ١٠٧ .

٢٤٤- ٣ / ١١٥ .

٢٤٥- ٣ / ١٢٥ .

٢٤٦- ٣ / ٢٣١ .

٢٤٧- ٣ / ٢٥٩ .

٢٤٨- ٣ / ٢٧٩ .

٢٤٩- ٤ / ٣١ .

٢٥٠- ٤ / ٧٦ .

٢٥١- ٤ / ١٤٣ .

٢٥٢- ١ / ١١٠ .

٢٥٣- ١ / ٢٨١ . وأصيى : أصِلُ .

٢٥٤- ١ / ٢٩٣ .

٢٥٥- ٢ / ١٥٨ .

٢٥٦- ٢ / ٢٢٣ .

٢٥٧- ٣ / ٢١ .

٢٥٨- ٣ / ١٩٧ .

٢٥٩- ٤ / ٥٨ .

٢٦٠- ٤ / ١٣٣ .

٢٦١- ٤ / ١٥٦ .

٢٦٢- ١ / ١٨٠ .

٢٦٣- ١ / ١٩٦ .

٢٦٤- ١ / ٢٠٨ .

٢٦٥- ١ / ٢١٠ .

٢٦٦- ١ / ٢٩٣ - ٢٩٤ .

٢٦٧- ١ / ٣٥٥ .

٢٦٨- ٣ / ١٥٥ .

٢٦٩- ٤ / ١٠٣ .

٢٧٠- ٤ / ٢٠٤ .

٢٧١- ١ / ١٥٠ .

٢٧٢- ١ / ١٦٦ .

٢٧٣- ١ / ١٩٢ .

٢٧٤- ١ / ٢١٢ .

٢٧٥- ١ / ٢٨٦ .

٢٧٦- ٢ / ١١ .

٢٧٧- ٢ / ٣٠٢ . والأرواد : مقدمات الجيش .

٢٧٨- ٣ / ٩ .

٢٧٩- ٣ / ٣٣ .

٢٨٠- ٣ / ٦١ .

٢٨١- ٣ / ٦٣ .

٢٨٢- ٣ / ١٣٦ .

٢٨٣- ٣ / ٢٨٩ .

٢٨٤- ٤ / ١٥٨ .

٢٨٥- ١ / ٢٠٦ .

٢٨٦- ٢ / ٢٠ .

٢٨٧- ٢ / ١٤٨ .

٢٨٨- ٢ / ٢٨٩ .

٢٨٩- ٣ / ٢٣٨ .

٢٩٠- ٤ / ٧ .

٢٩١- ٢ / ٥٣ .

٢٩٢- ٣ / ١٥ .

٢٩٣- ٣ / ٢٤٨ .

٢٩٤- ٣ / ٢٧١ .

٢٩٥- ٣ / ٢٨٨ .

٢٩٦- ١ / ١١٥ .

٢٩٧- ١ / ٢٠٩ .

٢٩٨- ٢ / ٦٨ .

٢٩٩- ٢ / ١٣٤ .

٣٠٠- ٢ / ٣١٧ .

٣٠١- ٣ / ١١١ .

٣٠٢- الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى / الهيئة المصرية العامة للكتاب /

١٩٧٣ م / ٨٠ - ٨١ .

٣٠٢- همع الهوامع - شرح جمع الجوامع / دار المعرفة / بيروت / ٢ / ٤٣ .

٣٠٤- د . جميل أحمد ظفر / النحو القرآنى - قواعد وشواهد / مطابع الصفا بمكة /
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / ٢٢٩ .

٣٠٥- ١ / ١٨٤ .

٣٠٦- ١ / ١٩١ .

٣٠٧- ١ / ٢٢٤ .

٣٠٨- ١ / ٢٥٠ .

٣٠٩- ١ / ٢٧٣ .

٣١٠- ١ / ٢٧٥ .

٣١١- ٢ / ٧ .

٣١٢- ٢ / ٢٣ .

٣١٣- ٢ / ١١١ .

٣١٤- ٢ / ١١٨ .

٣١٥- ٢ / ٢٠٩ .

٣١٦- ٢ / ٢٤٤ .

٣١٧- ٢ / ٣١٤ .

٣١٨- ٢ / ٣١٨ .

٣١٩- ٣ / ١٤ - ١٥ .

٣٢٠- ٣ / ١٨٢ ..

٣٢١- ٣ / ٢٥٢ .

٣٢٢- ٣ / ٣٠٣ .

٣٢٣- ٤ / ١٦٥ .

٣٢٤- ١ / ١٩٧ .

٣٢٥- ١ / ٢٦٠ .

٣٢٦- ١ / ٢٦٥ .

٣٢٧- ٣ / ٢ .

٣٢٨- ٣ / ١٢٥ .

٣٢٩- ٣ / ١٦٦ .

٣٣٠- ٤ / ٧١ .

٣٣١- عقدت لهذه السمة عند شعر المتنبى فصلاً مستقلا فى كتابى « لغة المتنبى - دراسة تحليلية » / ٢٦٦ - ٢٧٥ .

٣٣٢- ١ / ١٧٧ .

٣٣٣- ٢ / ٢٥٦ .

٣٣٤- ٢ / ٣٠٧ . والمصلّى : المتأخر .

ملاحظات لغوية على شعر بشار

يقال إنه قد قيل لبشار : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئًا استنكرتْه العرب من ألفاظهم وشُكَّ فيه ، وإنه ليس فى شعرك ما يُشَكُّ فيه » ، فكان جوابه : « ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وُلِدْتُ هاهنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخًا من فصحاء بنى عُقَيْل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطإ ، وإن دخلتُ إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم . وأيفعت فأبديتُ إلى أن أدركت . فمن أين يأتينى الخطأ ؟ » (١) . وهو كما ترى جواب يدلّ على كمال الثقة بالنفس ، مما لا يخلو من الغرور ، وإلاّ فجواب الجواب هو : « يأتيك الخطأ من جهة الطبيعة البشرية ، التى لا تنفك عن النقص والسهو والنسيان والوهم وغير ذلك مما يعترى الناس جميعًا ! » .

والطريف أن صاحب « الأغانى » ، وهو مورد الرواية السابقة ، قد أورد رواية أخرى فى كتابه خلاصتها أن الأخفش (أو سيبويه) قد أخذ على بشار أنه استعمل « الغَزَلَى » و « الوَجَلَى » فى محل « الغَزَل » و « الوَجَل » على الترتيب فى بيتين له ، رغم أنه لم يُسْمَع عن العرب ذلك ، وأنه جمع « النون » (أى « الحوت ») على « نينان » ، وهو أيضا غير مسموع (٢) . وهذه الرواية تعاكس الأولى ، لأنها تدلّ على أن هناك من يجد فى شعر بشار ما يؤخذ عليه ، مما يناقض دعوى الرواية السابقة . وتمضى الرواية فتقول إن بشارًا قد حَمِىَ غضبُه وتهدّد اللغوى الذى انتقده ، فكان ذلك اللغوى بعد ذلك يحرص على الاستشهاد بشعر بشار .

فأمّا نحن فلن نخاف من بشار . وليس ذلك لأننا أجرأ من الأخفش أو سيبويه ، ولكن لأن الله سبحانه قد توفى الرجل منذ أدهار ، فنحن إذن آمنون من لسانه وهجائه . ثم إنه ليس من الضرورى أن تأتى ملاحظاتنا فى هذا الفصل كلها تخطئة لبشار ، إذ إن قصدنا منها هو تعرُّف الحقيقة . وقد تكون الحقيقة فى صفّه ،

وقد تكون بعيدة عنه . وفى الحالتين سوف نقول ما نحسب أنه الحقّ ، ولكن مدركين فى ذات الوقت أن فوق كل ذى علمٍ عليمًا ، وأنه يمكن أن يكون قد غاب عنا أشياء . والعصمة لله وحده .

وعلى هذا نقول إننا لا نرى بشارًا قد أخطأ فى جمع « نون » على « نينان » ، فإن « حوت » قد جُمعت على « حيتان » فى القرآن الكريم ، والكلمتان متساويتان وزنا ومعنى . قال تعالى : « تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعا » (٣) ، فتقاس تلك على هذه . أمّا الاستناد فى تخطئة هذا الجمع إلى عدم سماعه عن العرب فهو تعسف لا معنى له ، إذ ليس من المعقول أن نلزم الناس جميعًا بأن يحفظوا مع كل مفرد جمعه التكسيرى وألاَّ يقدموا على جمع أى اسم إلاَّ إذا تأكدوا من الصيغة التى جمعته العرب عليها . إن هذا تجميد للغة وقتل لها ، علاوةً على استحالة تطبيقه فى كثير من الأحيان ، إذ أين الوقت والعلم اللازمان لذلك ؟

لكن يبدو لى أن الأمر مع « الوَجَلَى » و « الغَزَلَى » يختلف عنه هاهنا ، فإنه لو ثبت فعلاً أن هاتين الكلمتين بنصهما لم تُسْمَعا عن العرب فلا أظنّ أن من حقّ الشاعر أو الكاتب أن يخترعهما ، إذ الأمر فى المصادر الثلاثية مداره فى الأغلب على السماع كما هو معروف . وهذه الصيغة (صيغة « فَعَلَى ») ليست مقيسة ولا جاءت عليها كلمات كثيرة بحيث يمكن التذرع بذلك إلى إلحاقها بالمقيس ، وإلاَّ لفتحنا الباب أمام أى إنسان ليضبط الأسماء على النحو الذى يحلو له دون أن يكون هناك مرجع من قاعدة أو سماع يحور إليه ، وهذا لو حدث لكان من شأنه إفساد اللغة .

هذا ، وهناك ملاحظات لغوية أخرى على شعر الشاعر . وهذه الملاحظات عبارة عن استعمالات لغوية : بعضها لا يجرى مع القواعد النحوية المعروفة ، وبعضها يتنكب صيغةً شائعة إلى صيغة ليس لها كبير شيوع ، وبعضها تكمن أهميته فى أنه شواهد على صحة بعض التركيبات التى يُظَنُّ أنها خطأ . كذلك فقد جمع بشارٌ فى إحدى المرات

كلمةً على غير القياس ، وفى مرة أخرى ركب جملته تركيبًا يصعب توجيهه .

فمن الصنف الأول قوله :

فاذكرى حلفتى أقارف أخرى ... يوم زكّى تلك اليمين البكاءُ

يوم لا تحسبى يمينى خلابا ... بيمينى تُوَقَّر الأحشاءُ (٤)

ويبدو أن هناك خطأ فى نسخ البيت أدّى إلى ذلك . ولعلّ الأقرب إلى السياق ، ما دام الكلام بصيغة الماضى ، أن تكون « لا تحسبى » منقلبة عن « لم تحسبى » . على أن الأمر من جهتى لا يعدو أن يكون احتمالاً . وهناك من العلماء مع ذلك من يقول إن حذف النون فى مثل هذه الحالة للتخفيف ، على ما سوف يأتى بيانه بعد قليل .

أما فى البيت التالى :

فلابدّ أن تغشاك حين غَشِيتَها ... هواجد أبكارٌ عليك وثُيَّبُ (٥)

فقد جمع « ثيّب » على « ثِيب » ، بوزن « فُعْل » ، الذى يجمع عليه « أفعل » و « فعلاء » لا « فَيْعل » . ولا وجه له من القياس ، على خلاف ما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور (٦) ، بل هو من الخروج على القاعدة العامة . وهذا قد يحدث مع صيغ جمع التكسير .

كما أنَّ التركيب الكلامى فى قوله :

كلا الميْت وإيانا ... كما لا قى ولاقيتُ (٧)

هو تركيب غريب يصعب جدا توجيهه ، إذ إن « كلا » تضاف إلى مثنى (بغض النظر عن حتمية كون هذا المثنى كلمة واحدة ، كما يشترط النحويون على الأقل فى الظروف الاختيارية ، أو جواز مجيئه مفردين معطوفا أحدهما على الآخر) ، بينما أضافها بشار هنا إلى مفرد (هو « الميت ») ، وبدلاً من أن يعطف عليه مفردًا آخر لتتم التثنية بالعطف نراه قد أتى مكان المعطوف بمفعول معه ، والمفعول معه هو من الفضلات ، أى يمكن حذفه ، فلا تتم به من ثَمَّ التثنية . وقد وجه الأستاذ محمد شوقى أمين البيت إلى أنه يمكن أن يكون قد وقع فيه تحريف وأن من الجائز أن يكون

أصله :

كلانا الميتُ دأبانا   كما لاقى ولاقيتُ (٨)

ومن ذلك أيضا حذف النون مِنْ « يَرَوْنى » فى البيت التالى :

وأرى الناس يرونى أسدا   فيقولون بقصدٍ وهُدَى (٩)

وقد وجه ذلك الشيخ ابن عاشور على أساس أن الفعل قد جُزِم للضرورة رغم أنه ليس بمجزوم ، وقاسه فى ذلك على بيت لعنترة على رأى من الآراء . أمَّا الأستاذ محمد شوقى أمين فقد رأى أن الفعل مرفوع وحُذفت نون الفرع منه لاتصالها بنون الوقاية ، وأن ذلك جائز عند بعض النحاة (١٠) . وفى تعليق البروفسور بيستون على ترجمته لهذا البيت نجده يكتفى بالقول بأن هذا الحذف يقع فى النثر والشعر (١١) .

ونفس ما قلناه فى الملاحظة السابقة يُقال أيضا فى حذف نون « تمنّينى » فى قوله يخاطب مرأة :

إن قلبى بشكّ فيما تمنّيـ   ـنى ونفسى حزينة مرتابة (١٢)

أما فى قوله :

إن الرسول الذى أرسلتِ غادرنى   بِغُلّةٍ مثل حرّ النار مشبوبِ (١٣)

نرى « مشبوب » مكسورة لتلائم حرف الروى فى القصيدة كلها ، إذ هو باء مكسورة ، على حين أنها لا تصحّ أن تكون نعتًا لـ « حرّ النار » لأنها نكرة بينما « حرّ النار » معرفة ، وكذلك لا يجوز أن تكون نعتا لـ « غلة » ، فـ « غلة » مؤنث ، و « مشبوب » مذكر .

وإذ كنا قد رأينا الشيخ ابن عاشور يقول بجزم الفعل فى بيت سابق لبشار فى غير حالة جزم على الضرورة فإننا نراه فى البيت التالى :

لله درك ! لَمْ تسمو بقادمةٍ   أو ينصف الدهرُ من يلوى فيعتقبُ (١٤)

على العكس من ذلك يقول بأن الفعل « تسمو » ، الذى سبقته « لم » ، لم يجزم للضرورة . أمّا محمد شوقى أمين فإنه يحاول أن يجد للشاعر مخرجًا شرعيا فيخمّن أن

« تسمو » قد تكون محرفة عن « تسمق » (١٥) .

وفى البيت التالى :

فاذكرى ليلة الخميـ   ـس لسانى المُلَجْلَج (١٦)

نرى الجيم الثانية من قوله : « الملجلج » مكسورة ، وحقها أن تكون مفتوحةً لكون الكلمة نعتا لـ « لسانى » ، الذى هو مفعول به . ولا أظن أن من الممكن توجيهها على أنها جُرّت على الجوار ، إذ إن المجاور لها (وهو « الياء » فى « لسانى ») ضمير ، والضمير لا يوصف .

أمّا فى قوله :

فمن لامنى فى الغانيات فقل له :   تَعِشْ واحدًا . لازِلْتُ غير وحيد (١٧)

فقد جزم « تعش » دون أن يتقدمه ما يوجب جزمه . وقد خرّجه الشيخ ابن عاشور على أن لام الجزم محذوفة ، وأن المعنى : « لتعش واحدا » ، دعاءً من الشاعر على من يلومه فى الغانيات ، بناء على مذهب الكوفيين ، الذين يجوّزون حذف اللام فى هذه الحالة (١٨) . وهذا توجيه جائز قال به الكسائى دون شرط ، وقال به غيره بشرط أن يكون ذلك فى الشعر ، وإن منعه آخرون (١٩) .

كما أنه قد استخدم « رؤيا » فى البيت التالى :

كأن أسيرا جالسًا فى حجابها   توسّل رؤياه عيونٌ وفودِ (٢٠)

لرؤية العين ، والشائع أنها لما يراه الإنسان فى النوم لا فى اليقظة .

وفى البيت التالى الذى يخاطب فيه الشاعر قلبه :

حتّام تُجْشمنى الصّبا وتشفّنى   بل ليت غَيْرك يا فؤادُ فؤادا (٢١)

يُعْيينا فهم الشطرة الثانية . ويتكلف الشيخ ابن عاشور لتركيب الكلام فيها مخرجًا ، فيقول إن « فؤادًا » اسمها ، وخبرها هو « غيرك » ، وإن التقدير : « ليت ... فؤادًا لى » (٢٢) . والحقيقة أن هذا تأويل غير مقبول ، فإن خبر « إن » وأخواتها لا يتقدم عليها إلا إذا كان شبه جملة . و « غيرك » ليس شبه جملة . ثم إن قوله

إن المعنى : « ليت ... فؤادا لى » معناه أن خبر « ليت » هو « لى » لا « غيرك » . لكن تركيب الجملة فى الشطرة لا يساعد على هذا التوجيه . ومن المناسب هنا الإشارة إلى أنه قد تكرر من الشافعى فى « الرسالة » نصب اسم « إن » وخبرها كليهما . وقد علق محقق الكتاب بأن ذلك جائز فى اللغة العربية (٢٣) .

وقد تكرّر حذف نون الرفع من أحد الأفعال الخمسة فى قول الشاعر :

فلقد كاد ما أكابد منها   ومن القلب يتركانى حريدا (٢٤)

إذ الأصل أن يقول : « يتركاننى » ، لأن الفعل لم يتقدمه ناصب ولا جازم . وقد سبق أن اوّل ابن عاشور مثل ذاك الاستعمال بأن الفعل مجزوم للضرورة (وكان رأى الأستاذ محمد شوقى أمين أن الكوفيين يجوّزون حذف نون الرفع إذا صحبتها نون الوقاية) . أمّا هنا فالشيخ ابن عاشور يوجّه هذا الحذف على أنه جارٍ مجرى قوله تعالى : « قال : أتحاجُّونى فى الله وقد هدانِ ؟ » (٢٥)، حيث حذفت نون الوقاية لئلا تتوالى نونان (٢٦) . صحيح أن القراءة المشهورة لهذه الآية إنما هى بتشديد النون ، أى أن أيّا من النونين لم تحذف وإنما أُدغمت فى الأخرى ، وليس الأمر فى البيت هكذا . لكن هناك من يقرؤها بالتخفيف ، وهو ابن عامر وأهل المدينة (٢٧) .

كذلك فقد حذف الشاعر نون الرفع من فعل من الأفعال الخمسة فى قوله :

وأَحْسِنِى حين تَلْقَيْهِ تحيّتَهُ   ولا تكونى إذا حدّثتِنا وتدا (٢٨)

دون أن تكون هناك نون وقاية هذه المرة . إلا أن باب التأويل صعب إغلاقه ، وعلى هذا وجدنا الشيخ ابن عاشور يقول إنها حذفت تخفيفا ، ويورد شاهدا نحويا على هذا الحذف ، وهو قول الشاعر : « أبيت أَسْرِى وتبيتى تَدْلكى » . وإننا لنتساءل : وأين الثقل فى مثل هذا الموضع حتى نطلب له التخفيف ؟ ذلك أنه لا توجد نون وقاية حتى يقال إن إحدى النونين قد حُذفت تخفيفا .

ونرى الشاعر فى قوله :

وأن الهوى إن لم ترح لى بزفرة   يكونُ جَوًى بين الجوانح مُغْتَدِ (٢٩)

قد تنكب جزم « يكون » جوابا للشرط فى قوله : « إن لم ترح لى بزفرة » وأبقاه مرفوعًا . ولعلّه قصد أن يكون قوله : « إن لم ترح لى بزفرة » كلامًا اعتراضيا ، وجملة « يكون جَوًى ... » فى محل رفع خبر « أنّ » . وحتى لو كان الفعل « يكون » جوابا للشرط فقد ورد جواب شرط « إنْ » فى الآية ١٢٠ من سورة « آل عمران » مرفوعا . قال تعالى : « وإن تصبروا وتتقوا لا يَضُرُّكم كيدهم شيئا » . ولكن ماذا نفعل فى قوله : « مغتدٍ » ، الذى لا يخرج فى صيغته الحالية عن أن يكون معروفا أو مجرورا ، وكلاهما لا يلائم موقعه من الجملة ، إذ هو فيما نفهم نعت لـ « جوى » المنصوب خبرا لـ « يكون » ؟ ولا يمكن أن يقال إن « يكون لـ » هنا تامّة ، و « جوى » فاعل لها مرفوع ، ومن ثمّ فـ « مغتد » فى حالة رفع هى أيضا نعتًا لها ، لأنه إذا كانت « يكون » تامة فمعنى ذلك أنه ليس فيها ضمير يعود على « الهوى » ، الذى هو اسم « أن » ويحتاج إلى خبر ، والخبر هنا لا يمكن أن يكون إلا جملة « يكون ... » ، ومادام جملة فلابد أن يشتمل على ضمير يعود على « الهوى » .

كما أن البيت التالى :

زُرِى رَوْحًا فلن تجدى كَرَوْحٍ   إذا أزمت بنا السَّنَةُ الجَمادُ (٣٠)

قد ورد فيه الفعل «زُرِى » هكذا بحذف الواو ، ممّا جعل الشيخ ابن عاشور يلحّنه ويعلّله بأنه ربما كان بشار متأثرا فى ذلك بعامة قومه ، إذ لا موجب لحذف الواو فى مثل هذه الحالة . أمّا الأستاذ محمد شوقى أمين فإنه يحاول أن يجد للشاعر بابًا فيخمّن أن « زرى » ربّما كانت محرفة عن « ردِى » ، وفى هذه الحالة فلا لحن (٣١) .

وفى البيت التالى :

كأنما عاينوا بى ليث ملحمة   غضبانَ أو ملكًا بالتاج معقودِ (٣٢)

نجد المشكلة التى قابلتنا فى البيت قبل السابق : فـ « معقود » مجرور لأنه مكسور

كى يتناسب مع حرف الروى فى سائر القصيدة ، على حين أنه فيما هو واضح صفة لـ « ملكا » فكان حقه النصب . ولا يمكن أن نقول إن الاسم المجرور فى آخر البيت قد جُرَّ على الجوار . ذلك أنه نكرة ، على حين أن الاسم المجاور له فى البتين هو اسم معرَّف .

ويقول بشار :

فاشفنى بالصبر منها يا مجيب الدعواتِ
أو أذقها يَومَ عنّى كربة من كرباتى (٣٣)

بحذف التنوين من « يوم » دون مسوِّغ من موانع الصرف . وهى ضرورة شعرية قبيحة .

ويبقى قوله :

سيُجْدى حِلْمُهُمْ أو ينكرونى فإنّ تقدمى قبل انتقامى (٣٤)

الذى ورد فيه « ينكرونى » بحذف نون الرفع دون أن يكون هناك داعٍ للنصب أو الجزم . وقد تقدم الكلام على مثل ذلك قبل قليل .

هذا عن الاستعمالات التى من النوع الأول . أمّا استعمالات النوع الثانى فمنها أن بشارا قد ترك صيغة الفعل الدال على الحرمان « حَرَمَ » ، وهى الصيغة الشائعة ، واستخدم الصيغة المزيدة : « أحْرَمَ » . ونفس الشىء فعله مع « أَحْمَى » و « أَفْتَنَ » ، اللذين استعملهما بدلاً من « حَمَى » و « فتن » ، برغم أن الصيغة المجردة هى الصيغة المنتشرة . وهذه هى الأبيات التى استخدم فيها الشاعر الصيغة غير الشائعة من الأفعال الثلاثة :

فأحْمِ جَنْبا . سوف تَرْعَى جَنْبا (٣٥)

* * *

ما أحْرِمَتْ عنك خطاطيفُهُ فارْقَ على ظَلْعِكَ أو قَبْقِبِ (٣٦)

* * *

وكيف بسلمى ؟ أحرم النأىُ وجْهَها علىَّ ، وإن طافت بنا لم تُعَرِّجِ (٣٧)

* * *

تركتُ سُدَيْفًا وأصحابه وأحْرِمْتُ ما يجتنى شَرْمَحُ (٣٨)

* * *

أفْتَنَتْنِى ، لا ريب ، عبدةُ . إنى من هواها على سبيل افتضاحِ (٣٩)

كما أنه قد تكرر قوله « أحْرَمَ » بدلاً من « حرَّم » . وهذه الأخيرة أيضا هى الصيغة الشائعة . وذلك فى قوله :

لم تنبسط فيه إلى مُحْرِمٍ حتى رأينا الصبح وضاحا (٤٠)

* * *

أحْرَمْتُ ريحان بستانٍ وناضرهُ حتى أشمّك يا ريحانةَ البَلَدِ (٤١)

* * *

فإن شئتِ أحْرَمْتُ وصل النسا ء ، وإن شئتِ لم أطعم البارِدا (٤٢)

أما النوع الثالث من استعمالات بشار التى أشرتُ إليها فيتمثل فى تكريره « بين » فى بيتين على الأقل رغم أن كلا من طرفيها اسم ظاهر . والشائع أن هذا غير جائز ، ولكنى وجدتُ له عشرين ونيفًا شاهدًا شعريا من عصور الاحتجاج اللغوى ومعظمها من العصر الجاهلى . وهذه بعض تلك الشواهد . قال امرؤ القيس :

فعدتُ له وصحبتى بين حامرٍ وبين إكام . بُعْدَ ما متأمَّلِ ! (٤٣)

* * *

قعدتُ له وصحبتى بين ضارجٍ وبين تلاع يَثْلُثَ فالعريض (٤٤)

وقال الشنفرى :

خرجنا من الوادى الذى بين مشعلٍ وبين الجبا . هيهات أنسأتُ سُرْبَتى (٤٥)

وقال الحطيئة :

إن الرزيّة ، لا أبا لك ، هالكٌ بين الدُّماخ وبين دارة خَنْزَرِ (٤٦)

وقال الفرزدق :

كـأن ديـارًا بيــن أسنمـــة الحِمَــى   وبين هَذَالِيـل البحيــرة مُصْحَـفُ (٤٧)

وقـد نـص الطبرسـى على أن « بيـن » فى هذا الاستعمال إنما كُرِّرت للتأكيد (٤٨) .

والآن إلى بشار . قال :

فشتـان بيـن العامـرى ابـن واقــدٍ   وبين ابنة الزيدى إذ كامَهَا عَقْدًا (٤٩)

* * *

بيـن أبـى جعفـرٍ وبيـن أبـى الـ   ـعباس . ذاك الشّتا وذاك المَطَرْ (٥٠)

الهوامش

١- الأغانى / ٣ / ١٤٩ - ١٥٠ .

٢- السابق / ٣ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

٣- الأعراف / ١٦٣ .

٤- الديوان / ١ / ١١٥ .

٥- ١ / ١٨٢ .

٦- الديوان / ١٨٢ / هامش ٣ .

٧- ٢ / ٣٠ .

٨- نفس الصفحة / هامش٣ .

٩- ١ / ١٣٣ .

١٠- انظر الديون ١ ١٣٣ / هامش ٣ . وقد ذكر أحمد محمد شاكر ، تعليق على حذف الشافعى ([illegible] « لرسالة ») للنون من فعلين من الأفعال الخمسة فى حالة الرفع ، أن هذه النون قد تحذف [illegible] غير ناصب ولا جازم على سبيل التخفيف ، وأنه قد عثر على شواهد تدل على صحة ذلك (نظر « الرسالة » للشافعى / تحقيق أحمد محمد شاك مكتبة التراث / [illegible]اهرة / [illegible] ٢ ١٢٩٩ هـ ٥٦٢ / هـ ٧ ، و ٥٩٧ / هـ ٧) .

11- Selections from the Poetry of Baŝŝar , p. 4[illegible] .

١٢- الديوان ١ / ١٩٢ .

١٣- ١ / ١٩٤ .

١٤- ١ / ٢٣٣ .

١٥- نفس الصفحة / هامش ٥ .

١٦- ٢ / ٧٣ .

١٧- ١ / ١٥٨ .

١٨- نفس الصفحة / هامش ٢ .

١٩- انظر السيوطى / همع الهوامع / ٢ / ٥٥ - ٥٦ .

٢٠- الديوان / ٢ / ١٥٩ .

٢١- ٢ / ١٦٦ .

٢٢- نفس الصفحة / هامش ٤ .

٢٣- الرسالة / ٣٤٧ / هـ ١ ، و ٤٥٨ / هـ ٢ .

٢٤- الديوان ٢ / ١٨٧ .

٢٥- الأنعام / ٨٠ .

٢٦- الديوان / ٢ / ١٨٧ / هامش ١ .

٢٧- انظر محمد بن الحسن بن بندار الواسطى القلانسى / إرشاد المبتدى وتذكرة المنتهى فى القراءات العشر / تحقيق ودراسة عمر حمدان الكبيسى / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / ط ١ / ٣١٣ .

٢٨- الديوان / ٢ / ١٩٦ .

٢٩- ٢ / ٢٠٩ .

٣٠- ٣ / ٥٤ .

٣١- نفس الصفحة / هامش ٢ .

٣٢- ٢ / ٥٥ .

٣٣- ٣ / ١٥٧ .

٣٤- ٤ / ١٨٧ .

٣٥- ١ / ١٣٥ .

٣٦- ١ / ١٥٦ .

٣٧- ٢ / ٨٢ .

٣٨- ٢ / ١١٠ .

٣٩- ٢ / ١٣٨ .

٤٠- ٢ / ١٥٣ .

٤٢- ٣ / ١٤٨ .

٤٣- معجم البلدان / مادتا « إكام » و « حامر » .

٤٤- السابق / مادتا « عريض » و « يثلث » .

٤٥- نفسه / مادتا « جبا » و « مشعل » .

٤٦- نفسه / مادتا « خنزر » و « الدماخ » .

٤٧- نفسه / مادة « بحيرة هجر » .

٤٨- انظر تفسيره للآية الخامسة من « الفاتحة » فى تفسيره « مجمع

٤٩- الديوان / ٢ / ٨٩ .

٥٠- ٢ / ٢٠٢ .

٢٠- الديوان / ٢ / ١٥٩ .

٢١- ٢ / ١٦٦ .

٢٢- نفس الصفحة / هامش ٤ .

٢٣- الرسالة / ٣٤٧ / هـ ١ ، و ٤٥٨ / هـ ٢ .

٢٤- الديوان ٢ / ١٨٧ .

٢٥- الأنعام / ٨٠ .

٢٦- الديوان / ٢ / ١٨٧ / هامش ١ .

٢٧- انظر محمد بن الحسن بن بندار الواسطى القلانسى / إرشاد المبتدى وتذكرة المنتهى فى القراءات العشر / تحقيق ودراسة عمر حمدان الكبيسى / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / ط ١ / ٣١٣ .

٢٨- الديوان / ٢ / ١٩٦ .

٢٩- ٢ / ٢٠٩ .

٣٠- ٣ / ٥٤ .

٣١- نفس الصفحة / هامش ٢ .

٣٢- ٢ / ٥٥ .

٣٣- ٣ / ١٥٧ .

٣٤- ٤ / ١٨٧ .

٣٥- ١ / ١٣٥ .

٣٦- ١ / ١٥٦ .

٣٧- ٢ / ٨٢ .

٣٨- ٢ / ١١٠ .

٣٩- ٢ / ١٣٨ .

٤٠- ٢ / ١٥٣ .

٤١- ٣ / ١٤١ .

٤٢- ٣ / ١٤٨ .

٤٣- معجم البلدان / مادتا « إكام » و « حامر » .

٤٤- السابق / مادتا « عريض » و « يثلث » .

٤٥- نفسه / مادتا « جبا » و « مشعل » .

٤٦- نفسه / مادتا « خنزر » و « الدماخ » .

٤٧- نفسه / مادة « بحيرة هجر » .

٤٨- انظر تفسيره للآية الخامسة من « الفاتحة » فى تفسيره « مجمع البيان » .

٤٩- الديوان / ٢ / ٨٩ .

٥٠- ٢ / ٢٠٢ .

تحقيق نسبة القصيدة التائية فى عبدة

هناك اختلاف حول نسبة القصيدة التالية : هل هى لبشار ؟ أم هل هى لأبى هشام الباهلى ، الذى كان مهاجيا لبشار ؟ (١) وهذا أولا نص القصيدة :

من ابى هشام ، يا رجالُ ، قصيدةٌ   تبكى لها الفتيانُ والفتياتُ
كُتِبَتْ بما جرت الدموعُ فصُلِّيت   أبدا على من قالها الصلواتُ
من داخل الشوق الدخيل إلى التى   فيها تروح لعينه العبراتُ
ففؤاده طرًا يعيش بذكرها   ويموت حين تُظِلُّه الزفراتُ
شوقًا إلى صنم العراق ، فعينُه   قد وُكِّلت بمنامها اليقظاتُ
ما من جميلة معشرٍ إلاَّ لها   أختٌ تُعَدُّ ، وما لها أخواتُ
لا الشمس تقشرها ولا قمر الدجى   وهما اللذان إليهما المثلاتُ
قل للغوانى : إن قُتِلْتُ من الهوى   فلكنَّ من عَدْوَى دمى بَرِءاتُ
سُقْمِى عبيدةُ إن سقمتُ وصحتى   ولها تطيب لنفسى الخلواتُ
يا عَبْدَ ، أقسم بالذى أنا عبده   وله المقام وما حوت عرفاتُ
لا أصطفى أبدًا سواك خليلةً   فتقى بذلك . والكرام ثقاتُ
ولو اننى فى التُرْب ثم دعوتنى   لبيتُ صوتك والعظام رُفَاتُ
فإذا ذكرتُك ، يا عبيدُ ، تقطعت   نفسى عليك وعادنى حسراتُ
طوبى لمن يُمْسى وأنت ضجيعه   قد عُجِّلَتْ لضجيعك الحسناتُ

ولنا عليها الملاحظاتُ التالية :

١- أن بشارا قد عُرف بحبه لعبدة ، وله فيها قصائد غير قليلة . وبلغ من شهرة ذلك الحب أن خصص صاحب « الأغانى » له فصلاً خاصا فى كتابه غير الفصل الذى جعله لبشَّار ، ولم يُعْرَف عن أبى هشام هذا أنه أحب عبدة أو كتب فيها شعرًا ، فمن الصعب قبول نسبة هذه القصيدة اليتيمة إليه . علاوةً على أن الطريقة التى ورد بها اسم « عبدة » فى القصيدة هى طريقة بشار ، إذ مرة يرخّم اسمها ، ومرة يصغّره ،

ومرة يجمع بين الأمرين .

٢- أن بشارًا يكرر فى شعره ، كما بيّنا فى هذه الدراسة ، أن حياته وموته بيد حبيبته ، وأنها إذا نادته قام من قبره حيّا . وهذا موجود فى القصيدة حين قال :

ففؤاده طُرًا يعيش بذكرها   ويموت حين تظله الزفراتُ

وحين قال :

ولو اننى فى الترب ثم دعوتنى   لبيتُ صوتك والعظامُ رفاتُ

٣- تكرر أيضًا وصف بشار لحبيبته بأنها صنم معبود . وهذا ما جاء فى القصيدة أيضا :

شوقا إلى صنم العراق ، فعينه   قد وُكّلت بمامنها اليقظاتُ

٤- وكذلك يكثر فى شعره ، تشبيه حبائبه بالشمس والقمر . وقوله فى هذه القصيدة :

لا الشمس تقشرها ولا قمر الدجى   وهما اللذان إليهما المثُلاتُ

يجرى فى هذا السبيل .

٥- وقد بيّنا فى الفصل الخاص بعقيدة بشار كيف يكثر عنده القسم بالمشاعر المقدسة ، وهو ما حدث هنا حيث يقول :

يا عبد ، أقسم بالذى أنا عبده   وله المقام وما حوت عرفاتُ

٦- كما رأينا أن بشارًا قد ألحّ فى شعره على أنه لا يحبُّ إلا حبيبته ، رغم ترامى النسوة الأخريات عليه . ومن ذلك هنا قوله :

لا أصطفى أبدًا سواك خليلةً   فتقى بذلك . والكرام ثقاتُ

٧- كذلك فقوله فى هذه القصيدة :

فإذا ذكرتُك ، يا عبيد ، تقطعت   نفسى عليك وعادنى حسراتُ

ليس بعيدًا عن قوله فى قصيدة أخرى :

تقطع نفسى حسرةً بعد حسرةٍ   إذا قيل : تغدو من غدٍ لا تعرّجُ (٢)

٨- وقد وردت كلمة « الغوانى » فى البيت التالى من القصيدة :

قل للغوانى : إن قُتِلْتُ من الهوى   فلكنَّ من عَدْوَى دمى براءات

وهى كما عرفنا من الكلمات التى تكررت (هى و « الغانيات ») بشكل لافت للنظر فى شعر بشار .

٩- كما تكررت فى شعر بشار أبيات تنتهى بكلمة على وزن « فعلات » (وهى القافية التى بُنيت عليها قصيدتنا هذه) وذلك فى ص / ٣٧ ، ٤٨ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٥٧ من الجزء الأول من الديوان . كما جُمِعَتْ « غيبة » و « يقظة » و « رصدة » و « جهلة » على « غيبات » و « يقظات » و « رصدات » و « جهلات » ، وذلك على الترتيب فى ص / ٢٢١ من الجزء الأول ، وص / ٤٠ ، ٥٤ ، ١٠٦ ، ٢٤٧ من الجزء الثانى من الديوان . وهى مجرّد أمثلة .

أما اعتراض الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على نسبة هذه القصيدة إلى بشار على أساس أنها تفتقر إلى « حسن شعر بشار » (٣) فهو اعتراض واهٍ ، لأن فى شعر بشار ، كما سنبين بعد قليل وكما لاحظ الأستاذ محمد شوقى أمين فى تعليقه على هذا الاعتراض ، الجيّد ودونه . وهذا لو كانت هذه القصيدة فعلاً رديئة ، وهو غير صحيح ، فهى أفضل من كثير من شعر بشار البارد الهامد .

يبقى أنه لو كانت هذه القصيدة لبشار ، وهو ما نرجّحه ، فكيف يجعلها على لسان أبى هشام الباهلى إلى حبيبته هو عبدة ؟ إن الشيخ ابن عاشور ، فى احتماله الثانى ، يقول إن بشارا ربما نظمها على لسان غريمه هذا استخفافًا به ، إذ يظهره بمظهر الطامع فى حب عبدة كما فعل ابن زيدون فى رسالته التى وصفها على لسان ابن عبدوس فى ولادة . لكن القصيدة تخلو تمامًا من أى شىء يمكن أن يشتم منه رائحة الاستخفاف بأبى هشام هذا من قريب أو بعيد . علاوة على أن من الصعب أن نصدق أن بشارًا يمكن أن يتخيل عبدة وهى مضاجعة غريمه ، كما يقول البيت الأخير من القصيدة . ومن هنا فإنى أرى ، لو صدق ظنى فى صحة نسبة هذه القصيدة لبشار ،

أن بيتها الأول كان يجرى هكذا :

من أبى معاذ ، يا رجال ، قصيدة   تبكى لها الفتيان والفتياتُ

ثم حدث تلاعب فيها بحيث أصبحت وكأنها موجهة من أبى هشام إلى عبدة . ولعلَّ أبا هشام هو نفسه الذى فعل هذا .

ذلك ، وهناك نصوص أخرى مختلف فى نسبتها أيضا ما بين بشار وغيره ، ولكن معظمها لا يزيد على بيتين (٤) ، مما يجعل محاولة تحقيق نسبتهما أمرًا من الصعوبة بمكانٍ ، إذ لا يتيسر لبيتين أن يبرزا خصائص الشاعر الذى قالهما بحيث نستطيع المقارنة بينها وبين الخصائص الفنية لدى كلّ من نُسبت إليه . ولذلك نترك أمرها .

ومثل ذلك الأبيات الثلاثة التالية :

إذا كنتَ فى كل الأمور معاتِبًا   صديقك لم تلق الذى لا تعاتبُه

فعش واحدًا أو صل أخاك ، فإنه   مقارفُ ذنبٍ مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَذَى   ظمئتَ . وأى الناس تصفو مشاربه ؟

التى زعم بعضهم أنها للمتلمّس ، وبلغ ذلك بشارا فكذَّبه وأقسم أنها له وأنها من قصيدةٍ مدح بها عمرو بن هبيرة فأجازه عليها بأربعين ألف درهم (٥) . وهذه الأبيات ، وإن كانت أيضًا جدّ قليلة ، ليست من نسيج عموم الشعر الجاهلى ، ففيها رقة وتفصيل لمعنى واحد مما يبدو لى غريبا على الجاهليين . ثم إن بشارًا قد حسم المسألة . ولو كان قد سرقها من المتلمس فلماذا لم يُقَلْ ذلك فى مجلس ابن هبيرة حين كان يمدحه بها ؟ كذلك فهذه الأبيات ليست فى ديوان المتلمس ، وهذا يكفى .

أما البيتان اللذان أوردهما له الشيخ ابن عاشور فى الجزء الرابع من الديوان نقلاً عن ابن خلكان ، ونصهما :

نعم الفتى لو كان يعرف ربَّه   ويقيم وقت صلاته حمَّادُ

وابيضّ من شرب المدامة وجهه   وبياضه يوم الحساب سوادُ (٦)

واللذان ذكر فى الهامش أنهما منسوبان فى كتب أخرى إلى غيره ، فهما يخلوان من الفحش المقذع الذى لا يعرف الحياء والذى اشتهر به بشار فى هجاء حماد ، بل يخلوان حتى من حدة بشار وعنفه . وقد أوردهما الشريف المرتضى فى « أماليه » مع بيتين آخرين يجريان نفس المجرى ولم ينسبهما إلى واحد بعينه بل قال : « وقال رجل يهجو حمادا الراوية » (٧) ، أى حماد بن أبى ليلى لا حماد عجرد كما هو معروف .

الهوامش

١- انظر فى ذلك الديوان / ٢ / ٣٤ (تقديم القصيدة والهامش) .

٢- ٢ / ٩٢ .

٣- انظر الديوان / ٢ / ٣٤ (بالهامش) .

٤- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٥٠ - ١٥١ ، ٢١٦ ، و « الحيوان » / ٣ / ٦٧ - ٦٨ ، ٣١٥ - ٣١٦ .

٥- الأغانى / ٣ / ١٩٦ ، ١٩٨ .

٦- الديوان / ٤ / ٤٤ .

٧- انظر « أمالى المرتضى » / ١ / ١٣٢ .

الرأى فى شعر بشار

كان أبو عبيدة يعدّ بشارًا أبا المُحْدَثين ، إذ هم فى نظره إنما عنه أخذوا وأثَرَه اقتفَوْا ، فمروان بن أبى حفصة كان يعرض عليه شعره ، وسَلْمٌ الخاسر كان تلميذًا من تلامذته ، كما كان السيد الحميرى كثير الإجلال له حتى إنه لم يكن ينشد فى حضرته شيئًا من شعره (١) . وكان أبو عبيدة يعتقد صحة الرواية المنسوبة لبشار من أن له ثلاثة عشر ألف قصيدة كل منها يحتوى على بيت جيد ، ويرتب على هذا أن جيد بشار أكثر من جيد أى شاعر آخر ، وإن فضّل عليه مروان أبى حفصه فى مدح الملوك (٢) .

ويرى الجاحظ أن بشارًا أشعر المحدثين ، كما يؤكد أنه لم يأت من هو أشعر منه (٣) .

ويقول ابن قتيبة إن بشارًا هو « أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر ولا يتعبون فيه » ، ولكنه لا يجعله ، مثلما فعل أبو عبيدة والجاحظ ، أشعر المُحْدَثين ، بل يكتفى بالقول بأنه من أشعرهم (٤) .

ويطنب ابن المعتز فى مدح بشار فيقول إنه « كان مفتننا بارعًا ، وكان من الشعر بمكان لم يكن به أحد غيره » (٥) ، « وكان مطبوعا جدا لا يتكلف . وهو أستاذ المحدثين وسيدهم ومن لا يقدَّم عليه ولا يُجارَى فى ميدانه » (٦) ، « وكان .. أستاذ أهل عصره غير مدافع ، ويجتمعون إليه وينشدونه ويرضون حكمه . وتشبيهاته ، على أنه أعمى لا يبصر ، من كل ما لغيره أحسن » (٧) ، « ولا أعرف أحدا من أهل العلم والفهم دفع فضله ولا رغب عن شعره . وكان شعره أنقى من الراحة وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب » (٨) .

وكان الأصمعى يفضّله مثلاً على مروان بن أبى حفصة . والسبب فى رأيه أن مروان ينهج منهج القدماء ، ومع ذلك لم يلحقهم على حين ساواه من كان فى عصره ،

بخلاف بشار ، الذى « سلك طريقا لم يُسْلَك وأحسن فيه وتفرد به » ، إلى جانب أنه أكثر فنون شعر وأغزر وأوسع بديعًا (٩) ، وأنه يصلح للجد والهزل ، أما مروان فلا يصلح إلا للجدّ (١٠) .

وقد روى المرزبانى عن أحمد بن عبيد الله بن عمار قوله : « بشار أستاذ المُحْدَثين الذين عنه أخذوا ، ومن بحره اغترفوا ، وأثَرَه اقتفَوا . يأتى من الخطإ والإحالة بما يفوت الإحصاء مع براعته فى الشعر والخطب » . كما ذكر ما قيل عن شعره من أنه « ينظم الشذرة ، ثم يجعل إلى جانبها بعرة » (١١) .

أما إسحاق الموصلى فكان لا يعتد ببشار ، ويقول إنه كثير التخليط فى شعره ، أى يقول الجيد والردىء . كما كان يقدم عليه مروان بن أبى حفصة ، الذى كان يرى أن شعره مستوٍ لا تفاوت فيه كشعر بشار . وسرّ تقديمه لمروان وغضّه من بشار هو أن كلام ذاك ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها (١٢) . وكان إسحاق يفضّل الشعر التقليدى الذى يجرى فى سنن القدماء ، ومن هنا فإنه لم يكن أيضا يرى أبا نواس شيئا (١٣) . والطريف أنه لمَّا عورض بأبيات جميلة لبشار فى الصداقة وترك العتاب مع الإخوان ادعى أنها ليست له وأنه إنما سرقها من المتلمس (١٤) ، كأنه لا يريد أن يسلّم له بشىء .

وهناك إلى جانب هؤلاء الأخفش وسيبويه ، اللذان كانا يأخذان عليه بعض المخالفات اللغوية ، ثم لمَّا سبهما وتهددهما بهجائه أخذا ، كما تقول الرواية ، يستشهدان بشعره وكفّا عن انتقاده ، مما مرَّ ذكره .

وفى العصر الحديث نجد العقاد يقوّم شعر بشار بقوله : « أما شعره فرصين فى الأكثر الأعم مما وصل إلينا منه . وهو يقسمه قسمين : بدوى تغلب فيه الجزالة والجفوة ، وحضرى تغلب فيه الرقة والنعومة » . والعقاد يرى أن ذلك راجع إلى طبيعة الموضوع التى لا حيلة للشاعر فيها . كما يؤكد أن شعر بشار يخلو من الإلهام والحنين

والأشواق والخيال ، وأنه لا يمتاز عن شعر غيره بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير (١٥) ، وأن غزله شهوانى يفتقر إلى الحب والعطف والمناجاة ، إذ كان حبه للنساء عمومًا لا لامرأة بعينها ، لأنه (كما يقول) كان ذا طبيعة حيوانية ، فهو يريد مطلق الأنثى ، وأنه فى هذا الغزل كان يعتمد على السماع إلا فلتات قليلة ، كما كان لا يتصور المرأة إلا فى الألوان والأصباغ والروائح والطيوب (١٦) ، وأنه كان فى معظم الأحيان يمثل المرأة منكسرة باكية تلين لشدة الرجولة وخشونتها ويستعذب الخضوع لسيطرتها (١٧) . أما رأيه فى هجائه فهو أنه يجمع أقبح العيوب ويقذف بها على مهجوّه شعرًا يكثر فيه الإقذاع والإفحاش مما لا يصلح للنقل فى الصحف السيارة والكتب التى تتداولها أيدى القراء (١٨) .

أما طه حسين فإنه يبدأ حكمه على شعر بشار بإعلان موافقته لرأى إسحاق الموصلى ، الذى يرى الدكتور أنه هو الوحيد الذى استطاع أن يقف فى وجه المديح الشديد الذى كان يكال للشاعر ، وإن استدرك قائلاً إنه لا يشارك إسحاق مع ذلك غُلُوّه فى السخط عليه ، إذ إن هذا السخط لا يعتمد إلاَّ على بيتين سخيفين من شعر بشار ، ممّا لا يخلو منه شعر شاعر (١٩) . ثم يمضى فى تفصيل حكمه فيقول إن بشارا كان ثقيل الروح حتى حين يضحك ويريد للآخرين أن يضحكوا ، كما كان قاسيا يكره الناس ويزدريهم ولا يترك فرصة دون أن يهتبلها فيسخر منهم سخرية غليظة فظة (٢٠) . ليس ذلك فحسب ، بل يرميه أيضا بالنفاق والكذب ، ومن ثمّ ينبغى على الباحث فى رأيه ألاَّ يحاول الوصول من خلال شعره إلى معرفة شعوره وعواطفه ، فشعره كما يقول ليست له شفافية شعر أبى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد ، اللهم إلاَّ فى الهجاء ، الذى يمثل نفسيته المرورة الحاقدة على الآخرين ، وأيضا فى ذلك الشعر الذى يذكر فيه نفسه وسوء مكانه بين الناس وما لقيه من بخلهم (٢١) . ومع ذلك فالدكتور طه يثنى على حسن صناعة بشار ، مؤكدا أن الشعر لم يكن يصدر

عنه عفوا بل كان يتكلف ويعنّى نفسه فيه (٢٢) . ثم يمضى إلى تبيين رأيه فى غزله فيقول إنه لا يمثل عاطفة ولا شعورا صادقا بل تهالكًا على اللذة وإفحاشًا وافتنانًا فى ذلك ، ورغبةً فى الفساد والإفساد ، ولذلك كان يعمد فيه إلى الألفاظ والأساليب السهلة التى تضمن له الشيوع والسيرورة بين النساء وفتيات الهوى . ومن هنا كان رأيه أن المهدى لم يَجُرْ عليه حين نهاه عن الغزل وأنذره بالموت إن عاد إليه . ثم يورد الرائية مثالاً على ذلك الشعر الفاحش المفسد الذى فزع له المهدى وغضب أشد الغضب (٢٣) . وحتى شعره الرقيق المتألم فى عبدة نجد طه حسين يضحك عندما يقرؤه لأنه يرى أنه شعر كاذب وأن محبوبته كانت تعلم ذلك . أمّا رأيه فى هجائه فليس أكثر من أنه هجاء فاحش مقذع سهل الفهم (٢٤) . ولا يُعْجِب د. طه من شعر بشار إلا قصيدتُه الميمية فى هجاء المنصور ، لأنها كما يقول تمثل موقفه الحقيقى من المنصور وآل العباس ، وكذلك بائيته فى مدح ابن هبيرة (٢٥) .

وحكم د. طه حسين على بشار وشعره ، كما هو واضح ، حكم شديد عنيف .

وقد جاءت دراسة د. محمد النويهى « شخصية بشار » تحاول أن تعدل هذا الحكم على الشاعر وشعره . ونحن نرى أن د. النويهى قد أسرف بدوره فى التحيز لشعر بشار ، إذ لا يكاد يرى فيه عيبًا . ولقد كان د. النويهى من البراعة بحيث إنه لم يختر له فى كتابه إلا القصائد الجميلة الرائعة حقا ، فأوهم القارىء الذى لا اطلاع له على ديوان بشار أن كل شعره من هذا المستوى .

والحقيقة أن لبشار شعرًا بديعًا فاتنًا ، وأغلبه فى الغزل والفخر بنفسه وبجنسه . ولكنّ إلى جانب هذا الشعر شعرًا آخر غير قليل فيه كثير من الفتور والجفاف والهمود ، ويفتقر إلى الخيال المحلّق والحرارة الجياشة والإبداع ، وليس له فيه إلاَّ ترديد المعانى والصور والأساليب التقليدية التى نجدها عند معظم الشعراء . ومن ذلك أولى قصائده فى الديوان ، ومطلعها :

تجهّزْ . طال فى النّصب الثواءُ　　ومنتظَر الثقيل علىّ داءُ (٢٦)

وكذلك التى تليها ، ثم التى تليها ، والتى تليها ، والتى تليها . كل هذا ونحن لا نزال فى أول الديوان ، وإن لم يخل الأمر بين الحين والحين من بيت جميل يحتوى على صورة طازجة ، مثل قوله فى القصيدة الأولى :

ويُطبـق حبُهـن علـى فـؤادى كما انطبقـت على الأرض السماءُ (٢٧)

أو تعبير طريف ، كما فى هذا البيت :

أقـول والعيـن بهـا غُصّـةٌ من عبرة هاجـت ولم تسكُـبِ : (٢٨)

فإن إضافة الغصة إلى العين (وهى مما يعرض للحلق والريق لا للدموع) هى لفتة تعبيرية عجيبة .

ويكثر فى شعر بشار حشو البيت أو تكملته بما يقيم الوزن أو يوصل إلى القافية والسلام . ومن هذا قوله لهاجرته :

كيـف صبـرى ، عُوفيـتِ مما ألاقى ، بيـن نـار الهوى وغمّ الصبابـه ؟ (٢٩)

فالدعاء فى الشطرة الأولى لا معنى له ، لأنها ليست مباليةً به ولا هو يفكّر فى أن يؤلمها بهجره كما تؤلمه بهجرها لأنها لا تحبه أصلاً . بل إن قوله بعد ذلك :

ليـت شعـرى تبكيـن إن مـتّ من حبّـ ـك أو تضحكيـن يـا خشّابـهْ
إننـى ، والمقـامِ والحجـرِ الأسـ ـود والبيـتِ مشـرِفـا كالسحابـه
أشتهـى أن أدَسّ قبلـك فـى التـر ب لكـى تصبحـى بنـا كالمصابـه
وعسـى ذاك أن يحيـن فتبكـى لا تقولـى : بعـدا لمـن فـى الغيابـهْ

هو سخف فى سخف ، إذ بينما نراه لا يدرى ماذا سيكون موقفها عندما تسمع خبر موته من حبّها نجده فجأة يتمنى أن يموت قبلها لكى تصبح كالصابة به ، وكأنه قد تأكد أنها ستشعر عند موته بالمصيبة . وانظر إلى « الكاف » فى « كالمصابة » وكيف أنها تُفسد الأمر إفسادًا شنيعًا ، لأن معناها أنها رغم ذلك كلّه لن تشعر فعلاً بألم المصابين وإنما هو شىء من ذلك . ثم انظر إلى قوله عن البيت إنه مشرف كالسحابه ، وهو ما لا معنى له هنا ، فضلاً عن مجافاته للحقيقة . إن الأمر ليس إلاّ رغبة فى

الوصول إلى إتمام البيت من أى طريق ! ثم ما أثقل « الغيابة » هنا لما فيها من حذلقة فى مجال الحديث عن الموت ، وهو أمر لا يحتمل الحذلقة . علاوة على ما فى الكلمة من عمومية وافتقار إلى الدقة ، فإن « الغيابة » ما يستر الشىء عن النظر ، ومن ذلك الجب والوادى والبئر ... إلخ ، فإطلاقها على القبر هنا دليل على أن الشاعر ينظم لا يشعر !

وما أصدق ملاحظة الشيخ ابن عاشور على كلمة « حاجبى » فى البيت التالى لبشار :

هـى الـرَّوْحُ مـن نفسـى وللعيـن قـرةٌ فـداء لهـا نفسـى وعينـى وحاجبـى

بأنها « زيادة ركيكة ما أتى بها إلا لتكلف القافية ، وذلك من العىّ » (٣٠) ، إذ إنه فعلا لا مكان للحاجب هنا مع النفس والعين ، وبخاصة إذا جاء ذكره بعدهما .

وليس من النادر أن يلقانا فى شعر بشار غموض يفسد علينا متعة القراءة . وهو غموض ناشىء فى كثير من الأحيان من أنه لا يبذل جهدا كافيا فى صياغة عبارته بحيث يتضح ما تريد أن تقوله لنا ، وذلك كما فى قوله عن نفسه :

لا يعبـد المـال حيـن يجمعـه ولا يصلـى للبيـت مـن صُلُبِـهْ (٣١)

الذى يقف أمامه محقق الديوان وشارحه عاجزًا ، إذ يقول : « انظر ماذا يراد بهذا المصراع » (يقصد المصراع الثانى) ، والذى يحاول الأستاذ محمد شوقى أمين جاهدًا أن يجد ثغرة يمكن النفاذ منها إلى بصيص من المعنى (٣٢) .

وكذلك قوله فى ذات القصيدة عن نفسه أيضا وعن نهى المهدىّ له عن التشبيب بالنساء :

حتـى إذا درّت الـدرور لـه ورغثتـه الـرواة فـى نَسَبـهْ
قضـى الإمـام المهـدى طعنتـه عـن رأس أخـرى كانـت على أرَبـهْ

إذا لا يمكن أبدًا أن يخطر ببالنا أن « النسب » هنا ليس هو النسب العادى الذى يعرفه النـاس جميعًا بمعنـى النسـل والقرابـة ، بل هو النسيب والغزل . ودعك من

« رغثته الرواة » . كما أنه ليس من السهل أن نفهم أن المقصود بالشطرة الثانية من البيت الأخير هو أن المهدى قد طعنه مرة بعد مرة قضت على أربه ، إذ أين « كانت على أربه » من « قضت على أربه » ؟ هذا إن كان التفسير الذى قدّمه الشارح هو المراد .

ومثالاً آخر على ذلك نسوق هذا البيت الذى يؤكد فيه أنه لم يأت فى الحب ما يؤخذ عليه :

أيهـا اللائمـى ولم آت بأسـا   يشهد الله والثلاث الشهودُ (٣٣)

حيث لا نعرف من هن هؤلاء (أو ما هى هذه) الشُّهود الثلاث ؟

ومن ذلك لفظة « الغيار » فى البيت التالى الذى يتحدث فيه عن رحيل قوم حبيبته إلى ديار أخرى بعيدة :

تنادوا فى الغزالة حين راحوا   بجدّ البين حين دنا الغيارُ (٣٤)

وفى شعر بشار ركاكة غير قليلة : تأمل مثلاً قوله يصف قسوة حبيبته وبخلها عليه بالوصال :

جلّ ما بى منها ، وما جلّ نَيْلٌ   عندها . إنها عليها جُمودُ (٣٥)

وما فى عبارة « إنها عليها جمود » من ركاكة .. ركاكة ناشئة من تركيب كلماتها وبخاصة : « إنها عليها ... » ، ومن استعماله « جمود » مطلقًا دون تحديد بإضافة أو نعت مثلا ، بمعنى القسوة والبخل .

وكذلك قوله من القصيدة ذاتها :

قادنى للشقاء جهرا فؤادى   وفؤادى فعّالُ تلك المعيدُ (٣٦)

حيث جعل الخبر الثانى لـ « فؤادى » (وهو « المعيد ») معرفة ، على حين كان الأفضل أن يكون نكرة ، فضلاً عن حذف معمول هذا الخبر ، مما جعله معلقا فى الهواء كرِجْلٍ بلا رأس .

ثم هذا البيت :

كأن فؤاده ينزو حِذارا   حِذارَ البين لو نفع الحِذَارُ (٣٧)

بتكرار كلمة « حذار » فيه ثلاث مراتٍ مزعجاتٍ بلا فائدة ، سوى أن بناء البيت لم يستو له فأخذ يملأ فجواته بكُسَارة الطوب والدَّبْش .

وأيضا البيت الذى يليه :

تنادوا فى الغزالة حين راحوا   بجدّ البين حين دنا الغيارُ

حيث يكرر كلمة « حين » مرتين متتالتين ، الثانية منهما داخلة زمنيا فى الأولى ، وحيث يقول « فى الغزالة » ويقصد « عند شروق الشمس » ممّا لا تؤدى العبارة معناه إلا بتعسف شديد .

ولا يخلو هذا الشعر أيضا من صور سخيفة ، مثل قوله يصف وصال حبيبته أول الأمر له ثم انقلابها بعد ذلك عليه وإقصاءها إياه :

وأنت بما قرّبْتِنى واصطفيتِنى   خلاةٌ ، وقد باعدتنى بُعْدَ مُذْنِبِ

كقائلة : إن الحمار ، فنحّه   عن القتّ ، أهل السمسم المتهذّبِ (٣٨)

إنه يصور فى هذا البيت نفسه حمارا يريد أن يُعْلَفَ قتًّا (والقت عنده هو الوصال) لا سمسمًا . فأى سخف وغباء فنى هذا ! ثم أيه ركاكة فى وصف السمسم بالمتهذب ، وهى صفة أخلاقية لا تصلح لوصف الأعلاف ! هذا غير ثقل صيغة « متفعّل » ، التى لا نستعملها فى هذه الكلمة ، إذ إننا نقول : « مهذّب » ، ولا نقول « متهذب » .

ومثل ذلك سخفا قوله يصوّر أريحية أحد الممدوحين :

ولو نازعتْه الريحُ يومًا إزاره   لأرسله جُودًا ولم يتجرَّدِ (٣٩)

وهذا كلام من لا يجد كلامًا آخر يقوله ، وإلاّ فهل يمكن أن يقال فيمن يخلع إزاره (ولاحظ : « إزاره » لا « رداءه ») ويعطيه للريح إلاّ أنه أبله ؟ إذ ماذا ستفعل الريح بملابسه ؟ ثم إنه سيتعرّى حينئذ ، وهو أمر لا يحسد عليه . ومع ذلك يسرع الشاعر ، ظانا أنه يستدرك ، قائلاً : « ولَمْ يتجرّد » ، وهو مالا أفهمه ، إذ كيف لن يتجرد وقد تخلى للريح عن إزاره ؟ أيريد أن يقول إنه كان يعرف مقدما صفاقة الريح

يتخذ من قبلُ للأمر عدته ولبس تحت الإزار شيئا يغطى به نفسه حين تأخذ تلك الريح إزاره ؟ أليس ذلك بالأمر المضحك ؟

وانظر إلى البيت التالى وما فيه من فساد ذوق وفظاظة حسّ ، إذ لا يجد ما يشبه به الهم اللاصق على كبده إلا القُراد :

أغـادى الهـم منفـردا لصوقـا   على كبـدى كمـا لصِـق القُرادُ (٤٠)

وكذلك هذا البيت الذى يلقن فيه فتاته بعد أن فعل فعلته معها فى رائيته المشهورة ما ينبغى أن تقوله لحاضنتها إذا سألتها عن العضة التى فى شفتها وما خلّفته من احمرار وورم :

قُولـى لهـا : بقّـةٌ لهـا ظُفُـرُ   إن كـان فـى البق مـا له ظُفُرُ (٤١)

إذ ماذا يفعل البقّ هنا ؟ إن ذلك لهو فساد الذوق بعينه وغلظ الإحساس وغثاثة الخيال ! بقٌّ وحبّ ؟ أو حتى بقٌّ وجنس ؟ هذا غير معقول !

وهذه الأمثلة تبين لنا أن ما قاله د. توفيق الفيل عن صور بشار وأنها تمتاز بالرقة الحضرية والبعد عن الخشونة (٤٢) هو غير صحيح تمامًا .

وأرجو ألا يفهم من كلامى أن سخافه الصورة هى الغالبة على شعر بشار ، فبالإضافة إلى ما فى قصائده الرائعة هناك عدد لا بأس به من الصّور المبدعة فى القصائد الأخرى عنده ومن ذلك قوله :

وصاحـب ضامنـى وضمـتُ لـه   نفسـى ليرضـى فـراح يلتهـبُ
وافـق ظلمـى حُلْـوا فأعجبـه   والظلـم حلـو كأنـه جـرب (٤٣)

* * *

وطفـل الحـبّ أضنانـى   فويـلٌ لـى إذا شبّـا (٤٤)

* * *

إذا الملـك الجبـار صعّـر خـدَّهُ   مشينـا إليـه بالسيوف نعاتبُـهْ (٤٥)

* * *

أنـتِ الأميـرةُ فـى الهـوى   وأنـا المسـىءُ المُذْنِـبُ (٤٦)

* * *

أناسيـةٌ سعـدى هواتـى بعدمـا   لهونـا بهـا عصْرًا نخفّ ونمـرَحُ
محبَّيْـن معشوقيـن نغرق فـى الهوى   مرارا ، وطورا نستقلّ فَنَسْبَحُ ؟ (٤٧)

* * *

وثـدى لرؤيتـه سجـدة   يديـن لـه الناسـك الأجلـح (٤٨)

* * *

فـادع سـرب المِلاَحِ يشهـدن موتـى   بحنوط . إنـى أحـب المِلاَحـا (٤٩)

* * *

وذى مـالٍ وليس بـذى غَنَـاءٍ   كَـزُبّ الشيـخ لا يعلـوه نَضْـحُ (٥٠)

* * *

وصاحـب كالدُمّـل المُمِـدّ

...

حملتُه فـى رقعـة مـن جلـدى (٥١)

* * *

إذ نلتقـى حَلَقًـا ونسترق الهـوى   سَرَقَ العفاريت السماعَ مَذُودا (٥٢)

* * *

مـا بـال حمّـاد بـن نِهْيـا يشتهـى   موتـى كأنـى بإسْتِـهِ باسُـورُ (٥٣)

* * *

كبِكْـرٍ تشهّـى لذيـذ النكـاح   وتفـرق مـن صولـة الناكـح (٥٤)

* * *

كـأن إبريقنـا والقطـر فـى فمـه   طيـرٌ تنـاول ياقوتـا بمنقـارِ (٥٥)

* * *

والنـدى تحسبـه وسنـان أو كَسِـلاً   وقد تمايل مَيْلاً غيـر منكسـرِ (٥٦)

على أن من عيوب شعر بشار أيضا أن عددًا من قصائده الممتازة تعانى من هبوط بعض أبياتها ، وبخاصة فى نهايتها ، إلى النثرية . ومن ذلك رائيته فى مفاخرة الأعرابى الذى شمخ بأنفه عليه فى مجلس مجزأة بن ثور السدوسى ، إذ إن القصيدة كلها دمدمة ونيران وحمم بركانية وزلازل ، وفجأة يصفع عيوننا وآذاننا هذا البيت الذى خُتِمت به القصيدة ، وهو الفتور بعينه والنثرية مجسمة :

مُقامك بيننا دَنَسٌ علينا   فليتك غائبٌ فى حرّ نار (٥٧)

أكل هذا العصف والدمدمة ليجىء الشاعر فى النهاية ويقول لمن مسح به الأرض ومزقه تمزيقا ثم رمى أشلاءه إلى الرياح الأربعة : يا ليتك لم تكن معنا وكنت فى النار ؟ ومثل ذلك فى الفتور والنثرية البيت الذى يسبق هذا البيت الأخير ببيت ، ونصه :

وتغدو فى الكراء لنيل زادٍ   وليس بسيد القوم المكارى

وفى رائيته التى تبتدىء بقوله :

حسبى بما لقيتُ يا عمر   لم يأتنى عن حبيبتى خبرُ

نراه بعد أن يصوّر فى البيت التالى آلامه الثقال التى يقول إنها قد أشفت به على الموت لهجر معشوقته له وعدم وصول أى خبر أو رسالة منها :

يا صاح قد أمسكَتْ رسالتها   فاجمع حَنُوطى. حتّام تنتظر ؟ (٥٨)

وهو ما لا زيادة بعده ، وكان ينبغى أن تُخْتَم عنده القصيدة ، يقول إثر ذلك :

لا أستطيع الهوى وهجْرَتَها   قلبى ضعيف ، وقلبها حجر

فينزل بنا من حالق . ودعنا من قوله إنه لا يستطيع الهوى وهجرانها له ، وكأن الهوى وحده بلا هجران ، أو الهجران بلا هوًى ، يمكن أن يكون عبئًا !

ومن الضعف والهمود فى تلك القصيدة أيضا قوله :

أكاد من زفرةٍ تباكرنى   أطير فى الطير حين تبتكرُ

صحيح أنه يريد أن يقول إننى قد أصبحت من الضعف والضّنى بحيث تكاد تطيّرنى زفرتى . ولكن المضحك أنه يقول إنه يكاد أن « يطير فى الطير حين تبتكر » . والطير

حين تبتكر فتطير إنما تطير بحثًا عن رزقها ، فما علاقة هذا بذاك ؟ أفتراه سيطير معها بحثًا عن حبّة يقتاتها أو دودة يجلبها لصغاره التى خلّفها وراءه فى العش خماصًا زغب الحواصل ؟

ومن الفتور فى القصيدة كذلك هذا البيت الذى قاله بعد أن صوّر قبله بكاءه الشديد الذى أنزف دموعه وسهره المضنى الذى شف جسده حزنًا على غياب حبيبته عنه ولامبالاتها به :

واللّه ما لى علم بما صنعت   ولا أتانى من أهلها بَشَرُ

فضلاً عن هذا القَسَم الذى لم يطالبه به أحد !

وهذه المآخذ دليل على أنه لم يكن يبذل فى صياغته دائمًا الجهد المطلوب ، على عكس ما يرى د. طه حسين .

وفى شعر بشار طائفة من الألفاظ الغريبة والحوشية . وهذا ممّا يُفْسده ، إذ يغمض المعنى دون داعٍ ، اللهم إلا الحذلقة والرغبة فى إظهار بضاعته اللغوية على حساب الوضوح والجمال . ومن الغريب الحوشى عنده « عناجيج ، وعِرْزام الفؤاد ، والعَقَنْقَل ، واسلحبَّ ، واحزألّتْ ، ولُباخية الأرداف ، والخَمَرْنَج ، والوِحاح (جمع « وَحّ ») ، والعَيْهَم العَلَنْد ، والمُعْلَنْكِس ، والمُسْلَنْطِح ، و « بِلّ » (بمعنى « متيّم » ، وقد تكررت) ، ومُجْرَهِدّة ، والخَيْتَعُور ، والصاقور ، والصُّعْرور ... إلخ » . وليس هذا النوع من الألفاظ بمقصورٍ على أراجيزه ومدائحه بل إنك لواجد منها عددًا فى غزلياته .

وهذه الألفاظ الحوشية تبين أن ما قاله النقاد والقدماء عن أن بشارًا كان يصدر فى نظمه الشعر عن طبع خالص لا تكلف فيه هو غير صحيح على إطلاقه .

وبالنسبة للقوافى الداخلية فإن الملاحظ أنها تندر فى شعر بشار كما بيّنا من قبل ، وهذا نقصٌ فى النغم الموسيقى عنده .

وبعد ، فهذه المعايب ليست بالشىء القليل . وهى تظهرنا على أن فيما قاله

المتحمسون من القدماء لبشار عن أستاذيته وروعة شعره وأن أحدًا لا يلحق به مبالغةً وإسرافًا . كما تبين لنا أن الدكتور النويهي حين قدّم وحلّل نماذج من شعره فى كتابه « شخصية بشار » لم يعرض الصورة كاملة ، وإنما ركّز على الوجه المضىء منها وعلى أجمل ما فيه من ملامح .

ولكننا نحب أنّ نجلّى نقطة هامة هنا ، إذ قد أرجع د. نجيب البهبيتى أحكام القدماء المغالية فى شعر بشار إلى الشعوبية وإلى الخوف من لسانه الطويل (٥٩) . وقال بمثل قوله عن الدافع الشعوبى د. مصطفى الشكعة ، الذى رأى فى أقوال القدماء المعجبين ببشار حملة دعائية واسعة وذكية (٦٠) . ويبدو لى أن الأمر غير ذلك ، فإن من بين من مدحوا شعر بشارٍ الأصمعىّ والجاحظ وأبا عمر بن أبى العلاء وابن المعتز ، وهؤلاء لا يمكن أن يتهموا بالشعوبية . بل إن أبا عبيدة ، وهو الشعوبى ، قد مدح كذلك شعر الحطيئة مدحا شديدا ، رغم أن الحطيئة بدوى ، والشعوبيون فى ردّهم على العرب إنما يعيرونهم بعيش البادية الجلف الخشن ، وينسون تاريخ العرب بعد الإسلام ويرجعون القهقرى إلى الجاهلية ، التى عاش فيها الحطيئة صدر حياته وتمت له فيها موهبته الشعرية . أمّا دعوى د. نجيب البهبيتى بأن ما قاله العلماء العرب تقريظا فى حقّ شعر بشار قد اختلقه الشعوبيون على أولئك العلماء فهى دعوى بلا دليل . والأفضل أن نقول إن إعجاب هؤلاء العلماء بالجميل الفاتن من شعره قد دفعهم إلى تعميم الحكم أو على الأقل قد حجب عنهم الجانب الآخر من الصورة . أو ربّما لم يقرأوا كل شعره ، إذ ينبغى ألا نظنّ أن كل ناقد أو لغوى عنده الوقت لقراءة كل إنتاج الشعراء والكتاب الذين يتحدث عنهم . وبالمناسبة ، فمثل هذه الأحكام التعميمية التى تسودها المبالغة قد أُطْلِقت من قِبَل العلماء والنقاد القدماء على كثير من الشعراء عربًا وعجمًا ، فليست هى إذن مقصورة على بشار ، ولا هى تواطؤ بين النقاد الشعوبيين .

أما تقسيم العقاد لشعره إلى قسمين : رصين بدوى ، ورقيق حضرى ، فهو

تقسيم صحيحٌ ، إذ إن هناك فرقا واضحًا بين أراجيز بشار ومدائحه من جهة وبين غزلياته وهجائياته من جهة أخرى . أما قوله إنه لا يمتاز من غيره من الشعر بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير فهو حكم غير سليم ، لأن لشعر بشار خصائصه التى تسمه وتميّزه عن غيره . وقد استخلصنا فيما سبق عددًا كبيرًا من هذه السمات . وبالمثل فإن حكم العقاد على غزل بشار كله بالشهوانيّة هو حكم غير عادلٍ ، فقد رأينا بشارًا فى كثير من شعره حريصًا على تأكيد أنه وحبيبته قد التزما العفاف ولم يكن منهما إلا الحديث والنظر ، أو على أكثر تقدير لم ينل منها إلا لمسةً أو قرصة مثلاً . كما رأينا فى كثير من هذا الشعر أيضًا التأوهات والآلام والسُّهاد وحرقة الأكباد والإشفاء على الموت ، وليس هذا من الشهوانية فى شىء . على أنى أود أن أبين أننى حين أقول هذا لا أدعى أن حب بشّار كان هكذا فعلاً . كل ما فى الأمر أننى أرصد شعره وأفرز خيوط نسيجه ولا أتحدث عن سلوكه فى الحياة مع النساء اللاتى كان يعرفهن .

وإذا كان العقاد يفسّر حبّ بشار بأنه كان نزوعًا إلى مطلق الأنثى لا إلى امرأة بعينها فإن قصائد بشار المتعددة فى عبدة مثلا تدل على أنه كان يحبها فعلاً لشخصها لا لمجرد كونها أنثى . وقد رأينا أيضا من قبل كيف كان بشار يؤكد فى شعره لمن يحبها أنها هى التى تشغف قلبه وتملأ حياته وأن أية امرأة غيرها لا يمكنها أن تسدّ مسدّها .

إنّ فى غزل بشار ، بلا ريب ، قدرًا من الفحش ، لكنه قليل فى ذاته وقليل أيضا بالقياس إلى شعر كثير من الشعراء الآخرين . أما تأكيد حنا الفاخورى أن الكثير من شعر بشار قد أُتْلِف عمدًا لما فيه من فحش (٦١) فهو مجرد رجم بالغيب . ومن المؤكد أن حكم الدكتور شوقى ضيف على هذا الغزل كلّه بأن بشارا قد « أماله نحو الإفصاح فى وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحًا بثّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم

وفسق ، لا يتحرج ولا يراعى دينًا ولا خلقًا ، حتى ليصور جانبه الحيوانى الجشع ، عامدًا إلى التفصيل أحيانًا ، وأحيانا إلى الإجمال » (٦٢) هو حكم فيه قدر غير ضئيل من المبالغة ، مثلما أن هناك قدرا مثله من المبالغة فى قوله عن بشار والمكفوفين بصفة عامة إنهم لكونهم لا يرون الجمال بأبصارهم بل يلمسونه بأيديهم يكون غزلهم حسيًّا ويتسع جشعهم الجسدى ويصبح شعرهم ضربا من صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق (٦٣) . إن الضرير ، مثله مثل البصير ، قد يحب بجسده ، وقد يحبّ بروحه ، وقد يجمع فى حبه بين هذا وذاك . وتعميم القول على هذا النحو ظلم كبير .

على أنَّ د. شوقى ضيف يُرْجِع هذا الجشع الجسدى الذى ينسبه لبشار إلى سبب آخر فوق ما ابْتُلِىَ به الشاعر من كف البصر . ألا وهو أن بيئته ، كما يقول ، كانت « تكتظ بالجوارى والقيان ممن لا يعصمهن من الغواية دين ولا عرف » (٦٤) . ويبدو أنه كانت فى حياة بشار بعض الجوارى كما تخبرنا الروايات التى أوردها « الأغانى » ، لكننا نلاحظ أن الرجل فى شعره حريصٌ على تصوير حبائبه على أنهن ربيبات قصور ونعمة ، وتحف بهن الوصائف اللاتى يقمن بخدمتهن .

وقد رأينا فى غزل بشار الحوار بينه وبين حبائبه وصديقاتهن والقصص التى يحكى فيها لقاءاته بهن . كما وجدنا عنده الرسائل العاطفية إمَّا مستقلة بالقصيدة جمعاء أو متضَمَّنة فيها ، مثلما وجدنا عنده تدليل الحبيبة والتضرع أمامها ومناداتها بـ « يا عينى » و « يا قرة عينى » و يا « شقة نفسى » ويا « روحى » ويا « أميرتى » ... إلخ ، بل وتصويرها على أنها معبودته ، فتارة هى ربّه ، وتارة هى صنمه ، وثالثة يسجد أمام فتنتها . ولعله أيضا أول من ذكر فى شعره أن حبيباته كن يشاركنه شرب الراح . وهذا كله غير انفراده بتشبيه حديث حبيبته بالرياض المزهرة أو الثياب الموشاة الملونة ، أى تشبيه المسموعات بالمرئيات ، وكذلك انفراده بالتظاهر بطاعة

الخليفة فى الالتزام بعدم التعرض للغزل ثم التشبيب بالنساء فى نفس الوقت . ثم إنه ينفرد كذلك بتكرار الكلام عن دور الأذن والقلب فى عملية الحب . وذلك نابع من عماه وتعرض الناس له بالسؤال المستغرب عن كيفية إمكان وقوعه فى الحب دون أن يرى . وهذا كله يجعل لشعره مذاقًا خاصًّا حتى لو تشابه فى بعض جوانبه مع بعض من سبقه كعمر بن أبى ربيعة مثلاً .

وإذا كان أبو نواس قد هاجم فى بعض مطالع قصائده الوقوف على الأطلال وكذلك مطيع بن إياس (ولكن إلى حدّ قليل) فقد سبقهما بشار إلى شىء من هذا ، مما لم أجد أحدًا قد تنبَّه من قبل عليه . أليس هو القائل :

كيف يبكى لمحبس فى طلول ... من سيُفْضِى لحبس يوم طويلِ ؟
إن فى الحشر والحساب لشغلا ... عن وقوف بك رسم مُحيلِ (٦٥) ؟

وإن كان استنكاره الوقوف على الإطلال إنما هو لحساب البعث والحشر لا لحساب الخمر كما هو الحال عند أبى نواس .

على أننا لا نقول إن بشارا هو أول من دعا إلى نبذ الوقوف على الأطلال ورسوم الديار ، فقد قال حسّان بن ثابت من قبله يرثى عثمان رضى الله عنهما :

يا للرجال لدمع هاج بالسَّنَنِ ... لقد عجبتُ لمن يبكى على الدِّمَنِ

كمال قال الكميت بن زيد :

طربْتُ وما شوقًا إلى البيض أطْرَبُ ... ولا لعبًا منى ، وذو الشيب يَلْعَبُ
ولم تلهنى دار ولا رسم منزلِ ... ولم يتطربنى بنان مخضَّبُ

صحيح أنه لم يدع غيره إلى نبذ الوقوف بالرسوم والأطلال ، إلا أن إعلانه عن انشغاله عنها هو خطوة واسعة على نفس الطريق .

وثمة إشارة أخرى عند بشار إلى عدم البكاء أمام الأطلال ، وإن كانت عن صاحبٍ له لم يعرف الحب إلى قلبه سبيلاً

حاف عن البيض إذا ما غدا ... لم يبك فى دارٍ ولم يطربِ (٦٦)

ومن قبلُ نجد للأعشى هذا البيت الاستنكارى :

مـا بكـاء الكبيـر بالأطـلالِ وسؤالـى ومـا يُـردُّ سؤالـى ؟

ولرُؤْبة أيضا هذا البيت :

يا صاحِ ، ما شاقك من رسمٍ خالْ ودمنـة تعرفهـا وأطـلالْ ؟

كذلك سبق بشارٌ مسلمَ بن الوليد فى الرحلة إلى الممدوح على ظهر سفينة صوّرها تصويرًا ملغزا مثلما فعل بعده مسلم . ولم يصنع ذلك مرة بل أكثر (٦٧) . وقد عدّه د. حسين عطوان رائد وصف الرحلة إلى الممدوح فى سفينة (٦٨) .

وقد خلط بشار الغزل بالرثاء (٦٩) ، والغزل بالهجاء والمدح (٧٠) . وذلك قليل فى الشعر العربى .

ولبشار أيضًا قصيدة فى وصف شاة عجفاء أُهديت إليه فأصبحت عبئًا عليه ، وفى السخرية ممن أهداها له (٧١) ، مما سبق به ابن الرومى والحمدونى (٧٢) . وله كذلك بيتان فى وصف قباء خاطه له حائك اسمه عمرو (٧٣) سبق بهما الحمدونى ناعت الطيلسان .

كما رأيناه يربط نفسه بالملوك متحدّيا لهم ، أو مسامتًا إياهم ، أو ذاكرًا بصريح العبارة أنه منهم . وهذا مما ينفرد به فى حدود علمى .

الهوامش

١- انظر ديوان أبى نواس / تحقيق إيفالد فاجنر / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م / ٢ / ١٣ - ١٤ .

٢- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٤٤ .

٣- الحيوان / ٤ / ٤٥٤ ، ٤٥٧ .

٤- ابن قتيبة / الشعر والشعراء / ٢ / ٧٥٧ .

٥- طبقات الشعراء / ٢٣ .

٦- السابق / ٢٤ .

٧- نفسه / ٢٦ .

٨- نفسه / ٢٨ .

٩- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٤٧ .

١٠- الموشح / ٣٩٢ .

١١- السابق / ٣٩٠ .

١٢- انظر « الأغانى » / ٣ / ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٩٦ .

١٣- السابق / ٣ / ١٥٦ ، والموشح / ٤٠٨ - ٤٠٩ .

١٤- الأغانى / ٣ / ١٩٦ - ١٩٧ .

١٥- العقاد / مراجعات فى الآداب والفنون / ١١١ .

١٦- السابق / ١١٧ - ١١٨ .

١٧- نفسه / ١٢٥ .

١٨- نفسه / ١٤٠ .

١٩- حديث الأربعاء / ٢ / ١٩٧ - ١٩٨ .

٢٠- السابق / ٢ / ١٩٨ .

٢١- نفسه / ٢ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

٢٢- نفسه / ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤ .

٢٣- نفسه / ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٦ .

٢٤- نفسه / ٢ / ٢٠٧ .

٢٥- نفسه / ٢ / ٢٠٨ - ٢١٠ .

٢٦- الديوان / ١ / ١٠٢ .

٢٧- ١ / ١٠٥ .

٢٨- ١ / ١٤٦ . ولا ينفى طرافته ما سبق إليه الوليد بن يزيد مثلا ، إذ قال :

أمَّ سلاَّمَ ، مـا ذكرتُـكِ إلاَّ   شَرِقَتْ بالدموع منى المآقى

فإن هذه الصورة لم تنتشر فى الشعر العربى وتُبْتَذَلْ كَكثير من الصور الأخرى .

٢٩- ١ / ١٩٣ .

٣٠- مقدمة الديوان / ١ / ٧٥ .

٣١- الديوان / ١ / ١٦٠ .

٣٢- انظر هامش رقم ٣ بنفس الصفحة .

٣٣- الديوان / ٣ / ٢١ .

٣٤- ٣ / ٢٤٨ .

٣٥- ٣ / ٢٠ .

٣٦- ٣ / ٢١ .

٣٧- ٣ / ٢٤٨ .

٣٨- ١ / ١٧٣ .

٣٩- ٣ / ٦١ .

٤٠- ٣ / ٥٠ .

٤١- ٣ / ١٧٢ . ويرى الدكتور النويهى أن « البقة » عنا هى البعوضة . ولا أدرى لماذا اختار هذا المعنى ولم يختر المعنى الشائع لهذه الكلمة ، وهو « البقة » كما نعرفها كلنا ، وبخاصة أنه الأليق بالسياق . انظر « شخصية بشار » / ص ١٨٩ .

٤٢- انظر كتابه « القيم الفنية المستحدثة فى الشعر العباسى من بشار إلى ابن

المعتز » / مطبوعات جامعة الكويت / ١٧٩ .

٤٣- الديوان / ١ / ١٩١ .

٤٤- ١ / ٢٠٣ .

٤٥- ١ / ٣١٧ .

٤٦- ١ / ٣٦٠ .

٤٧- ٢ / ١٠٦ .

٤٨- ٢ / ١٠٨ .

٤٩- ٢ / ١٢٣ .

٥٠- ٢ / ١٤٧ . وهى من أبدع الصور رغم بذاءتها .

٥١- ٢ / ٢٢٤ .

٥٢- ٢ / ٢٥٩ .

٥٣- ٣ / ٢٩٥ .

٥٤- ٤ / ٣٢ .

٥٥- ٤ / ٦١ .

٥٦- ٤ / ٨١ .

٥٧- ٣ / ٢٣٢ .

٥٨- ٣ / ٢٦٥ .

٥٩- تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / ٣٣٦ .

٦٠- الشعر والشعراء فى العصر العباسى / ١٠٠ - ١٠١ .

٦١- انظر كتابه « تاريخ الأدب العربى » / ٣٧٤ .

٦٢- العصر العباسى الأول / ٢١٧ - ٢١٨ .

٦٣- السابق / ٢٠٧ ، ١٧٦ - ١٧٧ .

٦٤- نفس المرجع والصفحة . وانظر كذلك د . سيد حنفى حسنين ، الذى يشاركه الرأى فى هذه النقطة (بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق / ١٦٧ - ١٦٨) . ومن قبلُ قال

العقاد ذلك (انظر كتابه « شاعر الغزل » فى « مجموعة أعلام الشعر » / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ١ / ١٩٧١ م / ٦١) .

٦٥- الديوان / ٤ / ١٥٢ .

٦٦- ١ / ١٤٦ .

٦٧- انظر الديوان / ١ / ١٤٧ - ١٤٩ ، و ٣ / ٢٨٠ - ٢٨١ مثلا .

٦٨- انظر كتابه « الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية » / دار المحتسب ودار الجيل / ١٩٧٤ م / ٤٨٧ .

٦٩- سبق دريد بن الصمة والشماخ إلى إستهلال الرثاء بالنسيب . انظر ابن رشيق / العمدة / أمين هندية / ط ١ / ١٩٢٥ م / ٢ / ١٢١ ، وصلاح الدين الهادى / الشماخ بن ضرار الذبيانى - حياته وشعره / دار المعارف / القاهرة / ٢٦٢ .

٧٠- انظر الديوان / ١ / ١٢٨ ، ١٣٣ ، ٢٧ ، ٣٥٨ ، ٢٦٤ ، و ٢ / ١٧ - ١٨ ، ٦٢ - ٦٥ ، ٧٢ - ٧٣ ، ٧٩ - ٨٠ ، ١١٠ - ١١١ ، و ٣ / ١١٦ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٦ .
هذا ، وتبتدىء بعض النقائض بالنسيب ثم تأخذ فى الهجاء . ولابن الرومى أبيات فى تعليل بدء بعض قصائده بالنسيب ثم الخروج منه إلى الهجاء مفادها أنه يريد أن يأتى هجاؤه مفاجئا قائلا كالصاعقة بعد الغيث . وهذه هى الأبيات :

ألم تر أننى قبل الأهاجى … أقدم فى أوائلها النسيب
ليخترق المسامع ثم يتلو … هجائى محرقا يكوى القلوبا
كصاعقة أتت فى إثر غيث … وضحك البيض تتبعه النحيبا ؟

٧١- ٤ / ١٣٠ - ١٣٣ .

٧٢- ولست أقصد مع هذا أن لبشار السبق فى ذلك ، فإن لمعن بن أوس المازنى مثلا ، وهو من الشعراء المخضرمين ، أبياتا فى التهكم بابن الزبير لاهماله الضيفان طوال اليوم ثم تقديمه لهم فى آخر النهار تيسًا هرمًا هزيلاً قال فيه معن ضمن الأبيات المذكورة :

رمانا أبو بكر وقد طال يومنا … بتيس من الشاء الحجازىّ أعْفَرِ
وقال : « اطعموا منه » ، ونحن ثلاثة … وسبعون إنسانا . فيالومَ مَخْبَرِ

فقلت له : لا تقْرنا ، فأمامنا … جفانُ ابن عباس العُلاَ وابن جعفر
وكن آمنا ، وانعق بتيسك ، إنه … له أعتُزٌ ينزو عليها ، وأبْشِرِ

٧٣- وهذن هما البيتان :

خاط لى عمرو قبا … ليت عينيه سوا
قلتُ بيتا ليس يُدْرَى … أمديحٌ أم هجا

(الديوان / ٤ / ٩) .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .

* د . إبراهيم عوض / من ذخائر المكتبة العربية / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

* د . إبراهيم عوض / لغة المتنبى - دراسة تحليلية / مطبعة الشباب الحر ومكتبتها / ١٩٨٧ م .

* ابن الأثير / الكامل / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ٣ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

* ابن رشيق / العمدة / أمين هندية / ط ١ / ١٩٢٥ م .

* ابن سيده / شرح مشكل أبيات المتنبى / تحقيق محمد حسن آل ياسين / دار الطليعة / بيروت / ط ١ .

* ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق أحمد محمد شاكر / دار المعارف .

* ابن المعتز / طبقات الشعراء / تحقيق عبد السلام أحمد فراج / دار المعارف / ط ٢ .

* ابن النديم / الفهرست / تحقيق رضا - تجدد / طهران / ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

* أبو نواس / ديوان أبى نواس / تحقيق إيفالد ڤاجنر / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٣٧٨ م - ١٩٥٨ م .

* د . أحمد كمال زكى / الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى / دار المعارف .

* الأصفهانى / الأغانى / مؤسسة جمال للطباعة والنشر / بيروت (مصور عن طبعة دار الكتب) .

* بشار / ديوان بشار / تحقيق محمد الطاهر بن عاشور / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

* البغدادى / الفَرْق بين الفِرَق / مكتبة أنس بن مالك / ١٤٠٠ هـ .

* د . توفيق الفيل / القيم الفنية المستحدثة فى الشعر العباسى من بشار إلى ابن المعتز / مطبوعات جامعة الكويت .

* الجاحظ / البيان والتبيين / دار الفكر للجميع / ١٩٦٨ م .

* الجاحظ / الحيوان / تحقيق عبد السلام هارون / مصطفى البابى الحلبى / ط ٢ / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

* جرجى زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / تعليق د . شوقى ضيف / دار المعارف .

* د . جميل أحمد ظفر / النحو القرآنى / قواعد وشواهد / مطابع الصفا / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

* حسين عطوان / الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية / دار المحتسب ودار الجيل / ١٩٧٤ م .

* حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / المطبعة البولسية .

* الزركلى / الأعلام .

* سحيم / ديوان سحيم / تحقيق عبد العزيز الميمنى / دار الكتب المصرية / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

* د . سيد حنفى حسنين / بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق / دار الثقافة للطباعة والنشر / القاهرة / ١٩٧٨ م .

* السيوطى / همع الهوامع - شرح جمع الجوامع / دار المعرفة / بيروت .

* الشافعى / الرسالة / تحقيق أحمد محمد شاكر / مكتبة التراث / القاهرة / ط ٢ / ١٣٩٩ هـ .

* د . شوقى ضيف / العصر الإسلامى / دار المعارف / ط ٧ .

* د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٦ .

* د . شوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / دار المعارف / القاهرة / ط ٨ .

* صلاح الدين الهادى / الشماخ بن ضرار الذبيانى - حياته وشعره / دار المعارف / القاهرة .

* الطبرسى / مجمع البيان فى تفسير القرآن / مكتبة الحياة / بيروت .

* د . طه حسين / حديث الأربعاء / دار المعارف / ط ١٣

* عباس محمود العقاد / مراجعات فى الآداب والفنون / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٩٦٦ م .

* عباس محمود العقاد / شاعر الغزل (فى « مجموعة أعلام الشعر » / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ١ / ١٩٧١ م) .

* د . عبد الفتاح صالح نافع / الصورة فى شعر بشار / دار الفكر / عمان / ١٩٨٣ م .

* د . عبده بدوى / الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٣م .

* د . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

* القلانسى / إرشاد المبتدى وتذكرة المنتهى فى القراءات العشر / تحقيق ودراسة عمر حمدان الكبيسى / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / ط ١ .

* د . محمد زكى العشماوى / موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى / دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ١٩٨١ م .

* د . محمد عبد العزيز الكفراوى / الشعر العربى بين الجمود والتطور / دار نهضة مصر / القاهرة / ط ٢ .

* د . محمد نبيه حجاب / معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٢ / ١٩٧٣ م .

* د . محمد النويهى / شخصية بشار / دار الفكر / ط ٢ .

* المرتضى / أمالى المرتضى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابى الحلبى / ط ١ / ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

* المرزبانى / الموشح / تحقيق على محمد البجاوى / دار نهضة مصر / ١٩٦٥ م .

* د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٦ / ١٩٦٨ م .

* المعرى / رسالة الغفران / دار صادر / بيروت .

* د . نجيب محمد البهبيتى / تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٨٢ م .

* الوليد بن يزيد / شعر الوليد بن يزيد / جمع وتحقيق د . حسين عطوان / مكتبة الأقصى / عمان / ط ١ / ١٩٧٩ م .

* ياقوت الحموى / معجم البلدان .

* يوسف الصميلى / بشار بن برد - شخصيته ومنهجه الشعرى / دار الوحدة / بيروت .

* André Miquel , La Littérature Arabe , « Que sais-je » (no. 1355) , Paris .

* Beaston , Selections from the Poetry of Baššar , Cambridge University Press , 1977 .

* Encyclopaedia of Islam , 1st ed .

* R. A. Nicholson , A. Literary History of the Arabs , Cambridge University Press , 1979 .

الفهرس

الملامح الفنية لشعر بشار